AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00952 5142
DC
103
.M9
1933

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

04-B5493

E
OF
ERSITY
الجامـ

DC
103
M9x

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
CAIRO

جان دارك

فى سبيل الوطن

تأليف
غانم محمد

920.7
J571g

٩٢٠,٧
ج.غ٢

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
CAIRO

17056

E
OF
ERSITY
الجامع

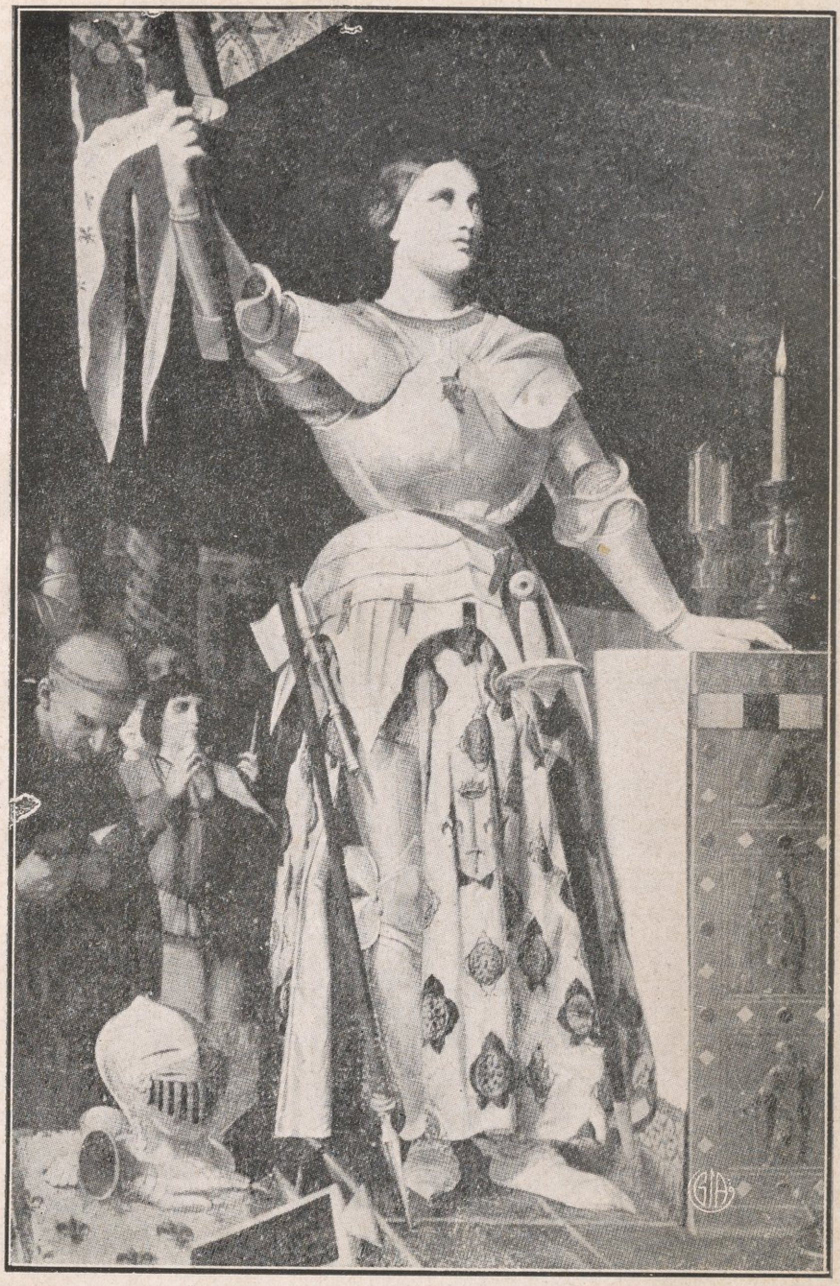

جان دارك بريشة الرسام (انجرس) وهي معروضة بمتحف اللوفر

فهرس الفصـــول

صفحة

تصدير
مقدمة
١ فرنسا فى مطلع القرن الخامس عشر
١٣ نشأة جان دارك
٣٨ رسالة جان دارك
٦٣ فى الطريق إلى الدوفن
٦٨ عند الملك فى شنون
٧٨ جان فى بواتييه
٨٤ فى سبيل النصر
١٠١ رفع الحصار عن أورليان
١٠٨ فى سبيل التاج
١٢٩ التتويج فى ريمس
١٣٧ طريق التضحية
١٥٨ وقوع جان فى الأسر
١٧٥ جان دارك فى السجن
١٩٠ محاكمة جان دارك

صفحة

٢٣٤ المحاكمة السرية

٢٤١ توجيه الاتهام لجان دارك

٢٥٧ إعلان الحكم

٢٧٢ بعد صدور الحكم

٢٧٩ المأساة

٢٨٥ حياتها بعد موتها

٢٨٩ محاكمة جان دارك بعد موتها

٢٩٥ جان دارك بين الأمتين الانجليزية والفرنسية

٣٠٢ الخاتمة

فهرس الصور

صفحة

– جان دارك على المحرقة (صورة الغلاف بالألوان)

– جان دارك بريشة الرسام (انجرس) وهى معروضة بمتحف اللوفر .

– منزل جان دارك فى دومريمى ١٣

– الحجرة التى ولدت فيها جان دارك في دومريمى ١٦

– جان دارك تستمع إلى « الاصوات » ٣٨

– ولى العهد (الدوفين Dauphin)

– شال السابع ملك فرنسا . ٦٨

– دخول جان دارك إلى اورليان ٨٤

– استيلاء جان دارك على قلاع اورليان ١٠١

– تتويج شارل السابع فى كاتدرائيه ريمس ١٢٩

– محاكمة جان دارك ١٩٠

أهم المصادر

1. Personal Recollections of Joan of Arc.
   By The Sieur Louis de Conte.
   Translated by Jean Francois Alden.
   By Mark Twain.
2. Jeanne d'Arc Par Joseph Delteil.
3. Causeries du Lundi par Sainte-Beuve.
4. Jeanne d'Arc, Her Life and Death.
   by Mrs. Oliphant.
5. Joan of Arc by Hilaire Belloc.
6. The Story of Jeanne d'Arc
   By E. M. Wilmot-Buxton.
7. The Story of JOAN OF ARC.
   By Andrew Lang.
8. Saint Joan by Bernard Shaw
9. Life Lessons From Blessed Joan of Arc
   by Father Bernard Vaughan, S. J.
10. Joan of Arc
    And The Making of The French Nation.
    By M. Orlidge Davis.

11. **France,** The Nation And Its Development.
By William Henry Hudson

12. **Joan of Arc nd England**
By John Lamond

13. Little Master Pieces by Thomas de Quincey

14. The Fifteen Decisive Battles of The World
By Sir Edward . S. Creasy.

15. The Middle Ages by E. B. Osborn.

16. The Encyclopaedia Britannica.
Fourteenth Edition.
Volume 13

etc. , etc. . .

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــــدير

« أحببت جان دارك . وحبي لهـا هو أهم سبب حملني على ترجمة حياتها ، ولا حاجة إلى سبب آخر »

هذه كلمة أحد المترجمين لها من نوابغ الكتاب الفرنسيين ، وهو « جوزيف دلتيل » الذى استحق كتابه عنها جائزة « فمينا » لسنة ١٩٢٥

وفى الواقع أن هذه هى أيضاً كلمتى بعينها إلى كل سائل يسألني عما حدانى الى الترجمة لجان

فان حبى « جان دارك » ليس وليد اليوم ، بل هو قديم عميق. فى سنة ١٩١٨ كنت مدرسا بمدرسة رأس التين الثانوية وجرت سنّة المدارس الثانوية أن توصى مدرسيها بالقاء بعض المحاضرات العامة على التلاميذ فى غير أوقات الدرس ، فاخترت أن أحاضر التلاميذ فى « جان دارك » . وأمامى الآن نص تلك

المحاضرة التي ألقيت كما هو مسطور بحاشيتها « في يوم الاربعاء الساعة ٣ والدقيقة ٣٠ من عصر يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٩١٨ »

وقد قلت في مقدمة تلك المحاضرة ما يأتي : « لم أكتب
« مذ عرفت أناملى قبض القلم وتحريكه ، ولم تنطق شفتاى مذ
« انفرجتا للنطق ، ولم يخفق قلبى ، ولم يجش وجدانى وتنشرح
« جوانحى ، منذ ان خرجت الى الدنيا ، لأمر من الأمور هو
« اسمى وأرفع وأشرف من الغرض الذى أرمى اليه بموضوع
« محاضرتى اليوم !

« وان موضوع كلامي موضوع تناولته قبلى بالبحث
« والانشاد أقلام الفحول من المؤرخين والشعراء والناثرين
« البلغاء ، موضوع كتب فيه فولتير ، وشكسبير ، وسوزى ،
« وشيلر ، وغيرهم من الاعلام . إلا أنه بالرغم من ذلك التفاوت
« الشاسع بينى وبينهم سألقى بدلوى بين الدلاء عملا بالحكمة
« القائلة لكل مجتهد نصيب . . . »

هـذا ما كتبته من خمسة عشر عاما . وأظهر ما يظهر فى عباراته شدة حماستي وعظيم حبى لجان دارك ، ذلك الحب القديم العميق . . . !

وفى سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٢١ ألقيت محاضرتين عن جان دارك فى المدرسة السعيدية ، ومن يدرى لعلّى كنت مستمراً على القاء المحاضرات عنها لو لم أنقل من سلك التدريس الى الوظائف الادارية .

وفى الحق أنى طوال العشرين السنة الاخيرة ، لم أقع على كتاب أو مقال فى صحيفة من الصحف يدور موضوعه على جان دارك ، الا التهمته قراءة وتوفرت على درسه !

وفى كتابى اليوم ثمرة دراسة تلك السنين الطوال

واني لأنتهز فرصة هذه الكلمة لأتقدم بواجب الشكر إلى الاخوان الخلصاء الذين ساعدوني فى اعداد الكتاب للطبع ، كما انى مهما قلت ورددت فلن أفى بما عليّ من الدين للمؤلفين الأكابر من الغرب الذين سبقونى ، وكان لكتاباتهم عن « جان دارك » أكبر الفضل ، بل قل الفضل كله ، فيما عرفته عن بطلة أورليان وقديسة فرنسا !

القاهرة فى مايو سنة ١٩٣٣

المؤلف

غانم محمد

مقـــــــدمه

يقع هذا التاريخ المشهود لحياة جان دارك ، الفتاة البتول ، بطلة أورليان ومنقذة فرنسا ، فى مستهل القرن الخامس عشر . وهو جيل عامر بالأحداث الكبار . حافل بالدوافع والمؤثرات . فيه بزغت شمس النهضة الحديثة فى اوروبا ، وآذنت طلائع الاصلاح ، حتى أخذت ظلمات القرون الوسطى تنجاب ، وبدأت تتهيأ العقول هنا وهناك للتفكير الحر ، وتنشط بعد الركود الطويل .

ولعل أشق أدوار الأمم ، وأشدها وطأة عليها ، وأعزها تضحية ، هو دور الانتقال والتحول من حال إلى حال : من قديم موروث إلى جديد مبعوث . ففى هذا الدور يقع التصادم قاسياً فاجعاً بين القديم والجديد ، ويكثر في بادىء الأمر الشهداء والضحايا بين دعاة التجديد . ذلك أنهم ثائرون على ماجرت به العادة وانعقد عليه العرف ، مبشرون بحقيقة تفتق الأذهان ، وتجر إلى تقويض أركان وتشييد أركان ،

فيقف فى وجههم الجامدون والمغرضون ، ويشتدون فى مناوأتهم ، وقد يستحلون فى كبت هذه الحركات كل منكر ، ويقدمون على كل كبيرة ، وبخاصة أولئك الذين تجىء الدعوة الجديدة مبطلة لشوكتهم ، قاضية على نفوذهم . بيد أن المجددين لا يلبثون أن يثبتوا أقدامهم ، ويسددوا إلى الأمام خطواتهم . فتتقدم قضيتهم ، ويعز أنصارهم ، ويصيرون من قلة إلى كثرة .

وفى خلال هذا النضال يتساقط الهلكى من الجانبين ويسجل التاريخ للفريقين وقائع وفواجع . ولا أظن القارىء بحاجة إلى الأمثال إذ المثل بين يديه ملحوظة محسوسة يعرفها كل متتبع لحركات الاصلاح فى الأدب والسياسة والاجتماع .

وفى زمن جان دارك كان الجهل يرين على العقول والأفكار ، لا يحس الفرد لنفسه ذاتية خاصة أو شخصية قائمة ، بل كان وجوده ملغياً فى المجموع ، وكان لزاماً عليه أن ينسج على منواله فى الرأى والعقيدة دون تفكير أو تعقيب . فالكنيسة ترى له الرأى ، وتحدد له صورة العقيدة التى يؤمن بها ، دون أن يكون له أدنى حق فى مناقشتها ، بل عليه قبولها قضية مسلمة لا تقبل تأويلا ولا تخريجاً .

وكان لتفشى الجهالة فى تلك الأيام أثره الكبير فى رواج الخرافة ، وانتشار الخزعبلات ، والاعتقاد فى السحر . فتكاثر الدجالون والسحرة

من كل عجوز شمطاء، أو يافعة رقطاء. فدفع ذلك الكنيسة إلى إصلائهم نار حرب شعواء، تذهب بريحهم، و تستأصل شأفتهم، فى غير رفق ولا هوادة، خشية أن يزاحمها مزاحم فى السيطرة على عقول الشعب.! وحسبك دليلا على نقمة الكنيسة عليهم، والمدى الذى ذهبت إليه فى الفتك بهم، أن تعلم أن أسقفاً واحداً أحرق فى سنة واحدة ستمائة عجوز(١) ...! وقد جرى ذلك في أواخر القرن السابع عشر، أى بعد زمن جان دارك بقرن ونصف قرن من الزمان.

ولم تقف مطاردة الكنيسة عند السحرة وسحرهم، بل تعدتهم إلى كل مفكر فيما حواليه من المظاهر الكونية تفكيراً يخالف ما رسمته الكنيسة من قواعد وحدود !! وكان العلم وقفا على القساوسة والرهبان. والويل والثبور لمن تحدثه نفسه ببحث أو تنقيب، فهو إذا افتضح أمره معدود من الخوارج على الدين، ومصيره مصير السحرة الماكرين، أى الاعدام حرقا ! ومن هذا القبيل حادث القبض على جاليليو الرياضى الايطالى المشهور (١٥٦٤ — ١٦٤٢) ومحاكمته، لأنه استعمل المناظير، وأثبت صحة ما ذهب إليه قبله كوبونيق الألمانى (١٤٧٣ — ١٥٤٣) من دوران الأرض حول الشمس، خلافا للعقيدة القائلة بأن هذا الكوكب الأرضى ثابت وأنه مركز العالمين ! ولولا أنه عاد

---

(١) نقلا عن كتاب "تذكار جيتى" للاستاذ الكبير عباس محمود العقاد

فنقض ما أبرم ، لأصبح رماداً تذروه الرياح . مع أن ما أثبتـه أصبح اليوم من البدهيات التى يلقنها الأطفال .

ولا يذهبن بك الوهم إلى أن الكنيسة تشتد فى مطاردة خصومها ، لأن سلطان الدين كان له أثره في تلك النفوس الجامحة ، يكبحها و يلزمها مغالبة النفس على شهواتها ، والاستمساك بالآداب ، و رعاية الفضيلة وصيانة الشرف ..؟! كلا ! فان شيئاً من ذلك لم يكن فى ذلك الزمن . بل استفاضت فيـه جميع المفاسد وغوايات الجسد ... وما من عصر فى التاريخ سادت فيـه الرذيلة الفضيلة كذلك العصر ! ولولا أنه حديث مستكره غير مستساغ ، والخوض فيه غير مستحب ولا مناسب ، لقدمت بين يديك أيها القارىء بعض الأمثلة التى تفيض بها كتب التاريخ عما اجتمع لهذا العصر من معايب وقبائح . فهو زمن المتناقضات فى ظاهره التدين ، وفى باطنه الفسق والفجور .

هذه اللمحة العجلى عن ميول الأفراد والجماعات وعقائدهم ، في العصر الذى درجت فيـه جان دارك ، ذكرناها كما ذكرنا بيانا عن « النظام الاقطاعى » الذى كان سائدا فى أوربا عامة وفى فرنسا خاصة ، فى الفصل التالى . وذلك لكى ينصفها القارىء الحديث ، وينصف زمانها إذا عنّ له أن يقدر ما وقع منها ، وما وقع لها من الفواجع . فانت إذا حاكمت معاصريها بمقاييس العصر الحاضر واعتباراته ، فقد

تنكبت سبيل الرشاد ، وحدت عن جادة النصفة . فشتان بين زماننا وزمانهم ! . وإن عوامل البيئة ومؤثراتها تختلف فى العصرين اختلافا شاسعاً يجعل المقايسة بينهما من قبيل التعسف والاحالة .

أما جان دارك ، فقد كانت شخصية فذة ، اجتمعت لها صفات ومميزات ، سمت بها عن مستوى معاصريها « كانت أمينة صادقة ، فى زمن فيه الأمانة ضائعة ، والصدق منكور ، وكانت وفية بالعهد إذا عاهدت ، يوم أن غاض الوفاء وانطمست معالمه ومعانيه . شغلتها عظائم الأمور ، ونبل الأغراض ، فى زمن عقول كباره مشغولة بالغرض التافه والمرمى القريب . وكانت شريفة طاهرة الاردان فى جيل لا يعرف الطهر والشرف ، مقداما غير هيابة فى زمن بطلت فيه الشجاعة واقفرت فيه القلوب من دواعى النخوة .. . من هذه الناحية تمتاز جان دارك على معاصريها . بل هى دائماً فى الكفة الراجحة سواء أوزنت بميزان الماضى ام كان بموازين الحاضر او المستقبل وزنها . ومن هذه الناحية ايضا قد يلتمس العذر لمعاصريها إذا هم تعذر عليهم فهمها فأحرقوها . .! »

وليس أدل على الفرق بين عقليتهم وعقلية العصر الحاضر من ان تعلم ان الكنيسة التى امر رجالها باحراقها ، بتهمة خروجها على الدين هى هى الكنيسة التى ترفعها الآن إلى مصاف القديسين ، وتجعل لها

لعمرانها شخصية جديرة بالمجد والخلود

بين اعيادهم يوماً من الأيام الغر الميامين ، تقام لها فيه الصلوات ، وترسل الدعوات .

وفى الحق ان امر جان دارك ، الذى ادهش اهل زمانها ، لايزال يحمل فى طواياه مايدهش له اهل الزمن الحاضر واهل كل زمان .. ! ولعمرى إنها لعجيبة لا ينقضى منها العجب ان جان ، الفتاة القروية الساذجة ، التى لم تبلغ بعد السابعة عشرة من عمرها ، فضلا عن أميتها وجهلها ، تستطيع ان تتولى « القيادة العليا » لجيش أمتها ، وان تنتزع القيادة من بين ايدى الخونة والدساسين الذين كانوا يحيطون بمليك بلادها . ثم يتحقق ذلك فى وقت انحطت فيه روح الجيش المعنوى وضاع كل امل فى النصر . فتنفخ فيه جان من روحها ، وتخلقه خلقاً جديداً ، وتزيل مابه من فساد ، وتلم شعثه ، وتجبر انقسامه . ثم تقوده الى النصر المبين ، وتجلى عن بلادها العدو المقيم .. ! فتاة قروية تنقذ وطنها وهو من المهانة فى الحضيض الأوهد ، وتحرر مواطنيها من ربقة النير الأجنبى بعد ان فت اليأس فى عضدهم وذلوا لمستذليهم ! وترد على مليكها عرش اجداده وحقه فيه ، بعد إذ استسلم لقضاء الله وقدره ، وأخذ يعد العدة للفرار من بلاده !

حقا إن هذا لاشبه بالمعجزات منه بحوادث التاريخ ومعالم الايام ! ولسنا نعدو الواقع إذا قررنا انه لم يقيض لبشر من احد الجنسين غيرها

ان يتولى قيادة جيش وهو فى مثل سنها ولا يدرى من فنون الحرب شيئا ! وإن ننس لا ننس ان هذه الفتاة كانت اول رسل الوطنية الحديثة بمعناها الصحيح . فقد قامت تدعو أهل فرنسا إلى نبذ الخصومة وضم الصفوف ، وأن يعتصموا بحبل الله جميعا ولا يتفرقوا ، وان يقوموا قومة رجل واحد فى وجه الغاصب الاجنبى عدوهم المشترك ! وكم كانت وطنية جان جذابة فى بساطتها ، يوم أخذت ترسل الرسائل إلى الانجليز تدعوهم : « ان يقفلوا إلى بلادهم التى أعطاهم الله ، وان يجلوا عن فرنسا التى اختص الله بها الفرنسيين ... ! »

ولقد كان للكنيسة مع جان دور هام بدأ بتشكيك الناس فى رسالتها ، وانتهى باتهامها بالزندقة ، و تسليمها للانجليز لكى يحرقوها غير أننا نحب ان نقتصر في ترجمة حياة جان دارك على الناحية الوطنية منها ، وأن نضرب صفحا عن الافاضة فى موقف الكنيسة منها وموقفها من الكنيسة ، لعدم اهمية ذلك للقارىء المصرى من جهة ، ولتغير موقف الكنيسة من جان من جهة اخرى ، إذ أصبحت فى نظرها — كما هى فى نظر بنى وطنها على اختلاف مللهم ونحلهم — قديسة بين القديسين ، وعلم الوطنية الذى يهدى بهديه الوطنيين .

ويهمنا أن يعرف القارى المصرى ان تفاصيل حياة جان دارك قد تكون أصح وأدق ما عرف عن عظيم فى التاريخين الحديث والقديم . ولا نغلو فى القول إذا قلنا إن اخبارها التى انحدرت الينا من عدة قرون

ماضية ، أصح وادق من ترجمة حياة نابليون مثلا . ونابليون كما تعلم اقرب الينا منها ، فهو من عظماء القرن التاسع عشر ، وهى قد عاشت فى القرن الخامس عشر . أتدرى لماذا ؟ لأن الوثائق الرسمية ومحاضر جلسات محاكمتها فى سنة ١٤٣١ ، — وبين دفتيها شهادة الشهود فيها على اختلاف الوانهم وطبقاتهم ، من اهل القرية التى نشات فيها ، والذين زاملوها فى الحرب والسلم ، والذين نصبوا انفسهم لها اعداء ، او كانوا لها اولياء ، واقوال القضاة والقواد بين عاطف وناقم ، وكذلك محاضر قضية رد اعتبارها ، التى اضطر الملك اليها بعد ربع قرن من حرقها ، لكيما يدفع تهمة الالحاد عنها ، فيدحض عن نفسه عار بلوغه الملك على يد ساحرة — هذه الوثائق جميعها ، كاملة غير منقوصة ، لا تزال محفوظة فى دار المحفوظات الاهلية بفرنسا .

ولقد صدق من قال إن اخبار حياة جان دارك هى ، دون سواها فى التاريخ ، الاخبار التى سجلت امام هيئة قضائية مسئولة بعد ان حلف اليمين القانونية على صحتها كل من رواها ... !

واليك تاريخها العجيب !

فرنسا
أثناء
حرب المائة سنة
كاليه
فلندرز
اجنكورت
هينولت
كريسى
بونتيه
روان
كمبيين
ريمس
نرمندى
باريس
برستو
بريتانى
اورليان
ن. اللوار
تور
أنجو
بواتو
بواتيه
بردو
جيين
خليج
بسكى
بايون
نفار
تولوز
أرجون
دوفين
بروفانس

فرنســـــا

فى مطلع القرن الخامس عشر

النظام الاقطاعى

بقيت أوروبة الغربية زهاء ستة قرون كاملة تبتدىء من القرن التاسع للميلاد رازحة تحت نير النظام الاقطاعى . وكانت فرنسا من أكثر البلدان خضوعا لهذا النظام . وبعبارة أخرى إن نظام الحكم الحالى ، الذى يقوم على توزيع السلطات إلى قضائية ، وتشريعية ، وتنفيذية ، مع تعميم أحكامها على الدولة بأسرها ، لم يكن معروفا فى أوروبة الى ماقبل الثورة الكبرى . ونظام الاقطاع ، كما لايخفى ، يطلق على الروابط الاقتصادية والاجتماعية ، التى قامت عليها علاقات الناس بعضهم ببعض ، خلال تلك القرون العدة . ولا نعدو الواقع إذا قررنا ان هذا النظام ، أو على الأقل أصوله ، ظلت سائدة فى غرب أوربة إلى حين قيام الثورة الفرنسية الكبرى عام ١٧٨٩ ، فقد عاش الأشراف ، طوال هذا الزمن ، شبه مستقلين ، يملكون الأرض ، ويحكمون من عليها ، ولا يسمحون لملك أو امبراطور بالتعرض لشئون « إقطاعاتهم » وإن كانوا يتظاهرون بالخضوع له ، ويساعدونه

كلما استعرت الحرب ونشب القتال .

ولا مشاحة فى أن فرنسا ، فى القرن الخامس عشر ، كانت محكومة طبقا لأصول ذلك النظام وتقاليده . وليس ثمة اى وجه من وجوه الشبه بين ما كانت عليه فرنسا حكومة وشعبا فى ذلك الزمن ، وماهى عليه الآن . كان لها ملك ، وكانت للملك السيادة الاسمية على جميع أشراف بلاده . ولكن نفوذه الفعلى لم يكن فى الواقع ، وبخاصة فى القرون الأولى ، يتعدى دائرة قطيعته الخاصة . وكانت البلاد مقسمة بين الاشراف الى مايقرب من المائة قسم تتفاوت في المساحة والنفوذ . فمن الامارة الكبيرة التى تكاد تكون دولة مستقلة ، إلى القطيعة الصغيرة التى لاتتجاوز مساحة ضيعة من ضياع الأغنياء فى الزمن الحاضر . ولم يكن بين الملك وأمرائه من الصلات إلا ماقضى به النظام من مساعدة الأشراف له وقت الحرب ، بكتيبة من المحاربين كاملة العدة ، وبالمؤن . وفيما عدا ذلك ، كان الامراء مستقلين عنه ، ومستقلين بعضهم عن بعض ، والناس يدينون بالولاء لأمرائهم دون الملك . ولهم وحدهم تعنو وجوههم ويقسمون يمين الطاعة والاخلاص فكانوا بذلك فى حل من أن يقاتلوا تحت لواء سيدهم ، ولو كانت الحرب ضد الملك نفسه .

وكانت الحروب والمنازعات بين الأمراء ، أو بينهم وبين مليكهم ، أو بينهم وبين جيرانهم ، أو بين السيد وأتباعه ، أو بين

الاتباع أنفسهم ، لا تكاد تخمد جذوتها أو تنتهى عند حد .

أما الشعب فقد كان بطبيعة الحال طبقات بعضها فوق بعض . وأهم هذه الطبقات ، طبقة الأشراف ، وطبقة الفرسان ، وطبقة زراع الأرض أو « الرقيق » ولكل طبقة من هؤلاء مصالح تتعارض مع مصالح الطبقات الأخرى ، فكانت تحاول الوصول اليها ولو بالجور على حقوق الآخرين .

وفى الواقع كان الأشراف وحدهم هم المتمتعون بمزايا عهد الاقطاع فقد اجتمعت السلطة فى ايديهم ، وكان الملك ، كما مرّ بك ، لا يمتاز عليهم بأكثر من لقب الملكية .

اما الفرسان فكانوا أهل طعن ونزال ، ومساعير حرب وقتال شبوا على مبادىء إنكار الذات ، وإيثار الغير ، ونصرة الضعيف ، واحترام النساء .

وصارت الفروسية حرفة لأولاد الأشراف ، يروضهم عليها فارس مشهور ، ابتداء من سن السابعة إلى سن الحادية والعشرين . وفى نهاية تدريبه كانت تقام حفلة دينية يمنح فيها الشاب لقب « فارس » .

وأما طبقة الزرّاع ، أى الذين يقومون بفلاحة الأرض ، فقد كان عليهم عبء الإنتاج ، يمنحهم الشريف الأرض فيزرعونها على أن يعطوه جزءا مما تغل ، وان يتفرغوا للعمل فى أرضه أياما مقررة فى كل أسبوع .

ولم تكن هـذه كل القيود التى كانت على التابع لمتبوعه ، بل لازالت هناك قيود أخرى من بقايا عهد الرق فى زمن الرومان ، مثل عدم تزويج التابع ابنه أو ابنته إلا باذن من سيده ، وأن يقدم للسيد عند هذا الزواج منحة مالية ، وأن يفتديه بالمال إذا أسر فى أثناء حرب أو قتال ، كما كان عليه أن يقدم لمولاه ، إذا شرّفه بالزيارة ، قدراً من الماشية ، والطير ، والعسل !

وكان الشريف هو الحكم فيما يشجر بين أتباعه من خلاف ، وهو الذى يقوم بجميع الأعمال الادارية والحربية التى تستلزمها شئون قطيعته ، مستقلا بكل هـذه الشئون استقلالا تاما لايشاركه فيها مشارك . ولذلك كنت ترى فى كل مكان حكومة قائمة بذاتها ،تتصرف فى شئون الامارة طبقا لتقاليدها الخاصة .

وجملة القول فى النظام الاقطاعى إنه يستحق ما أطلقه المؤرخون عليه من أنه « كان الفوضى منظمة » .

فى اللمحة المتقدمة عرفت شيئا من الشئون الدنيوية وكيف كانت تجرى فى فرنسا خلال القرن الخامس عشر والقرون التى سبقته ، بل والقرون التى لحقته . والآن يحق لك معرفة طرف من شئون الناس الدينية ، إذ كانت لها أهمية خاصة ، فى حياة الفرد ، وفى حياة الجماعة ، فى ذلك الزمن .

وفى الواقع أنه من يوم ان جاهر أحد أساقفة رومة ، فى القرن الخامس ، « بأن العالم تحكمه قوتان ، قوة الكنيسة وقوة الملك ، والأولى تفوق الثانية لأن الكنيسة مسئولة أمام الله عن أعمال الجميع حتى أعمال الملوك أنفسهم » من ذلك اليوم وسلطان الكنيسة يتزايد حتى علا كل سلطان . وبعد ان كان الاساقفة ورؤساء الاديرة يحتمون بالأمراء المجاورين ، اخذوا ينسجون هم ايضاً على منوال الأمراء ، ويقسمون أرض الكنيسة قطائع يمنحونها « اتباعهم » ، ويكون لهم عليهم ما للأشراف على اتباعهم من حقوق وواجبات . واجتمع لرجال الكنيسة سلطان الدنيا وسلطان الدين . ومن ثمّ سارت السلطتان الدينية والدنيوية جنبا إلى جنب وإن كانت الأولى تدرجت في القوة والسلطان حتى أصبحت لها السيطرة العليا على الرعايا ، والملوك والأباطرة

تلك صورة من حال الناس الاجتماعية والسياسية ، والدينية ، فى زمن جان دارك .

علاقة فرنسا بالانجليز

كانت العلاقة بين البلدين منذ وجود انجلترا ودخول البريطان فيها وهم من أهل « بريطانيا » مقاطعة في شمال غربى فرنسا ، ولايزال اسم « بريطانيا » يطلق على الجزيرة إلى اليوم .

وفى سنة ١٠٦٦ أدعى وليم دوق نورمندية ، فى شمال فرنسا ، عرش انجلترا لنفسه بعد موت مليكها عن غير وارث . ثم عبر وليم « المانش » وهاجم « هارولد » الذى اختاره القوم ملكا عليهم ،وهزمه فى موقعة « هيستنجس Hastings الشهيرة سنة ١٠٦٦ ، وسمى باسم « وليم الفاتح » وتوّج ملكا على انجلترا .ثم اسس حكومة قوية أدت إلى امتزاج أهل « نورمندية » بسكان الجزيرة ، وصارت اللغة الفرنسية لغة البلاط ولغة طبقات الاشراف الارستقراطية » .

وفي تلك الأثنـــاء ، كان ملك فرنسا يدعى فيليب الأول (١٠٦٠—١١٠٨) وكان وليم دوق نورمندية ، بحكم النظام الاقطاعى ، من اتباع ملك فرنسا فلما استولى على جزيرة البريطان وارتقى عرشها ، بقى بصفته دوق نورمندية ، وطبقاً للتقاليد ، على تبعيته الاسمية لملك فرنسا ، وان كان انصرافه إلى مملكته الجديدة قد أبعده عن فرنسا ، فقوى بذلك نفوذ ملك فرنسا فى داخلية البلاد .

وفى عهد هنرى الثانى ملك انجلترا (١١٤٤ — ١١٨٩) ضم الى نورمندية ، التى ورثها عن الفاتح ، مقاطعتى « انجو » و « اكويتين » فأصبحت أملاكه فى فرنسا اكبر من أملاك التاج الفرنسى نفسه فيها. وفى مدة حكم فيليب اغسطس (١١٨٠—١٢٢٣) ملك فرنسا ، ضمت الأملاك الانجليزية فى فرنسا الى التاج الفرنسى ما عدا

« اكويتين » وذلك بعد موقعة « بوفى سنة ١٢١٤ » قرب مدينة « ليل » التى انهزمت فيها جيوش الملك « جون » ملك انجلترا امام جيوش فيليب ملك فرنسا . ولكن حدث بعد ذلك ان تمكنت انجلترا من ضم بواتيه وغسقونيه اليها .

حرب المائة عام بين فرنسا وانجلترا (١٣٣٨-١٤٥٣)

ثم قامت بين البلدين الحرب المعروفة فى التاريخ بحرب المائة عام.

وكان أهم اسباب النزاع تمسك ملوك انجلترا بحقوقهم فى املاكهم الفرنسية ، بعد أن فقدوا نورمندية و أنجو ولم يبق لهم إلا أكويتين وبواتيه وغسقونيه ، وتصميم ملوك فرنسا على ضم تلك الاصقاع اليهم وبسط نفوذهم عليها . ومن ثم لبث الفريقان يتحينان الفرصة للاشتباك فى الحرب . وفى سنة ١٣٢٨ رأى ادورد الثالث ، ملك انجلترا ، ان الحظ مواتيه ، وان الفرصة سانحة لا لاسترداد املاكه فى فرنسا فحسب ، بل للاستيلاء على عرشها لنفسه . ذلك انه فى تلك السنة مات فيليب الرابع آخر ملوك أسرة « هيوكايت » من غير أن يخلف وارثا لعرش فرنسا . ولما كانت أم الملك ادورد هى ابنة فيليب هذا ، فقد طالب بعرش فرنسا بصفة الوارث الشرعى لحق أمه . ولكنّ ذوى الرأى من الفرنسيس أدركوا مراميه ، وأحسوا مطامعه ، فقرروا فيما بينهم انه لايجوز للمرأة أو وريثها ، طبقاً « للتقاليد القديمة » ان يتبوأ العرش

فانتخبوا احد افراد أسرة فلوا ملكا عليهم باسم فيليب السادس. فأسرّها ادورد فى نفسه، وأخذ يعد عدته لتلك الحرب الضروس، التى ما كانت لتنتهى إلا باحدى النتيجتين: اما استيلاء انجلترا على عرش فرنسا وضمها إليها، او طرد الانجليز نهائياً من فرنسا ومن أملاكهم فيها.

وفى سنة ١٣٤٦ هاجم ادورد الثالث ملك انجلترا شواطئ « نورمندية » وأوغل فيها حتى أوشك أن يبلغ باريس، والتقى بالفرنسيين فى « كريسى Crecy » حيث انتصر على فرسانهم بفضل صفوفه المتراصة من المشاة الرماة، المهرة فى استعمال القوس والنشاب وعلى أثر هذه الموقعة الحاسمة استولى الانجليز على « كاليه ».

وفى سنة ١٣٥٦ التقى « الأمير الأسود »، ادورد بن ادورد الثالث، مع الفرنسيين فى « بواتيه Poitiers » وانتصر عليهم، وأخذ ملكهم « حنا » الى انجلترا أسيرا.

وعلى الرغم من هذه الانتصارات، اضطر ادورد الثالث لأن يعقد مع فرنسا اتفاقا (١) فى سنة ١٣٦٠ تنازل بمقتضاه عن حقه في تاج فرنسا، وعن حقوقه فى نورمندية فى نظير تنازل فرنسا عن بواتييه وغيين وغسقونيا وكاليه، أى مايقرب من ثلث مساحة فرنسا.

---

(١) معاهدة برتنى Bretigny

وتنازل ملكها عن حقه فى طاعة ملك انجلترا له بصفته أميرا على « قطائع » من بلاده .

وتولى « الأمير الأسود » حكم الاقاليم الفرنسية نيابة عن والده ، واشتد في معاملة الأهالى ، فزاد فى سخطهم ، لأنهم كانوا يؤثرون بطبيعة الحال الحكم الفرنسى ولذلك انتهزوا فرصة مرضه ، وازدياد ضعف والده لكبر سنه ، وثاروا على الانجليز . وتمكن ملك فرنسا « شارل الخامس » (١٣٦٤ — ١٣٨٠) من استرداد الاقاليم التى كانت فى يد الانجليز . وعندما مات « ادورد الثالث » لم يبق بعده من الممتلكات الانجليزية فى فرنسا سوى « كاليه » واقليم صغير حول « بوردو » .

وفى سنة ١٤١٥ أراد « هنرى الخامس » تدعيم ملكه ، وتثبيته ، واستمالة الشعب اليه ، فأعلن للملأ حقه في عرش فرنسا من جديد فانتهز فرصة انقسام الفرنسيين كما سيأتى بيانه فى موضعه ، وفى السنة التالية هاجم فرنسا وانتصر عليها فى واقعة « أجنكورت Agincourt » بالقرب من مكان واقعة « كرسى » سالفة الذكر .

وكانت الفوضى حينذاك ضاربة بجرانها على فرنسا ، والاضطراب بالغاً حداً لامثيل له . فقد كان مليكها شارل السادس ضعيفاً مخبولا ، والأشراف والأمراء فى نزاع مستمر ، كل يحاول الاستئثار بالسلطة

و «دوق برجنديه» أكبر الامراء يحاول انشاء دولة مستقلة . و «دوق أورليان» شقيق الملك ينازعه السلطة . أما ولى عهد المملكة فقد كان من الضعف الجثماني والعقلى بمكان . وفى هذه الظروف التعسة اضطرت حكومة فرنسا أن تعقد مع انجلترا معاهدة «تروى Troyes» المشهورة سنة ١٤٢٠ ، ومن شروط تلك المعاهدة : ان يتزوج «هنرى الخامس» ملك انجلترا بالاميرة «كترين» الفرنسية ، وانه إذا مات «شارل السادس» ملك فرنسا من غير وارث يصبح عرشها حقاً لملك انجلترا ولخلفائه من بعده . ثم أخذت الدسائس الانجليزية تلعب دوراً هاما بعد المعاهدة ، حتى انه لما مات «شارل السادس» ، ملك فرنسا المعتوه ، أعلنت الملكة «إيزابلا» زوجه وأم ولى عهده للملأ ان ابنها ليس ابنا شرعيا لها !! . تريد بذلك حرمانه حقه فى ولاية العهد وتمكين الانجليز من تنفيذ الشرط الخاص بضم عرش فرنسا إلى انجلترا كما ورد فى معاهدة «تروى» ، على اعتبار ان الملك شارل السادس توفى ولم يترك وارثا «شرعياً» له .

وبهذا العمل الفاضح ، من جانب الملكة إيزابلا ، آل العرش الفرنسى إلى هنرى السادس الذى خلف والده على عرش انجلترا ، وهو لايزال فى المهد صبيا إذ لم يكن قد تجاوز بضعة أشهر لما توفى والده فى سنة ١٤٢٢ . وعين دوق بدفورد Bedford وصياً عليه وبمساعيه

اعلن هنرى السادس ملكا على شمال فرنسا الى نهر اللوار جنوبا . ومما زاد فى خطب فرنسا انضمام دوق « برجنديه » . وهى اكبر إمارات فرنسا ، إلى جانب الانجليز .

اما ولى العهد ، او « الدوفن Douphin » كما يلقبه الفرنسيون ، فقد كان ضعيفا ، خاملا . فاتر الهمة مترددا ، فانه ارتد على عقبيه ومن انضم اليه من الانصار ، الناقمين على معاهدة «تروى Troyes» ، الساخطين على فعل الملكة فى تبرئها منه ، ارتد يتعثر فى أذيال الخيبة والفشل ، يسود الرعب عسكره ، ويشل عزائمه ، وبخاصة لما هزم الانجليز قواته فى « فرنى Verneuil » فى ١٧ من أغسطس سنة ١٤٢٤ ، حيث ذبح آلاف من الفرنسيين . ومن ثم لجأ الى جنوبى اللوار محتميا وراء حصون « أورليان » التى كانت تعتبر مفتاحا لجنوب فرنسا .

وفى عام ١٤٢٨ ذاعت الانباء ان الانجليز يحاصرون أورليان ، وان سقوطها فى ايديهم أصبح أمرا لاريب فيه . فقد كان الفرنسيون على حال من الفوضى . وخور العزيمة ، وضعف الثقة بالنفس فكانوا يلوذون بالفرار لمجرد رؤية الجيش المغير . ومتى فقد الجيش ثقته بنفسه فقد ضاع منه كل أمل ، وخاب فيه كل رجاء .

ولكن بيناهم يعانون آلام هذا الفشل الذريع ، ويرزحون تحت عبء من العجز مقيم ، أرسل الله لهم من بدّل يأسهم املا ، وقنوطهم

رجاء، وبعث فيهم هميا كانت قد فترت، وأحيا منهم نفوسا كانت خمدت. نعم. أرسل الله نصره «وإن ينصركم الله فلا غالب لكم» فقد قدمت إلى أورليان فتاة اللورين «مخلّصة فرنسا» جان دارك فعزوا بعد ذل، وأمنوا من خوف، وسادوا بعد عبودية ورق.

أما من هى جان دارك؟ وما خبرها؟ وما عملها؟ فيكفى ان أبادر بالقول لك هنا «انها اعظم أمرأة أنجبتها فرنسا. او إن شئت فقل أنجبها الجنس البشرى كله» وفى الصفحات التالية تفصيل ما قامت به من عمل في سبيل وطنها اترك لك تقديره، فان شئت وافقت المؤرخ الذى اقتبست منه الكلمة المتقدمة، وان شئت خالفته فى التقدير بعد علمك بالحقائق كلها (١).

ان الفرنسيين كانوا فى ذلك العهد يتناقلون نبوءة خلاصتها ان فرنسا ستضيعها امرأة وستنقذها فتاة من اللورن. فاما التى اضاعتها فهى ايزابلا التى ادعت عدم شرعية ولاية ابنها للعرش، واما منقذتها فهى جان دارك.

ēl

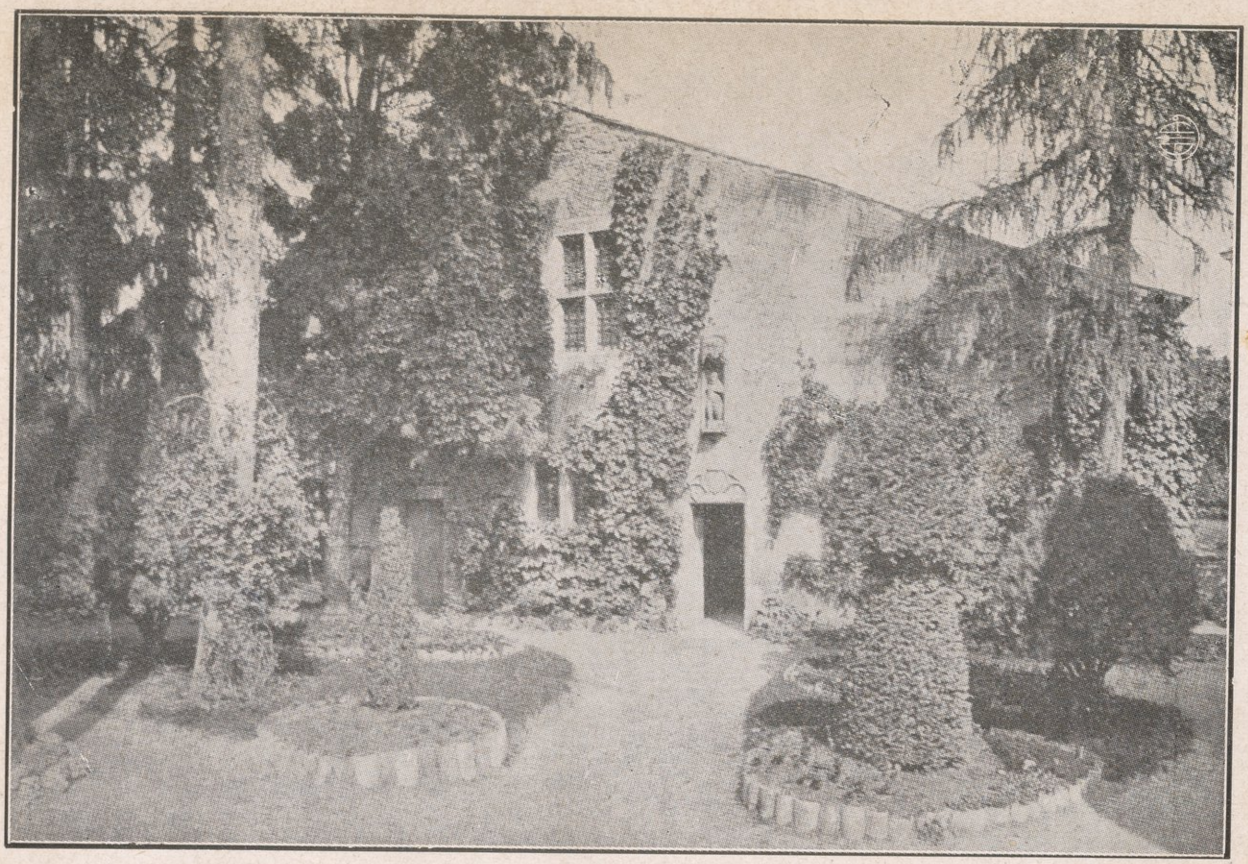

منزل جان دارك فى دومريمى

نشأة جان دارك

يجتهد الكتاب عند محاولتهم بيان نشأة عظيم من العظماء أن يبرزوا لقرائهم فى عبارة خلابة ، غرائب طفولتهم ، ونوادر حداثتهم ، وجلها فى نظرى ، إن لم يكن كلها ، من بنات أفكارهم ، ووليدة خيالهم. يقصدون بها إلى جذب القارئ ، وإرادته على استيعاب الموضوع الاصلى والغرض الأساسى منه ، فى غير ملل ولا سآمه . لم يعزب ذلك عن بالى ، عندما بدأت أجمع مادتى لهذا الكتاب ، وقد صادفنى فى أثناء بحثى فى تفاصيل حياة جان دارك كثير من النوادر التى تزعم تلك المصادر أنها وقعت لها ، أو جرت منها . ولكنى عزمت أن أطرح الخيال جانباً ، وأن أقصر ما أدونه عنها ، فى جميع أدوار حياتها على ذكر حقائق تلك الحياة ، مجردة عن كل زخرف وتزويق ، خلوا من كل تخييل وتنميق ، لعلمى أن حقائق حياتها المجردة كافية وحدها لأستثارة كل عاطفة نبيلة عند القارىء . ولعمرى إن العاطفة التى تتحرك للحق . وتتحمس له ، وله وحده ، هى عندى خير وأبقى من عواطف يستثيرها الخيال ، وتحركها خوادع الأوهام ، فلا تلبث أن تخمد ، وتعود سيرتها الأولى من الجمود .

واليك حقائق جان دارك كما طبعتها على صفحات الدهر الخالدة

فاقرأها ، واعتبر بها ، عسى أن تبر بوطنك كما برت هى من قبل بوطنها

ولدت جان دارك فى قرية دومريمى فى مقاطعة « تشمبين » عند ملتقاها بمقاطعة اللورين من أعمال فرنسا ، لستة أيام خلت من يناير سنة ١٤١٢ للميلاد . أبوها جاك دارك ، وأمها إيزابل ، ولها إخوة ثلاثة هم جاك وبيير وجين .

وكانت أسرة دارك معروفة فى القرية بطيب سمعتها ، وتديُّن أفرادها . وتعرف أمها باسم « الرومية » نسبة إلى روّمية فى نظر بعض المؤرخين ويكون معناه « التى حجّت إلى رومية » مركز البابا ، ومقر كنيسة بطرس الرسول ، وهو فى نظر البعض الآخر لقب لأسرتها ، وحينئذ لا يكون لهذا اللقب أى معنى خاص غير معناه العادى . وكانت « الرومية » صالحة متدينة ، لا تغفل عن الكنيسة ، ولا تلهو قط عن أعمالها المنزلية ، التى ينبغى لكل أم فى مثل هذه البيئة أن تقوم بها . فهى ابداً تجد ماتعمله ، ما بين قيامها المبكر ونومها المتأخر . وكانت تملأ ما قد تسميه وقت فراغها بالغزل والحياكة وما اليهما . فلا نبالغ إذا قلنا إن إيزابل كانت حركة دائبة ، وكذلك كان زوجها له حقل ، وله ماشية ، انصرف إلى رعايتها هو وولداه جاك وبيير . وكان الأب جاك ، فوق هذا ، بارز الرجولة فى حركته وفى سكونه . فى

قوله وفى فعله . يرجع اليه فى أمور القرية . فقد كان عميدها ، وصاحب الرأى فيها ، والمتكلم عنها إذ حزَبها أمر أو التات عليها شئ .

أما ابنتاه جين وجان : فقد تزوجت أولاهما ، وانتقلت الى بيت زوجها . وشبّت الثانية — موضوع كتابنا هذا — فى المنزل مع أمها ، تساعدها ما استطاعت فى عملها . وتذهب معها الى الكنيسة كلما ذهبت ، تقيم صلواتها ، ثم تقفل راجعة الى واجباتها الأخرى وكانت أحيانا ترعى غنم أبيها فى الحقول المجاورة .

وأهم ما امتازت به جان ، وهى فى سنيها الأولى ، على أترابها ، مواظبتها على الذهاب الى الكنيسة ، وفرط ما كانت تبديه من الاحترام لقسيسها ، وقد لفت تدينها هذا اليها أنظار الناس أجمعين ، كبارهم ، وصغارهم ، فكان يسخر منها قوم ، ويعجب بها قوم ، ويقبل عليها آخرون .

وهى ، بين هؤلاء وهؤلاء ، تمضى فى طريقها ، لاتعنى بالسخرية ، ولا يبطرها الاعجاب . فأجمعت القلوبَ على محبتها . وكان رفقاؤها ، الذين يتهامسون عليها ، وهى بعيدة عنهم ، يبادرونها بالاحترام اذا هى قدمت عليهم وشاركتهم فى حديث ، أو زاملتهم فى لعبة من العابهم . وقدكانت تزاملهم فى اللعب أحيانا قليلة ، لانها كانت فى غالب أوقاتها تنصرف الى الصلاة بينما الكل يلهون و يلعبون .

وكان بيت أسرتها قريباً من الكنيسة : يقع خلفها ولا يفصله عنها سوى حديقة المنزل . فشبت جان على نغمات الناقوس يؤذن القوم للصلاة . وكانت القرية فى بقعة من الارض ، خلعت عليها الطبيعة بهاء ورونقا ، يمتد بينها وبين نهر الموز سهل تكسوه الخضرة ثوباً سندسياً ناضراً ، والازهار باسمة مبثوثة فى جوانبه ، ومن خلف القرية منحدر يعلو تدريجاً الى شرف من الارض تغطيه غابة كثيفة من شجر البلوط . وكانت هذه الغابة مستودع الاسرار الخفية لدى أولاد دومريمى . ففيها الجن ، وفيها التنين الهائل ، وفيها غير ذلك من الخفايا التى جسمها الخيال ، والتى لا أثر لها فى الواقع . وانما هو الوهم يعبث بعقول الاطفال ، ويجد مرعى خصيباً فى البيئه التى يخيم عليها الجهل . وليس اطفال دومريمى هم وحدهم الذين يتخيلون الأخيلة العجيبة عن الغابات المجهولة ، والأمكنة المهجورة بل تلك سنة الاطفال فى العالم كله . ودونك اطفال مصر جميعا فاسألهم معتقداتهم فى « خرائب » القرى تسمع منهم عجبا .

وفى الطريق إلى فوكولير ، مقر حاكم تلك المنطقة . وعلى مقربة من دومريمى فضاء مرتفع ، مغطى بالخضرة ، تقوم فى وسطه دوحة ضخمة من شجر الزان ممتدة الفروع وارقة الظلال ، بجوارها عين ماء صافية . وتحت ظلال تلك الدوحة ، وبجوار هذه العين ، كان اطفال

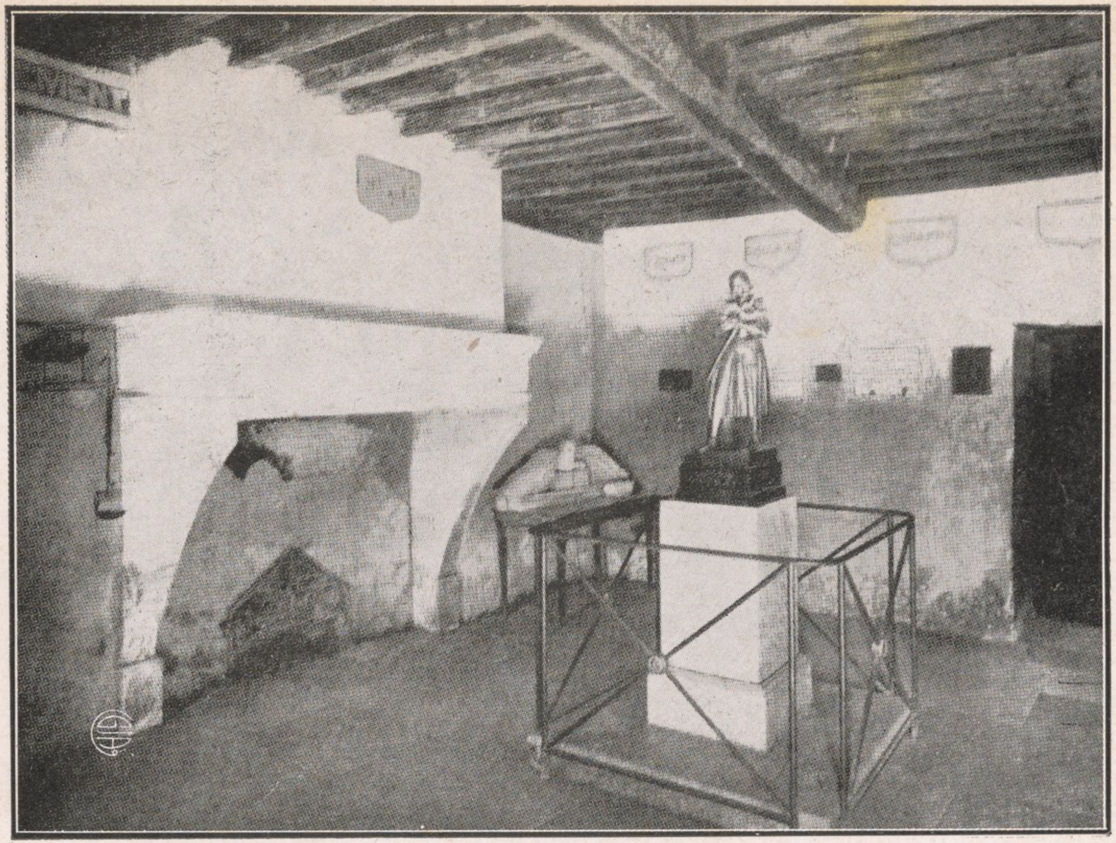

الحجرة التي ولدت فيها جان دارك في دومريمي

دومريمى ، وكلهم من رعاة الماشية ، يقضون وقت فراغهم ، وفترات راحتهم زمن الصيف ، يلعبون و يرقصون ، و ينشدون أغانيهم الساذجة البريئة . و كان من عادة هؤلاء الأطفال أن يجمعوا الأزهار و يعلقوها فى فروع تلك الشجرة اعتقاداً منهم أن الجن يأتون ليلا فيبتهجون بتلك الأزهار و ينعمون بها ، لأن الجن تحب كل ما هو عبقرى جميل . و كان فى اعتقادهم كذلك أن الجن تقابل الاحسان بالاحسان ، وتجزى الجميل بمثله ، فتحفظ لهم عين الماء صافية فياضة ، وتطارد الأفاعى و الحشرات التى تسعى في إيذائهم . ولتعلق أطفال دومريمى بتلك الشجرة وما أنشئوه حولها من الأوهام والخرافات ، عرفوا بين أطفال تلك المنطقة باسم « أطفال الشجرة » وعرفت الشجرة باسم « شجرة الجنيات » .

وكانت جان ، وهى ترعى غنم أبيها ، تذهب إلى الشجرة مع الذاهبين ، أو تقصد الى الغابة اذا دعتها الحاجة الى الرعى ، ولا بد من أنها كانت تعتقد ما يعتقده كل أولاد القرية فى الغابة أو فى الشجرة ، و إن كان قد عرف عنها أنها لم تنس صلواتها حتى وهى فى الغابة إذ كانت تنتبذ منها مكانا قصيا ، وتتلو صلواتها ، و ترتل أناشيدها .

وصاحبت جان صديقتين من جيرانها ، تدعى إحداهما « هومت » والأخرى « منجت » ، جعلتهما موضع ثقتها ومحبتها . وسيكون لهاتين

الصديقتين شأن فى المستقبل الذى ادخره القدر لجان . وستكونان بعد موتها ، وفى آخر عمرهما ، موضع الاجلال والاحترام ، لمجرد أنهما كانتا صديقتين لها .

وكان أطفال دومريمى ، كأترابهم ، يلقب بعضهم بعضا بألقاب تتضمن الاشارة الى صفة بارزة ، أو ميل خاص ، أو عضو شاذ أو غير ذلك مما تبتدعه « عبقرية » الأطفال الخاصة فى أثناء المزاح وترويح النفس . ولم تسلم جان من تلك القاعدة ، بل وجدوا فيها وفي تدينها الظاهر ، وفى حالاتها النفسية ، ومظاهرها الخلقية مجالا واسعا للألقاب . فقد رأوا فيما يعتريها من الخجل والارتباك ، لاسيما فى حضور أجنبى عنها ، أن يلقبوها « جان الخجول » . ومنهم من لاحظوا عليها شدة تأثرها بأخبار الحرب ، ورأوا عنايتها الخاصة بمن يتفق مروره بدومريمى من الجرحى أو الفارين فكانوا يلقبونها « جان الوطنية » . ومنهم من كانوا يؤخذون بحماستها ، أو يدهشون لثباتها ، فلقبوها «جان الشجاعة» . ولتلك الألقاب البريئة ، الصادرة عن عقيدة الأطفال الساذجة ، أهمية خاصة فى بيان ظروف نشأة جان ، والعوامل المحيطة بها ، التى كان لها الأثر الأكبر فى تكوين عقيدتها . ودفعها إلى المضى فيما سارت فيه .

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

وقبل أن نبين تلك الظروف ، يجدر بالقارىء أن يعرف أن أهل دومريمى كانوا جميعاً من الوطنيين أنصار الدوفن الملك الشرعى ، أى من « الأرمنياك » : وتحيط بهم قرى تشمبين وكلها من أنصار دوق برجندى حليف انجلترا ، ومؤيد دعوتها فى عرش فرنسا . وإليك أيها القارىء بياناً موجزاً يفسر لك مركز « الأرمنياك » ومركز « البرجنديين » من النزاع القديم القائم بين ملوك فرنسا من ناحية وملوك انجلترا من الناحية الأخرى ، ويعينك على تعرف الجانب الذى كانت « دومريمى » تؤيده ، وقد سبقت الاشارة إلى شىء من ذلك ، ولكن الأمر مهم يحتاج إلى زيادة الايضاح واليك البيان

لما تغلب الانجليز ، بقيادة « الأمير الأسود » ، على الفرنسيين في « بواتيه » سنة ١٣٥٦ ، وأسروا « حنا » ملك فرنسا ، وكان له ابن صغير اسمه « فيليب » أعجب به أبوه ، لاستبساله فى الحرب ، ودفاعه المجيد ، فمنحه « مقاطعة برجندى » العظيمة ، جائزة له على شجاعته ، وهى فى شرق فرنسا ، يحكمها بلقب « دوق برجندى » هو وأولاده من بعده . ولقبه فوق هذا « فيليب الشجاع » . والقارىء يعلم ، من نظرية النظام الاقطاعى ، أنه يقضى بأن يدين كل أمير بالطاعة للملك ، فى مقابل ما أقطعه . وعلى ذلك حكم « دوق برجندى » مقاطعته الجديدة معترفاً للملك بحق الطاعة . واستمر خلفاؤه من بعده على هذا السنن . ولكن كر السنين ، وضعف الملوك ، أطمع دوق برجندى فى الاستقلال

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

بمقاطعته . ولما جلس على عرش فرنسا « شارل السادس » او « الملك المجنون » كما كان يلقب ، تقدم « دوق برجندى » وأخذ ولاية الحكم نيابة عنه . ولكن أخا « الملك المجنون » وكان يسمى « دوق أورليان » ، نازع دوق برجندى ولاية الحكم بالنيابة نزاعاً عنيفاً ، وانقسم أهل فرنسا من أشراف ، ورجال دين ، وعلماء ، حزبين : حزب يؤيد دوق برجندى فى دعواه ، والآخر يؤيد دوق أورليان . وأدى النزاع إلى أن قتل دوق برجندى دوق أورليان غدراً وغيلة ، فشبت الحرب بين أنصار الفريقين . ولما كان خلف دوق أورليان المقتول قد تزوج من ابنة أحد أشراف جنوب فرنسا العظام ، المسمى « أرمنياك » ، فقد أصبح أنصار أورليان يسمون « الأرمنياك » ، وأنصار دوق برجندى يسمون « البرجنديين » . وأصبح التناحر بينهما والتنافس قائماً على أيهما يستولى على باريس حاضرة الملك ، ويستأثر بالسلطة فيها ، أو يقوم بالأمر نيابة عن ملكها « المجنون » . وهكذا انقسم أبناء البلد الواحد ، وكانت نتيجة الانقسام خراباً شاملا ، وهلاكا للأنفس وضياعاً للأموال . وهذا الانقسام هو الذى حفز « هنرى الخامس » ملك انجلترا إلى العودة الى ادعاء ذلك الحق القديم فى عرش فرنسا والذى قضى عليه قيام أسرة « فلوا » بالحكم فى البلاد . وقد مكن الانقسام الملك هنرى من الانتصار الباهر

على « الأرمنياك » في أجنكورت سنة ١٤١٥ كما مر بك بيانه ، كما أنه أسر دوق أورليان الصغير الذى خلف أباه المقتول . وتملك هنرى المدن ، والقلاع الواقعة فى شمالى فرنسا ، الواحدة تلو الأخرى، ومن بينها مدينة « روان » العظيمة بعد حصار شديد . وبينما كان الملك هنرى الخامس يتابع انتصاراته ، قتل « الأرمنياك » دوق برجندى فخلفه فى الدوقيه ابنه « فيليب » الذى صمم على أن يثأر لأبيه من قتلته فانضم إلى هنرى الخامس على أمل أن يستقل استقلالا تاماً بعد موت ملك فرنسا ، نظير مساعدته للملك هنرى . ولذا كانت له ضلع فى تلك الفضيحة التاريخية الكبرى التى اشترك فى تمثيلها الملك هنرى الخامس والملكة إيزابلا ، زوج ملك فرنسا « المجنون » لكى يتمكنوا من تنفيذ شروط معاهدة « تروى » وهى الفضيحة الخاصة بادعاء الملكة إيزابلا ، السيئة السمعة ، أن ابنها « شارل » ليس شرعياً ، وأنه بهذا لايحق له أن يرث العرش : بهذا العار لطخت تلك المرأة الساقطة وجه ابنها لكى تمكن الانجليز من تنفيذ الشرط الوارد فى معاهدة « تروى » كما مر بك ، ولكنها كانت كاذبة فى دعواها كما أثبت المؤرخون ، وإن كان تفريطها وإفراطها قد جعل فريقاً كبيراً من أهل البلاد ينفضون من حول الابن قائلين « لو لم يكن حقاً ابناً غير شرعى لما اجترأت أمه على إعلان ذلك » . ولم يعلموا ان المطامع والدسائس تعمى وتصم

فما بالك والملكة إيزابلا ، وإن تكن ملكة فرنسا ، إلا انها كانت غريبة عنها ، لأنها من أصل ألماني ، وكانت فوق هذا قليلة الاكتراث بقيود الشرف والعفة .

ومات هنرى الخامس فى سنة ١٤٢٢م. فخلفه ابنه ولما يكن قدجاوز الشهر التاسع من عمره ، باسم « هنرى السادس » ملك انجلترا . وقام عمه الدوق « بدفورد » وصياً عليه . وبعد شهرين من وفاته مات ملك فرنسا «المجنون» فأصبح هنرى ملكا على فرنسا أيضا كما تقضى معاهدة «تروى» وإعلان الملكة إيزابلا عدم شرعية مولد ابنها . أما « شارل » ولى عهد فرنسا ، الذى نبذته أمه ، فلم يبق له فى البلاد نصير سوى «الأرمنياك» الذين اضطروا إلى الالتجاء إلى جنوبى فرنسا بعد أسر زعيمهم ، وتألب كل القوى ضدهم : فالأنجليز قد استولوا على شمال فرنسا كله ، والبرجنديون قد تسلطوا على شرقيها . وولى العهد بقواه المنحلة قد صار طريداً على اللوار ينتظر حكم الأقدار فيه .

ولنعد إلى أطفال دومريمى ، وألقاب جان ، وبيان ظروفها ، لأن مسرح الحوادث التى مر بك ذكرها ، أصبح يتطلب وجودها ، لكى تقوم بالدور الذى أعدته الأقدار لها . قلنا إن الأطفال كانوا يسمونها « جان الشجاعة » و « جان الوطنية » فما الذى دعاهم إلى اختيار تلك الألقاب لها ؟ وفيم كانت شجاعة ؟ ولم كانت وطنية ؟ إليك الايضاح

كانت دومريمى بعيدة عن ساحة القتال المباشر . فقد كانت الحرب فى شمالها أو غربيها . ولكن ليس معنى هذا أنها لم تكن متأثرة بالحرب وأخبارها . فقد كانت أنباء الوقائع يتردد صداها فى كل الأرجاء بمجرد وقوعها . وكانت ككل الأخبار فى كل زمان ومكان تتجسم وتتضخم كلما انتقلت من مكان إلى مكان . فاذا حدث في واقعة مثلا أن كان عدد القتلى لا يتجاوز المائة ، لا يلبث الرواة أن ينقلوه آلافاً مؤلفة . فالى دومريمى كانت ترد الأخبار وقد ضاعفها الوهم ، وجسّمها الخيال . وكان انزعاج القرية لها عظيما ، لأنها كانت تدين بالولاء لولى العهد الشرعى كما أسلفنا .

ومن الأخبار الفاجعة التى وصلت إلى دومريمى أخبار معاهدة « تروى » . وإليك وصف ما كان من الأثر لتلك الأخبار ، على الكبار والصغار من أهل القرية ، باختصار شديد عن رواية « لويس دى كونت Louis De Contes » غلام جان دارك وكاتم سرها ، ومواطنها ، والذى اتخذ « مارك توين » أقواله أساساً لكتابه المشهور عنها . قال : « فى يوم الثلاثاء كنا نرتع ونلعب تحت الشجرة ، ونعلق عليها الأزهار كعادتنا ، وبينما نحن كذلك ، إذ صاحت « منجت » الفتاة الصغيرة قائلة :

— انظروا ! ما هذا ؟ !

فالتف الأطفال حولها ينظرون ، واتجهت عيون الجميع إلى الجهة التى طلبت « منجت » منهم أن ينظروا إليها ، وكانت جهة القرية .

— إنها راية سوداء !

— راية سوداء ! ! كلا . أهى كذلك ! !

— نعم . حقق النظر فلن تجدها إلا راية سوداء .

وبعد قليل من تحديق النظر وإمعانه ، عرفوا أن القادم عليهم ، يحمل راية سوداء ، هو الولد ايتين روز Etienne Roze فانتظروه متلهفين حتى صعد اليهم ، ثم ثبت عصاه فى الأرض ، وطلب من الجميع أن ينصتوا حتى يسترد انفاسه ، فقد جاءهم يعدو لاهثا طول الطريق .

فانصت الجميع ، ووقفوا حوله على أحر من الجمر ينتظرون ماوراءه من الأخبار :

لقد تواترت أخبار السوء ، ولهذا جئتكم أحمل هذه الراية السوداء فقد عقدت معاهدة فى مدينة «تروى Troyes» بين فرنسا ، والانجليز ، والبرجنديين . وفيها ضاعت حقوق فرنسا ، وانتكث عهدها ، وسلمت للعدو . وهذه المعاهدة هى من عمل دوق برجندى وتلك الشيطانة الرجيمة ملكة فرنسا . وتقضى المعاهدة ان يتزوج هنرى ملك انجلترا من الأميرة كترين الفرنسية . . .

فاعترضه صوت من الجماعة :

«ان هذا لافتراء مبين ! أتتزوج أميرة فرنسية من سفاح أجنكورت؟ هذا بعيد لا يمكن تصديقه . ولا بد أنك قد أسأت سمعا فأسأت فهما »

— إذا لم تصدق هذا يا جاك (وكان جاك دارك أخو جان هو المعترض) فاعلم أن ماهو آت أشد عليك وأنكى . فقد قضى الأمر على أن أى مولود من هذا التزاوج ، ذكرا كان أم أنثى ، يرث عرش فرنسا وانجلترا معا هو وذريته من بعده

— « الآن قد تحقق كذب أخبارك لأن قانون الوراثة يمنع البنت من وراثة العرش و بذلك يكون كلامك لغوا لا يمكن تصديقه ... »

وهنا ضج الجميع ، واختلطت أصواتهم ، وارتفعت صيحاتهم استنكاراً وسخطا على ما سمعوه . ولما اشتد الضجيج وطال تقدمت « هوفيت » صديقة جان وصاحت بهم « ليس من الانصاف أن تقطعوا على إيتيين كلامه بهذا الضجيج والصخب ، وعليكم ان تتركوه يتم حديثه » ثم طلبت منه أن يستمر :

— « لم يبق عندى إلا أن أزيدكم علماً بأن شروط المعاهدة تقضى أن يستمر ملكنا شارل فى الحكم حتى يموت . وبعد ذلك يصير هنرى وصيا على عرش فرنسا حتى يكون له ولد يستطيع أن ... »

وقبل أن يتم عبارته قاطعه شاب قائلا : « أيحكمنا هذا السفاح ؟ ! هذا باطل وكله بهتان . وماذا يكون من أمر الدوفن ؟ ماذا تقول المعاهدة

عنه ؟ » فرد عليه ايتين « لا شيء ! إنها تسلبه عرشه ، و تتركه طريداً .
فصاح الجميع « تلك أخبار ملفقة لا يمكن أن نصدقها » وقالوا مستهزئين « إن المعاهدة لاتسرى إلا إذا وقعها ملك فرنسا . وهو لا يمكن أن يوقعها وهى تنزل بابنه كل هذا الاجحاف و الظلم » . فرد عليهم ايتين قائلا « دعوني أسألكم سؤالا : هل توقع الملكة معاهدة تسلب ابنها حقه فى الارث ؟ »

فأجابوا لما كانوا يعرفونه عنها « إنها لا تتورع عن أية كبيرة . إنها امرأة آثمة . ولكن ما شأنها والمعاهدات ؟ إن المعاهدات وتوقيعها من شأن الملك . وهى لا تملك حق التوقيع . وإن فعلت فتوقيعها لا قيمة له . والمهم توقيع الملك »

أسألكم سؤالا آخر : « وما حال الملك ؟ أليس مجنوناً ؟ »

فرد جاك دارك على هذا السؤال بقوله :

— « نعم . هو مجنون . والشعب يحبه من أجل ألمه ، ويعطف عليه فى محنته »

— « انك لا تقول الا حقا يا جاك . ولكن أيسأل مجنون عما يفعل ؟ أليس يفعل ما يطلبه الذين حوله ؟ لقد طلبوا منه أن يوقع فوقع ؟ »

فصاحوا « ومن الذى طلب منه التوقيع ؟ »

« الملكة » ! !

وعند سماع رده علا الضجيج مرة أخرى وأخذت اللعنات تتساقط على رأس الملكة الخائنة . وصار الكل يضجون ويستنزلون اللعنات على الجميع . وأخذ بعضهم يموج فى بعض . واختلط الحابل بالنابل وسمعوا جاك دارك يقول : — « وكثيرا ما تكون الاشاعات باطلة غير أنه لم يصل الينا فى كل ما وصل أشأم ولا أجلب للعار ، أو أبلغ فى التأثير مما سمعناه الآن ، وما انحطت منزلة فرنسا يوما الى مثل درك هذه الاشاعة التى يرويها لنا ايتين روز . لعلها من إشاعات السوء ، ولعلها كاذبة . وما مصدرك من هذه الاشاعة ياإيتين ؟ »

وفى تلك اللحظة اكفهر وجه أخته جان التى كانت طيلة الوقت صامتة شاحبة مأخوذة بما يرويه ايتين من الأخبار . فما هو إلا أن سأل أخوها عن مصدر الاشاعة حتى أحست أن المصدر جدير بالتصديق فعلت وجهها صفرة وخافت مغبة الجواب . ولقد صدق حدس جان لأن المصدر كان قس « ماكس » البلدة المقابلة لدومريمى وما إن ذكر اسمه حتى شخصت أبصار الحاضرين ، وحبسوا أنفاسهم ، لأن القس كان موضع ثقتهم ، ومحل احترامهم . ثم تساءل الأولاد فى لهف « وهل القس نفسه يصدق تلك الأنباء ؟ » « نعم هو يصدقها بل يقول إنه يعرف أنها صحيحة »

وهنا اغرورقت عيون البنات بالدموع ، وجمد الاولاد فى أماكنهم ، وكان الألم البادى على جان يشبه الألم الذى يصيب العجماوات إذا ضربت ضربة قاتلة ، اذ تحمل ألمها المبرح صامتة لاتبدى حراكا . وكذلك فعل في جان ألمها فمسح أخوها بيده على رأسها يلاطفها ، فأخذتها ثم قبلتها شاكرة وهى صامتة . وانقضت فترة طويلة ساد فيها السكون .

وبعد أن خفت صدمة الأخبار بدأ الأولاد والبنات يتناقشون ويتجادلون فيما كان ، وفيما كان ينبغى أن يكون ، وفيما سوف يكون وودوا جميعاً لوكانوا كباراً يحسنون الرمى وتقليب السيوف، فيخوضون غمار الحرب ، وينتقمون لبلادهم من أعدائها شر انتقام . ومضوا يتدرجون فى أحلامهم ، ويسبحون فى أخيلتهم . ولم تكن الفتيات أقل حماسة من الفتيان . إذ ماذا كانت تكلفهم الحماسة ؟ الفاظ جوفاء يلقونها هنا وهناك ، وبسط للاذرع وقبض لها فى الهواء . وانتهز احد الفتيان الخبثاء دعاوى فتاة تغلبت الحماسة عليها وهى تقول « لو كنت رجلا لقمت للحرب الساعة » وأخرى ترفع صوتها وهى تشب كالجواد على أهبة الموقعة « أؤكد لكم أنى ما كنت أعود من ميدان القتال ولو اجتمعت انجلترا كلها أمامى » فقال « إن الكلام هو كل ما تستطيعه البنات . ولو جئت بألف منهن لمواجهة ثلة من الجند لعرفت الفرار كيف يكون » ثم التفت إلى جان وقال هازئا « وتلك أيضاً قد تهددنا

بانها ستصبح جنديا مستعداً للقتال ! ! » وكانت جان معروفة بشدة خجلها وتدينها كما ر بك ، فلم يكد يمثل جان الهادئة الوديعة جندياً حتى قهقه الجمع ، فدفعه السرور من عبارته الى أن يسترسل و يقول « ولقد ترفض أن تكون جندياً بسيطاً ، فتصرعلى أن تكون ضابطا كامل العدة والسلاح ! ومن يدرى ؟ فقد تأبى هذا وتصرعلى أن تكون قائدا عظيما ينقض على الأعداء انقضاض الصاعقة ! » وكلما ارتفع الشقى بجان رتبة من الرتب العسكرية ، ضج المكان بضحك الجميع . كل هذا وهى فى حياء وخجل من ضحك القوم منها . ولكن سرعان ما انتقم الله لها منهم قبل أن يبرحوا مكانهم . وذلك أنهم بينما كانوا يتضاحكون ويتبادلون النكات ، اذ برزلهم من خلف الشجرة وجه مخلوق مخيف هو وجه بنوا Benoist المعتوه ، وكان رجلا أبله قد حبسه أهل دومريمى فى قفص حتى لا يزعج أولادهم في غدوهم ورواحهم ، ولكن الأقدار شاءت أن يتمكن من فك أغلاله ، والسير حتى الشجرة يحمل « بلطة » ، وقد طال شعره ، وأظلم وجهه ، وفاجأ الصبية تحت الشجرة وهم يضحكون من جان ويسخرون ، وكيف تصير جنديا محاربا وهى الخجلة الوديعة .

وما أن رأى هؤلاء « الابطال » ، الذين دوخوا العالم فى خيالهم ، وجه المعتوه يطل عليهم من خلف الشجرة ، حتى انتثر عقد اجتماعهم وتشتتوا . وسرعان ما اسلموا سيقانهم للريح طلب النجاة : فروا جميعاً

ولم يثبت منهم سوى جان : وقفت للمعتوه تتلقاه بجأش رابط ، وجنان ثابت ، كأنه رجل عادى جاء يطلب منها شربة ماء مع أنه كان يحمل البلطة مرفوعة فى يده ، مستعداً للبطش بها ، وهو المجنون الذى لا يدرى ما يفعل . صمدت له جان وحدها بينما كان الباقون قد وصلوا إلى حدود القرية عدواً ، و بعد أن اطمأنوا لحمايتها، تلفتوا وراءهم، فرأوا ويا هول ما رأوا ! رأوا المجنون يدلف الى جان والبلطة مرفوعة فى يده . وما اعترتهم خلجة شك فى أنه هاو بها على رأس الفتاة المسكينة فجمدوا فى أمكنتهم ينظرون ، وقد ملك عليهم الرعب حواسهم ، و تقدمت جان من المعتوه وهو يشير اليها أن تقف مكانها أو يقطعها إربا إربا . ولكنها تقدمت اليه ، رغم إشارته ، ثم أخذت البلطة من يده ، وقبضت بيدها الأخرى على يده الثانية ، وسارت به فى تؤدة وهوادة نحو المدينة . فلما رآهما الأطفال قادمين ارتدوا الى القرية يعلنون ما حدث ، ويستحثون الناس لتخليص جان من الوحش الضارى ، فأقبلوا من كل فج ، وساقوا المجنون الى قفصه . وكان حادث جان والمجنون حديث الناس في كل مجتمع وناد . بعد أن كانت البلدة تغلى كالقدر من جراء أخبار معاهدة « تروى » لأن أخبارها ، التى أذاعها القس ، كانت قد انتشرت سريعاً بين الكبار والصغار ، وتولى القوم وجوم لم يقطعه الا حادث جان والمعتوه ومن هذه

الحادثة لقبت جان «بالشجاعة» . وكانت موضع إعجاب الجميع . ذلك الاعجاب الذى أخجل تواضعها وجعلها تتحاشى الناس فراراً من ثنائهم، ومظاهر رضائهم .

ولم تكن أخبار معاهدة « ترو ى » هى كل ما تسرب من أخبار الحرب الى دومريمى . فقد كانت القرية لاتخلو من الجند الفارين من ميادين القتال أو عصابات النهب التى كانت تنتهز الفرص للسلب والسطو على القرى الآمنة . وقد ألف الناس سطو تلك العصابات على قراهم وهم آمنون وكانوا يتوقعونها على الدوام . فقد كانت الحرب القائمة فى ذلك الزمن كالداء العضال تظهر أعراضه حينا بعد حين ، حتى ضاق الناس به ذرعا .

والواقع أن حديث الحرب وويلاتها ، وهزائمها وانتصاراتها ، كانت دائماً مدار حديث القوم فى طول البلاد وعرضها ، لا فى دومريمى وحدها ، ولا هى فى مكان أقل منها فى مكان آخر ، وكان ذلك طبيعياً . وما كان ينتظر أن يجلس القوم حول موقد النار فى الليالى المقرورة يتحدثون سراً أو جهراً فى غير شؤون الحرب وما تجره من تكاليف وأهوال ، فتلك قرية قد دمرت تدميرا ، وهذه كنيسة قوضت تقويضا ولم يرع العدو لها حرمة . وهناك ماشية اغتصبتها العصابات المتجولة . وهنا فظائع وحشية ارتكبت ضد الشيوخ العاجزين أو الأطفال

الوادعين . وكلما كان المحدث واسع الخيال فهو دائماً قادر على ان يسلب السامعين لبهم ، ويشد'ه فكرهم . فتارة يثير حماستهم بما يجسمه لهم من حصد جيوش العدو ، التى يتخيلها قادمة للفتك بهم فتحصدها شرذمة قليلة من جنود الوطن . وطوراً يملؤهم حزناً وغماً بذكر الهزائم والمظالم التى تثقل رأسهم هماً فيطرفون وجداً وأسفاً .

ولم يكن الموقد خاصاً بالكبار دون الصغار ، بل كان هؤلاء ينشطون إلى أماكنهم فى زاوية من المجلس ينصتون إلى أحاديث الكبار في شغف ولهفة ، فاذا استوجب الموقف حماسة كانوا أول المتحمسين . وكثيراً ما كانت تسبقهم أيديهم أو أرجلهم إلى الحركة فتصيب جاراً مسنا من حيث يدرى ولا يدرى . وإذا كان الموقف محزناً غلبت عليهم مظاهر الحزن أو أجهشوا بالبكاء .

وكانت جان كغيرها من الفتيات تسمع قصص الحرب حول الموقد . وقد فاجأت القوم مرة بالنحيب المر عند سماع أخبار ما كان يحيق بفرنسا من المصائب . ولما سألتها إحدى النسوة عن سبب بكائها أجابتها على الفور « أبكى لأننى أحب الملك » . وفى مرة أخرى وهى تستمع إلى فظائع البرجنديين أخذت تصرف أسنانها وتزمزم بين شفتيها اسم « ماكس » القرية البرجندية الواقعة على ضفة الموز المقابلة لدومريمى .

وكان أطفال دومريمى ، وعلى رأسهم جان ، فى عراك مستمر مع أطفال ماكس . وكان يوم العراك يوماً مشهوداً بين الأطفال ، يستعدون له بمعدات القتال ، التى لم تكن فى الغالب تتجاوز العصى والحصى ، وقطع الأحجار والأخشاب . التى يجمعونهامن هنا وهناك ثم يسيرون فى صفوف منظمة يتقدمها الفتيان ويتلوهم الفتيات . وكانت الحملة غالبا لا تزيد على العشرين طفلا من الجنسين ، يهاجمون أطفال القرية البرجندية ، و ينهالون عليهم بالعصى والحصى وغيرها مما استطاعوا جمعه من الميرة والذخيرة فيقابلهم الآخرون بالمثل . ثم تسكن زوبعة القتال ، بعد أن تترك آثارها من شج رأس ، أو شق شفة ، أو تورّم عين ، أو رعاف أو نزف جرح ونحو ذلك . وبعد المعركة يضموون جراحهم ، ويغسلونها فى ماء « الموز » ، ثم ينقلبون إلى أهلهم يقصون عليهم ما أظهروه من ضروب الشجاعة والبسالة ضد أعدائهم .

وهكذا كانت تجرى الحياة بين دومريمى ، ذات الميول الفرنسية ، الموالية لولى العهد ، وماكس ، ذات الميول البرجندية . ولم يكن الكبار فى القريتين أقل تبادلا لمقتضيات الخصومة والسخط ، إلا أن الأمور لم تتحرج بينهم إلى حد العراك الفعلى كما كان يفعل أبناؤهم ، بل لم تكن تعدو تبادل السباب والقذف .

وكانت تلك المعارك تشغل جان وتهتم لها فهى فى خلال المعركة تتقدم الصفوف ، وبعد انتهائها تضمد الجروح . وكثيرا ما جرحت هى فى أثنائها . ومن اهتمامها هذا لقبت « جان الوطنية » .

وفى أحد الأيام عاد الأطفال من إحدى معاركهم مع أطفال ماكس فوجدوا ساحة القرية تموج بالناس ، وعلى باب الكنيسة وقف قسيس برجندى يلقى على الجمع الحاشد أخباراً جعلتهم يبكون و يضجون ، و يرفعون أصواتهم باللعنة تلو اللعنه . وذلك أنه أخبرهم أن ملك فرنسا شارل السادس قد مات . وبموته أصبحوا هم وفرنسا وتاجها ملكا للانجليز إذ صار هنرى السادس . الطفل ملكا عليهم كما قضت بذلك نصوص معاهدة تروى . ويطلب من الجمع أن يعلن ولاءه وخضوعه لذلك الملك الجديد ، لأنه عما قليل سيقضى على البقية الباقية من فرنسا التى لم تزل موالية لذلك الذى يسمونه « ولى العهد » مع أن المعاهدة من ناحية ، وفضيحة أمه من ناحية أخرى قد جردتاه من كل الحقوق .

وكان الناس كلما ألقى عليهم القسيس نبأ ، أو طلب منهم مطلباً ، هاجوا وصاحوا فى وجهه وهو يقابل هياجهم بسكون وعدم اكتراث بين وبخاصة عندما ختم أنباءه طالباً إلى الجميع أن يصلوا معه لكى يطيل الله حياة الملك هنرى ، ملك انجلترا وفرنسا ، وولى النعم المعظم . قال ذلك

ببرود جليّ . وقد عقد الغضب ألسنة الناس فلم ينطقوا ببنت شفة من هول ما سمعوا ومن بشاعة ما يحثهم القسيس على ترديده . وكأنه ظن أن انتقال الناس من مبدأ إلى مبدأ ، وتحولهم عن الولاء لعرش فرنسا ومليكها ، إلى الولاء لعرش انجلترا ومليكها ، أمر هين سائغ .

وكان أول صوت اخترق سكون القوم هو صوت الفتاة جان دارك وقد وقفت على كثب من القسيس ، فلم تكد تسمعه يطلب من الناس الولاء لملك انجلترا حتى واجهته فى صوت رزين جاد « كنت أتمنى أن أرى رأسك يطاح من فوق جسدك ! إن شاء الله ذلك » . وقد فاهت بالجزء الأخير بعد فترة من نطقها بالجزء الأول .

وموقف جان هذا من مواقفها المشهورة ، وإن كانت قد وقفته وهى طفلة فى العاشرة من عمرها . وذلك لأن قولتها للقسيس هى القولة الوحيدة التى أغلظت فيها جان القول طول حياتها .

ومن يوم أن جاء القسيس البرجندى يعلن أهل دومريمى بالتغيير الملكى والرعب يملأ قلوبهم . وقد أخذت العصابات الجوَّالة تنتشر فى أنحاء البلاد . وفى ربيع سنة ١٤٢٨ هاجم البرجنديون دومريمى فى موهن من ليلة حالكة الجلباب فذعر سكان القرية ، وفروا للاعتصام بقلعة نيفشاتو Neufchâteau فى غير نظام ، فأبطأوا الخطى ، فتقدمت جان ، وكانت قد سلخت ستة عشر ربيعاً من عمرها ، وطلبت فى هدوء

من القوم أن ينتظموا فى فرارهم . وبعد جهد جهيد تمكنت من تنظيم السير . وكان عملها فى تلك الساعة مشهودا .

ولما ارتدّت عصابة البرجنديين عن دومريمى ، بعد أن أعملت فيها التدمير والتخريب ، عاد إليها أهلها ، فوجدوها قاعاً صفصفا تنعى من بناها . أموال ضائعة ، ومتاع مسلوب ، وماشية نافقة ، وحين ذاك أدرك أهل دومريمى حقيقة ما كانوا يسمعونه عن عمل تلك العصابات الطوّافة ، وعلموا شيئاً عن حقيقة ما تخلفه الحرب من خراب وشقاء ، وما فيها من غلظة وقسوة .

ولم يكن الأطفال أقل انزعاجاً عند عودتهم إلى القرية من آبائهم ، إذ وجدوا كل عزيز لديهم من متاع أو ماشية وقد عفت آثاره . وكان أفظع ما فوجئوا به أنهم وجدوا المجنون ، الذى تركوه فى قفصه ، مضرجاً بدمه ، مطعوناً عدة طعنات ، وملقى به فى ركن من أركان ساحة المدينة .

وفى الحق أن غارة تلك العصابات نبهت أهل دومريمى إلى حقيقة الخطر الذى يحيق بهم ، وجعلت ما كان يصوره الخيال لهم ، وهم جلوس حول الموقد فى المساء ، حقيقة واقعة . فأظلمت الدنيا فى أعينهم ، وأوصد باب الرجاء فى وجوههم . ألم يكونوا من أنصار ولى العهد ؟ وأين هو الآن ؟ وأى رجاء له فى النصر ؟ لقد استولى الانجليز على كل

فرنسا شمالى اللوار ، واستولى البرجنديون على الشرق ، ولم يبق إلا فرنسا جنوبى اللوار. وحتى هذا القسم منها لا يمكن أن يقال عنه إنه كان يخضع لولى العهد الشرعى خضوعاً تاماً لأن انتصارات الانجليز المتتابعة قضت على هيبته ، وشتتت شمل جيشه . وزاد فى ضعفه موت والده وتولية هنرى السادس ملكا على انجلترا وفرنسا ، كل هذا قد أفقده كل أمل فى عرشه ، فضلا عن أنه كان بطبيعته خامل الذكر، ضعيفاً ، هياباً ، رعديداً ، متردداً فى تصديق نسبه بعد كل الذى جرى من أمه . ثم كان فوق ذلك من ذوى المتربة فمن أين يأتيه النصر ؟ تلك هى الأفكار التى كانت تجيش بها صدور أهل دومريمى ، وتملأها هماً وغماً . وخصوصاً حين بدأت حكومة العهد الجديد تفرض عليهم إتاوات تجبى منهم فى مواقيت معينة ، وكانوا قد عرفوا كيف تجبى تلك الضرائب فى مدن فرنسا الأخرى ، وما يصحب جبايتها من إرهاق وقسوة وظلم فوق ظلم . غيوم متلبدة لا يعرف متى تنقشع ؟ هذا ما كان يقرأه المتوسم على جباه أهل دومريمى قرية جان دارك فى تلك الحقبة من الزمن .

رسالة جان دارك

وكانت أرزاء دومريمى خاصة ، ورزايا فرنسا عامة ، شغل جان الشاغل . تذكرها فى صلواتها وخلواتها . وترددها مع أترابها . وتطرقها فى أحلامها . وقد بدأت تعلو وجهها سحابة من الحزن الناشئ من التفكير العميق ، وإن كانت قد ظلت على عهدها الأول من العطف على المساكين ، وأبناء السبيل ، والميل إلى الخير ومساعدة الناس .

ولكن تفكير جان كان يشتد يوماً فيوماً ، واسترعى التفات الجميع صمتها العميق ، ورغبتها فى العزلة ، فقد كانت دائماً مشغوفة بالايواء إلى الغابة ، أو الاعتزال تحت الشجرة .

ماذا كانت تفعل يا ترى ؟! أخذ كل امرئ يعزو حال جان الطارئة إلى ما عرف عنها من التدين والتقوى . والكل يعجب من أمرها . وما دار بخلد أحد أن يلتمس غير التدين سبباً لهذه الحال .

ولكن اسمع أيها القارئ واعلم ما كان يدعو جان دارك للخلوة ، ويحبب إليها العزلة . فان صدقت ما سأرويه لك ، بطل عجبك . وإن لم تصدق فاقدح أنت فكرك ، وكد قريحتك في تعليل ما حدث . وعلل له بما تشاء من مختلف العلل وكل ما أدين به لك ، هو صدق الرواية ، وأمانة النقل . أما التعليل ، وبيان رأى العلم فيما جرى للفتاة ، فليس من شأنى . أو على الأصح ليس من شأن هذا الكتاب .

جان دارك تستمع إلى « الأصوات »

الش
في
التف
على
ص
إلى
الص
أم
و
تص
له
وأ
من

وإليك ما حدث للفتـاة وقت أن بدت عليهـا علائم التفكير والاطراق الطويل

فى يوم من أيام الصيف ، فى شهر يونية حين كانت جان فى منتصف سنتها الثالثة عشرة ، وبينما كانت ترعى غنم أبيها ، جلست على شرف من الأرض ، تحت ظل شجرة من أشجار الغابة ، تفكر فى حال وطنها وما انتابه من ويلات ، وماينتظره من سقوط . وفى حال ذلك المسكين الذى قست عليه الطبيعة فجاء عليلا سقيما ، وقست عليه أمه فحرمته أبوّة أبيه ، كما حرمته أمومة أمه ، طوعا للدسائس الأجنبية ، وتملقا للقوة كانت تفكر فى «شارل ولى العهد» أو كما يقتضيه الحق والعدل «شارل السابع ملك فرنسا . فى هذا وفى غيره من المصائب والمحن كانت تفكر جان وهى على الربوة ، صامتة وما هى بصامتة ، وناظرة وما هى بناظرة بل سابحة فى ملكوت الفكر غارقة فى بحر الخيال . وبينما هى مطرقة ذات يوم فى تفكيرها ، وإذا بأوراق الشجر تهتز كاهتزازها عند مر النسيم وإذا بالطيور تجتمع وتغرد كأنها فى فرح عظيم . فانتبهت جان من إطراقها ، ورفعت رأسها نحو الشجرة وأغصانها التى اهتزت فجأة ، فشعرت برعدة تتمشى في جسمها طولا وعرضا ، وسرت فيها رجفة لم تدر لها في بادىء الأمر سببا . ورأت الأنوار تحيط بها من كل جانب: أنوار ليست كأنوار النهار ، ولا هى أنوار الليل ، ولكن أنوار أحست

أنها هابطة عليها من السماء . ثم تبينت ، وهى مضطربة ، هاتفا وسط الأنوار ينادبها ، ويردد اسمها ، ويقول لها فى وضوح « جان . . جان لاتخافى . كونى ابنة طيبة . فسوف تذهبين لنجدة ملك فرنسا » فتقدمت جان ، فى ذهول تام ، نحو الصوت ، فرأت أن التى تخاطبها هى « القديسة كاترين » ترافقها قديسة أخرى ، وقد وقفتا فى وسط هالة من النور بين غصون الشجرة . ثم شجعها ابتسامها فتفرست فيها جان وتحققت تمام التحقق من أن التى تخاطبها هى القديسة « كاترين » وأن التى بجوارها هى القديسة « مرجريت » وكان اعتقاد اهل اللورين فيهما أنهما من كبار أولياء الله الصالحين . وبعد أن قالتا لجان ما قالتا اختفيتا عن الأنظار . وعند اختفائهما انتفضت جان من مكانها « كما انتفض العصفور بلله القطر » وقامت تتلفت عن يمينها وعن شمالها ، وفوقها وتحت قدميها ، أحلم هو أم يقظة ؟ ! وتولاها ذهول وإن شئت فقل غبطة وسرور ، أم ترى هو شعور خوف وجزع فقد قامت تردد ماسمعته ترديداً آليا « جان لاتخافى كونى ابنة طيبة فسوف تذهبين لنجدة ملك فرنسا » . ثم أخذت تعود الى طبيعتها شيئاً فشيئاً ، ولما هدأت قليلا ، قامت الى غنمها تجمعها من المرعى ، وعادت الى المنزل ولم يبق بها من أثر ما رأت إلا خفقان بسيط مالبث أن زال عنها . وكتمت جان خبر ما رأت عن الجميع واحتفظت به سراً لم تبح به لأحد

• هناك رواية أخرى تجدها في بعض المصادر عن أول الأصوات

وكيف تركتها . نوردها هنا . ولك أن تصدق هذه أو تلك ، فالروايتان عن مصدرين جديرين بالاحترام ، فكلاهما ناقل عن شهادة الشهود من الأهل والجيران ، وغيرهم من السكان الذين دعوا عند محاكمتها لتأدية الشهادة ، ومن أقوال جان نفسها التى أدلت بها أمام قضاتها .

قال أصحاب الرواية الثانية إن جان كانت تجمع الأزهار مع لداتها فى الحقول وتلعب معهم ، فسمعت من قال لها ، إن أمك فى حاجة اليك » وكانت جان تطيع والديها طاعة عمياء ، فعادت مسرعة إلى أمها . ولكن أمها قابلتها مشدوهة وقالت إنها لم ترسل فى طلبها . فخرجت جان إلى حديقة المنزل ، ووقفت تنظر غربا نحو الهضاب المجاورة . وكان ذلك وقت الظهر . وبينما هى واقفة اذ أضاء نور يخطف البصر ، فتملكها الذعر والوجل . وناداها من وسط النور صوت ملائكى أن تكون ابنة صالحة . ثم طلب منها أن تقوم لملك فرنسا ، الذى حرمه أعداؤه تاجه ، وأن تخلصه وتتوجه فى ريمس . وكان الصوت صوت الملاك ميخائيل .

وبعد ذلك تتفق الروايتان على أن الأصوات ظلت تناديها مرة فى كل يومين أو ثلاثة أيام ، وفى مكان منعزل عن الناس . وكان الذى يتجلى لها دائما هما القديستان « كاترين » و « مرجريت » تسمعهما وتراهما رأى العين ، وتخاطبهما كما تخاطب الناس . وتعلقت جان

بقديستيها ، وصارت تنتظر ظهورهما على أحر من الجمر ، فاذا همتا بالرحيل أذرفت الدمع السخين ، لأنها كانت تود أن ترافقهما الى السماء وبقيت جان على هذه الحال ، من رؤية القديسين . وسماع أصواتهم ثلاثة أعوام ، وهى تكتم الخبر عن جميع الناس لأنها لم تؤذن باذاعة السر .

وكانت جان تشـــير الى رؤياها بقولها « أصواتى » وكانت « أصواتها » تخاطبها دائما فى شؤون فرنسا وما نزل بها من المحن . وكثيرا ما كانت تنبئها بها قبل وقوعها . وهذا ما جعلها تكتئب أحيانا وتظهر علائم الألم من قبل أن يحزب الخطب ، أو يجد ما يدعوها إظهار الحزن ولم تفاجىء « الأصوات » جان بوقوع الاختيار عليها لتخليص فرنسا من بلاياها إلا بعد مضى وقت طويل . وعلى الرغم من هذا لم تكد جان تسمع من القديسين ما ألقى عليها من عبء حتى أبدت دهشتها كيف يتاح لها ، وهى القروية الجاهلة بفنون الحرب وأساليبها ، أن تقود الجيوش ، وأن تدك القلاع ، وتفك الحصار ، وهى التى لم تركب جواداً قط . وكيف يمكنها وهى الفتاة ، أن تختلط بالجند ، وأن تعيش عيشتهم القاسية فى مضاربهم ومعسكراتهم ، وما تدرى كيف الوصول إلى مقر « ولى العهد » . كل هذه أمور بدت لجان كأنها مستحيلة لا قبل لها بها ، ولكن « أصواتها » ذللت أمامها كل صعب . ويسرت

لها كل عسير . وألقت فى روعها أنها هى المختارة من الله لانقاذ فرنسا ، وطرد الانجليز منها ، وإجلاس ولى العهد على عرشه الذى اغتصبوه منه .... وسيتم لها كل هذا . وستستطيع فى عشرة أسابيع أن تهدم ما أقامته انجلترا بالدم والحديد ، والخبث والدهاء ، في عشرات السنين !

وكانت « الأصوات » قد أمرت جان أن تذهب إلى روبرت دى بودريكور ، حاكم فوكولير ، لكى يجهزها بما يلزم لها من المعدات ، ثم يرسلها إلى ولى العهد لاتمام مهمتها . وهنا أيضاً أدركت جان الحيرة إذ كيف السبيل إلى الحاكم ؟! وكيف الخروج من القرية ؟ وماذا هى قائلة لأمها وأبيها وإخوتها ؟ أتعلن خبر « أصواتها » وفحوى رسالتها ؟ وإنها إن فعلت كان الجنون أقل ما ترمى به بين أهل قريتها ؟ أم تفر هاربة تحت جنح الليل الساتر ؟ إذن لتناولتها ألسنة السوء . وهى الفتاة الطاهرة التى لم يعرفوا عنها سوءاً من قبل . ماذا تفعل إذن لأنقاذ ما كانت تعتقد أنه أمر ربها اليها ؟!!

لنتركها فى حيرتها الى أن تهتدى الى مخرج من مأزقها . ولنتحدث مع القارىء قليلا في شأن « أصواتها » .

ليس الكاتب بأقل منك دهشا ، أيها القارىء ، واستغرابا لأمر هذه « الأصوات » الملائكية التى كانت تبلغ جان الرسالة . فاذا كنا متفقين فى الاستغراب ، فهلا نستطيع أن نتفق أيضاً على إنصاف جان

فى تصديقها « الأصوات » وإيمانها الراسخ بأنها كانت ترى بعينيها القديسين ، وأنها كانت تسمعهم ينادونها فى صوت عذب رقيق . إذا تشبثت بأن تحكم عليها بالعقل الحاضر ، عقل البخار ، والكهرباء ، والراديوم ، والنسبية ، وما إلى ذلك من مستكشفات العلم الحديث ، فانى أخشى أن يصعب عليك إنصافها . أما اذا رجعت بعقلك الى الوراء خمسمائة عام ، وتقمصت روحا غير روحك الحالى وعقلا غير عقلك الحاضر ، وحكمت بما توحيه إليك البيئة ، والعرف ، والعقيدة ، فلست أشك فى إنصافك عقل جان . ولست بمغيد عليك ما كتبته فى المقدمة من تاريخ القرون الوسطى إذ أنه أصبح كافياً أن يقال إن هذا عمل من أعمال تلك الأيام الخالية حتى يحتاط العقل والفكر فى وصفه بما يستحق . أو إن كان يعرف كنه تلك القرون . وصفه وصفاً ينطبق على ما كان لها من ميزات . ثم لا تظن أيها القارىء أن جان دارك هى الفذة فى تاريخ البشر التى قالت بسماع أصوات تناديها ، أو أنها جاءت ببدعة لم يسبقها أو يلحقها بمثلها أحد ، فانّ كتب المباحث الروحانية تفيض بأنباء أمثال تلك الأصوات . وهنا أود أن أترك القول للعلاّمة المحقق المشهور الأستاذ « محمد فريد وجدى » فقد اطلعت على مقال له فى إحدى الصحف (١) اليومية ، تكلم فيه عما للمباحث

---

(١) البلاغ فى مساء الثلاثاء ١٠ من جمادى الأولى سنة ١٣٥٠ — ٢٢ من سبتمبر سنة ١٩٣٢

الروحانية الراهنة من تعليلات لمثل حال جان دارك وأصواتها .
وما عساه يكون لها من تعليل . قال حضرته « وللمباحث الروحانية الراهنة مجال هنا (ظهور روح فى صورة شخص) للقول فسيح ، فقد نجمت مسألة العقل الباطن وصارت أساساً لتعليلات حوادث شاذة كانت تعتبر من أوهام الموسوسين أو من أحابيل المدلسين » .

« أما هذا العقل الباطن فهو ما ظهر من التجارب ، فى التنويم المغناطيسى ، من أن لكل إنسان شخصية باطنة ، أرقى بما لا يقدر من شخصيته العادية . هى التى توحى إلينا الآراء الصالحة ، والآداب العالية ، وتحاول وهى فى عالمها إصلاحنا ، وتربيتنا ، وكف سلطان الأجساد عن أسرنا لمطالبها الخسيسة » .

« ونجمت مسألة أخرى ، وهى إمكان ظهور كائنات روحانية لبعض المستعدين لرؤيتها ، تخاطبهم أو تظل ملازمة لصمت عميق .
وقرروا أن من تلك الأرواح الصامتة ، ما كان يراه نابليون الأول من الشبح الذى كان يلازمه . ومن المتكلمة ، الروح التى كانت تظهر لشيخ الفلسفة اليونانية « سقراط » الحكيم ، وقد صرّح هو بذلك ، وأثبتها له تلميذه « افلاطون » ونقل ذلك عنه جميع كتاب تاريخه من الغربيين » .

« وفى العالم اليوم رجال ونساء كثيرون يؤكدون رؤيتهم

لأمثال هذه الكائنات ، ويقيمون الأدلة المحسّة على صدق ما يشاهدون بنقلها للكراسى ، ورفعها للمناضد الثقيلة أمام الباحثين » .

« وقد أثبتت اللجنة العلمية الانجليزية ، التى ندبتها الجمعية الملكية لفحص هذه الخوارق الروحانية ، فى تقريرها الذى رفعته ، وطبعته ، وترجم الى أكثر اللغات ان روحا غير منظورة الا من الوسيط رفعت ثمانية منهم ، وقفوا على منضدة كبيرة ، الى سقف الحجرة التى كانوا يجربون فيها ، فأثبتوا ارتفاعهم بدليل محسوس ، وهو كتابتهم اسماءهم فى النقطة التى ارتفعوا اليها مجتمعين »

ألا تستحق جان دارك إذن أن نصدقها ، وهذه هى حال البحث العلمى فى « أصواتها » التى كانت تناديها ؟ خصوصا وأن الرسالة قد جاءتها فى أمر كان همّ الكبار والصغار ، آناء الليل وأطراف النهار ، ألا وهو أمر فرنسا « وطنها الجميل » كما كانت تسميه . وما نزل به من كوارث ، وما لحق به من عار باحتلال الأجنبى لأقاليمه ، واغتصابه عرشه ؟ إنى أصدق جان . الفتاة الساذجة ، الطاهرة ، التى نشأت فى بيئة صالحه . بقدر ما كان تلاميذ سقراط الحكيم يصدقونه فى سماع « هاتفه » أصدق أنها كانت تسمع ، عندما كانت تخلو الى نفسها فى الغابة أو تحت الشجرة ، أو فى حديقة بيتها المطل على الكنيسة ، « أصواتا » تدعوها إلى إنقاذ الوطن والدليل على صدقها أنها أنقذت وطنها بالفعل من ورطة لم يقع فى مثلها وطن من الأوطان حتى اليوم .

وإليك حوادث الدهر معها ، أو حوادثها مع الدهر . أرويها لك كما وقعت لها ، أو وقعت منها . ولا إخالك إلا مصدقها كما صدقها من كانوا ألد أعدائها من قبل .

تركنا جان فى حيرة من أمر خروجها لمقابلة حاكم فوكولير . وقدهداها التفكير فى اللحظة الأخيرة « أو فى الساعة الحادية عشرة » كما يقول الافرنج ، إلى وسيلة رأت فيها بصيصاً من الأمل للخروج من مأزقها . وذلك أنها تذكرت أن لوالدتها قريباً ، جرت عادة أبناء دارك أن يلقبوه « بالخال » يسكن هو وزوجه فى قرية تسمى « بيورى لِ بتى Burey - Le Petit » على مسيرة ثلاثة أميال من فوكولير مقر الحاكم . وكان قريبها هذا يسمى « دوران لاكسار Durand Laxart » . فاتصلت به جان بطريقة من الطرق ، ويظهر أنها اتفقت معه على أن يستأذن والديها فى أخذها معه إلى بلدته . بحجة مرض زوجته وحاجتها إلى العناية بها فى أثناء مرضها . فلم يسع والد جان إلا الموافقة على رجاء قريبها ... وما علما أنهما بهذه الموافقة وضعا الحجر الأساسى فى بناء أمة من أكبر الأمم ، وإقامة مجد خالد على الزمن ... ولما علمت جان برضاء أبويها عن رحيلها مع خالها كادت تطير فرحاً بتحقيق أول خطوة فى سبيل تنفيذ ما أمر القديسون به . وكانت جان ، في هذا الوقت ، فى السابعة عشرة من عمرها . معتدلة القامة ،

لها عينان براقتان تنفذ بهما إلى أعماق محدثها . قد أكسبها اتصالها بالقديسين وقاراً وقدساً ، ورزانة وصمتاً ، جعلت بينها وبين من حولها صلة احترام وإعجاب فى كل مكان تحل فيه .

خرجت جان مع خالها متهللة ، مستبشرة بما أتيح لها من التمهيد لتحقيق رسالتها .

وفى الطريق ، أطلعت خالها على مكنون سرها ، وأحاطته بجلية خبرها ، وخبر أصواتها ، وما رسمته لها من خطة فى الذهاب إلى روبرت دى بودريكور حاكم فوكولير لكى يعد لها معدات السفر إلى مقر « ولى العهد » فى ميدان القتال .

ويظهر أن جان لم تجد كبير عناء فى إقناع « خالها » بصحة رسالتها . لأنه خرج بها في اليوم التالى لوصولها ، وسار لى فوكولير لكى يصحبها فى دخولها إلى الحاكم .

وها هى جان ، القروية الساذجة ، فى أثوابها التى أخلقتها يد البلى ، والتى نصل لونها ، وحذائها الخشبي الذى برزت منه أصابعها ، تقف بباب حاكم عسكرى ممن ألفوا الحرب وعركوا صروفها ، لهجة عسكرية ، وطبع جاف ، فكل حقيقة مهما وضحت لديهم ، وكل عاطفة مهما سمت فى أعينهم ، لا تغنى عن السيف شيئا . فالحسام عندهم « فى حده الحد بين الجد واللعب » . هم جفاة غلاظ أولئكم الأجناد .

وقفت جان ، ومعها خالها ، بباب الحاكم تستأذن عليه فى الدخول وكان ذلك ظهرا ، وهو يتناول مع ضيوفه طعام الغذاء . وبينما هو منهمك في حديثه مع الضيوف ، وما من حديث في فرنسا على مائدة الطعام أو حول موقد النار كان يخلو من ذكريات الحرب وما حل بفرنسا من ويلات وما هو مقدور لها من سقوط ، إذ بالحاجب يهمس فى أذنه كلاما لم يسمع الحاضرون منه شيئا إلا قول الحاكم فجأة :

— تريد أن تتحدث إلىّ ؟ !

— نعم ياسيدى .

— أمر مدهش ! دعهما يدخلان .

ودخلت جان فى بساطتها القروية ، وتقدمت فى خطى ثابتة ، ومثلت بين يدى دى بودريكور . أما خالها ، وهو قروى ساذج كذلك ، فقد أخذ بما حوله من أبهة ورواء ، فخذلته شجاعته ، فوقف فى منتصف الغرفة وفي قبضة يده قبعته الحمراء ، وقد سحقها بين أصابعه من شدة ضغطه عليها ، وهو لا يدرى ما يفعل ، ينحنى هنا و ينحنى هناك فى عجلة وارتباك .

وما إن ألقى الحاكم نظرة على جان حتى سألها فى لهجة عسكرية جافة :

— ماذا تريدين أيتها الفتاة ؟

— أريد من روبرت دى بودريكور حاكم فوكولير أن يرسل

« للدوفين » بأن يتريث ولا يهاجم العدو حتى يأتيه العون من عند الله .

فبدت على الحاضرين علائم الدهش، وتهامسوا فيما بينهم ... مسكينة ! انها بلا شك مصابة بدخل فى عقلها . . . وقطع دى بودريكور دهشتهم بقوله لها : —

— ما هذا الكلام الفارغ ؟ ! الملك - أو من تسمينه الدوفين - سيتريث رغم أنفه ، بغير حاجة إلى مثل هذه الرسالة . (ويقصد بودريكور أن الملك قد أصبح فى حالة من اليأس المميت، والعجز المطلق ، وتمام الافلاس . فليست لديه قوة يقدم بها على الحرب . ولهذا فهو فى غير حاجة إلى من يدعوه للتريث) .

— هل لديك كلام آخر ؟

— إن عليك أن تعطينى حرساً مسلحاً وأن ترسلنى معه إلى الدوفين .

— ولماذا أفعل هذا ؟

— لكى يولينى قيادة الحرب العامة ، لأني قد كلفت طرد الانجليز من فرنسا ، وتتويج الملك .

— ماذا تقولين ؟ ! أنت ! ! أنت يا طفلة تفعلين هذا ؟ ! !

— نعم . كلفت أن أفعل كل هذا .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

— أحق هذا ؟ ! ومتى يتيسر لك انجاز المهمة ؟

— سأتوج الملك في السنة القادمة . وبعدها يصبح سيد فرنسا .

وهنا انفجر الحاضرون ضحكا وسخراً . . . ولما هدأت العاصفة ، التفت إليها الحاكم مستفسراً :

— ومن هو هذا الذى أرسلك للقيام بهذا العمل العظيم ؟

— مولاى .

— ومن هو مولاك هذا ؟

— هو الله رب السموات .

وهنا تمايلت رؤوس الحاضرين تهمس . . . مسكينة . قد فقدت صوابها . . . طار عقلها . . . تهرف بما لا تعرف .

ثم التفت الحاكم إلى « لا كسار » وخاطبه فى لهجة خشنة : —

— « خذ هذه الفتاة ، وعد بها إلى البيت ، ثم اضربها بشدة لتقلع عن هذيانها هذا . أسمعت ! »

فانحنى لا كسار ثم هم بالخروج . وهنا التفتت جان إلى روبرت دى بودريكور وقالت له فى كثير من الجد والحزم : —

— « إنك ترفض اليوم إعطائى الحرس . ولا أدرى لرفضك سببا وتلك مشيئة الله . ولذلك سأعود إليك مرارا حتى تعطينى ما أمر الله به : »

حدث ما حدث بين جان وروبرت دى بودريكور فى داخل القلعة التى كان يسكنها ، بين سمع الحرس والخدم وبصرهم . وسواء أكان عن طريق هؤلاء ، أم عن طريق عدم اعتصام جان بالصمت عن رسالتها كما كانت تفعل قبلا ، فان خبر ماجرى انتشر في المدينة ، وتناقلته الألسن بسرعة ، وكانت له ضجة ، وكانت له دهشة ... ومن المدينة انتشر الخبر في الريف المجاور إلى أن سمعت به دومريمى . ومن غريب أمر تلك القرية ، وقد نشأت فيها جان ، طاهرة الذيل ، عفة اللسان ، أنها كانت أشد القرى سخطا عليها ، وتحقيرا لها . وكان والد جان يتميز من الغيظ ، فمن ناحية وجد ابنته مضغة فى الافواه ، ومن ناحية أخرى كان تصرف ابنته شائنا فى نظره . وثقلت عليه المصيبة وازدوجت بين ضياع سمعته وفقد ابنته . وتذكر المسكين أنه كان ذات مرة قد رأى فى نومه أن جان تختلط مع الجند فى غير كلفة فهب من نومه مذعورا ، ونادى اخوتها وقال لهم : لو أن ما رأيته فى نومى وقع من جان فعلا لأغرقتها فى النهر . وأن لم أفعل فأغرقوها أنتم .

هذا ما كان من أمر دومريمى بادىء ذى بدء عند سماعها الخبر .

وقد اختلف المؤرخون فيما فعلته جان بعد صدمة الحاكم لها فمنهم من روى أنها عادت إلى دومريمى فقوبلت فيها بمظاهر السخط والاستياء من أهلها جميعاً ، وأنها قابلت سخطهم بالصبر المشوب بالألم ، وثبتت على عقيدتها ثبات الطود الراسخ ، كأن لسان حالها

يقول « اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » . ومنهم من روى أنها لم تعد إلى دومريمى قط بعد خروجها مع خالها أول مرة ؛ وهو الأرجح لأنها وقد أعلنت رسالتها بعد أن كتمتها عن دومريمى نيفا وثلاث سنوات ؛ لم يكن طبيعياً أو منتظراً أن تعود إلى قريتها لأول صدمة فلا هذا يتفق مع ما عرف عنها من قوة الشكيمة ؛ وصدق الأيمان ولا مع ما كانت تلح به أصواتها عليها من وجوب الاسراع الى معونة « الدوفن »

إذن نقول مع من قال من المؤرخين إن صدمة دى بودريكور لم تقعد بها ، ولم يثبطها سخط الساخطين ، ولا سخرية الساخرين ، بل أخذت تتردد عليه ملحة فى إجابتها إلى ما طلبت .

ولكى تكون جان قريبة من مقر الحاكم ، انتقلت من بيورى (Burey) قرية خالها ، إلى فوكولير نفسها ؛ وسكنت مع امرأة صالحة زوج أحد الصناع . ثم انصرفت إلى حياة العبادة ، والصلوات فى أوقاتها ، وأخذت تنشر دعوتها بين زوارها الذين أخذوا يؤمون منزلها زرافات ووحدانا ، رجالا ونساء ، جاءوا اليها بعد الذى ترامى اليهم من أخبارها ، وهم بين مصدق ومكذب ، حتى إذا جلسوا اليها ، وسمعوا حديثها ، وتبينوا يقينها ، أخذوا بقوة إيمانها ، وخرجوا من لدنها مؤمنين .

وجان فى بساطتها ، وغذوبة لفظها ، مع اتساق قوامها ، وبريق عينيها الزرقاوين ، و بصرها الحديد ، وهى بعد فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، ذربة اللسان ، حاضرة البديهة ، لا تكاد تتوجه اليها بالسؤال حتى تبدرك بالجواب المقنع السديد . جان هـذه كانت لابد أن تقنع سامعيها ، وأن تحير معارضيها . ولذلك لم تلبث طويلا فى فوكولير حتى كان أسمها فى كل مكان ، وازدحمت المدينة على رحبها بالذين جاءوها من كل فج . ودومريمى التى قابلت خبرها بالسخط فى بادىء الأمر تحولت إلى الأعجاب بها ، بل أخذت تباهى بها وتفاخر بأنها من فتياتها . ورضى عنها أهلها وعشيرتها ، وخرج اليها أخواها بيير وجين وعند خروجهما قامت دومريمى بأسرها تودعهما ، ولاغرو . أليس هما شقيقى من تخاطب الملائكة ! وتتحدث إلى القديسين !

وساعد على انتشار دعوة جان أن الناس تذكروا فيما ورد عن سلفهم من قديم الزمان (وقد سبقت الاشارة الى ذلك) ان فرنسا ستضيعها امرأة وستنقذها «فتاة من اللورين» . كانت هذه النبوءة متداولة نحو الثمانمائة عام ، تنبأت بها امرأة حكيمة اسمها «مرلان Merlin» وتذكرها الشعب بمجرد ظهور دعوة جان وذيوعها . واعتقدوا أن المرأة المقصودة فى النبوءة للضياع هى ايزابل أم ولى العهد ، التى نبذته ، ومكنت للانجليز من عرش فرنسا وأنه لم يبق إلا ظهور « العذراء » التى ستنقذ فرنسا وهاهى جان (وهى

عذراء ومن اللورين) تقول إن الله ارسلها لطرد الانجليز ، وتخليص البلاد منهم ، وتتويج الملك الطريد فوق عرشه .

تلك عقلية القرون الوسطى ، وتلك نماذج من عقائد ورثها القوم عن آبائهم ، هى عندهم موضع التقديس منهم ، فيجب أن نجعلها دائماً نصب أعيننا ، حتى يسهل فهم اتجاه الأفكار والميول فى ذلك الزمن .

وعلم « دوق لورين » الكبير بأمر جان ، وكان مسناً ، مريضاً ، أضناه السقام ، فظن أن فى جان شفاءه فأرسل فى طلبها . وأجابت دعوته ، ويظهر أنه طلب منها أن تشفيه برقاها وتعاويذها ، ظناً منه أنها تأتى بالمعجزات . ولكنها ببساطتها المعهودة أقنعته أنها ليست من أهل المعجزات . وإنما أمرها الله أن تخلص فرنسا وأن تتوج الملك . وفى الحق أن جان لم تدّع قط أنها تستطيع الاتيان بالخوارق والمعجزات ، ولم تخرج فى يوم من الأيام عما رسمه لها القديسون من حدود ، ولم يخرجها عن تلك الحدود تكاثر الناس حولها ممن أخذوا يقدسونها ، ويتبركون بلمسها أو بلمس ثيابها ، بل بمجرد رؤيتها أو الاقتراب منها .

وفرحت جان بلقيا أخويها فى فوكولير فرحاً شديداً . وقد حملا لها تحية والديها المحبوبين . ورأت جان أن تجدد محاولتها لدى الحاكم ، فذهبت إليه تسأله أن ينفذ لها ما تريد ، فوجدته كالصخر ثابتاً على رأيه فيها لا يتحول عنه . فخرجت من عنده غاضبة آسفة ، ولكنها

غير يائسة . فان كان هو كالصخر ثباتاً على رفضه ، فقد كانت أشد من الصخر ثباتاً على إيمانها . والايمان كما تعلم يزحزح الرواسى .

وفى يوم من أيام انتظارها الممض ، جاء اليها شاب من النبلاء ، فى السابعة والعشرين من عمره ، اسمه « جين دى متز » وابتدرها بالسؤال :

« ماذا تصنعين هنا ؟ هل حتم علينا أن ننتظر حتى يطرد الملك نهائياً من فرنسا ونصبح عبيداً للانجليز ؟ » فأجابته فى هدوء وجد :

— « جئت هذه المدينة الموالية للملك ، ألح على حاكمها أن يرسلنى إليه ، فبدلا من إجابتى إلى سؤلى أخذ يحقرنى ولم يعبأ بى . والضرورة القصوى تقضى أن أكون مع الملك فى منتصف الصيام الكبير ، ولو سرت على قدمىّ حتى أبريهما إلى ركبتىّ ، إذ لن يستطيع أحد سواى انقاذه . لا اسكتلندا حليفته ، ولا غيرها من الدوقات والملوك . وسأذهب إليه حتما لأن مولاى يريد ذلك » .

— ومن هو مولاك ؟

— مولاى هو الله .

وعند هذا الجواب الحاسم ركع ذلك الشاب النبيل بين يديها ، على طريقة الفرسان فى ذلك العصر ، وأقسم لها أنه بمشيئة الله سيأخذها إلى الملك . ثم سألها :

متى ترغبين فى السفر؟

فردت عليه جان ردها المشهور « اليوم خير من الغد ؛ والغد خير مما بعده . »

وفى هذا الرد جمعت جان خلاصة أخلاقها منذ أن أعلنت رسالتها إلى ان فارقت الحياة . فقد كانت فى كل عمل تولته ، وقد تولت أعمالا جسيمة ، لا تؤخر للغد ما تستطيع عمله اليوم . وستمر بك أمثلة كثيرة تدل على تأصل هذا الطبع فيها .

وكان « جين دى متز » أول مؤمن بها من طبقة الأشراف ، إذا استثنينا دوق لورين الكبير ، وان كان الدوق قد صدق فيها ما صوره له خياله من قدرتها على المعجزات . ثم جاءها فى اليوم التالى شريف آخر اسمه « برتران دى بولنجى (Bertrand de Poulengy) وكان قد رآها عند روبرت دى بودريكور ، وهى تلح عليه فى تنفيذ رسالتها ، وأقسم لها بالله وبشرفه أن يكون معها وأن يتبعها أنى سارت . . .

ولسائل أن يسأل ولماذا أطالت جان مكثها فى فوكولير ، وأصرت على أن يكون ذهابها للملك بوساطة الحاكم ؟ هل لم يكن فى إمكانها أن تسير للملك مع من تختاره من بين آلاف المعجبين بها ؟ !

يبدو هذا التساؤل وجيهاً ، ولكن عند التأمل تظهر حكمة جان

فى تشبثها بأن يكون ذهابها إلى الملك عن طريق الحاكم الرسمى ، مزودة بكتاب منه .

أولا : كان ذهابها للحاكم تنفيذاً لأمر « أصواتها » وما كان لها ان تبدأ عملها بمخالفة مصدر وحيها .

وثانيا : لو ذهبت من غير الطريق الرسمى لصعبت عليها مهمتها ، بل لاستحالت عليها لأن حاشية الملك وقواده ما كانوا ليسمحوا بقبول فتاة تتقدم اليهم من عرض الطريق لتقول لهم إنها مرسلة من عند الله لكى تنقذهم. فقبول الحاكم المحلى لها ولرسالتها كسب لنصف المعركة ، لانه يلقى على عاتقة مهمة التمهيد لقبولها عند السلطات العليا ، ويحفظ لها اعتبارها عند دخولها عليهم . ثم لا تنسى ان الطريق التى عليها ان تقطعها لكى تصل إلى مقر الملك ، كانت غير آمنة . فالبلاد قد وقعت فى أيدى العدو من ناحية ، وصارت عرضه لفتك العصابات المتجولة من ناحية أخرى ، فلا بد لها من حرس مسلح تسير معه ، وهذا ما كان ليمكن لها تدبيره من غير طريق الحاكم الرسمى. وفوق كل هذا لا تنس أن جان كانت فى السابعة عشرة من عمرها ، ولم تكن قد طرقت تلك البلاد من قبل .

وفى يوم السبت ١٢ من فبراير سنة ١٤٢٩ قصدت جان إلى روبرت دى بودريكور يبدو عليها شىء من علائم الحزن واضطراب

البال ، ولما تمكنت من مقابلته بادرته قائلة : « لقد أسأت كل الاساءة فى تعطيلى هنا إلى اليوم ، وهاهى جيوش الدوفين تبتلى بهزيمة منكرة على مقربة من أورليان ، والخطر بتلك المدينة محدق . وهكذا ستتوالى خسائره وانت تؤخر ايفادى اليه . . . » وهنا قاطعها دى بودريكور وكأنه قد ضاق بها ذرعها .

« ماذا تقولين ؟ ! اليوم خسر الدوفين معركة على مقربة من اورليان ؟ وانت من انبأك ما حدث ؟ و بينك وبين المكان الذى تذكرين مسيرة ثمانية ايام للراكب المجد ؟ ! »

فردت جان وهى أهدأ ما تكون : « نبأتنى أصواتى (وستعلمن نبأه بعد حين) » فأخذ بودريكور يجوب الغرفة ذهوبا وجيئة ، وهو يهدر بألفاظ عسكرية خشنة ، تعود أمثاله فى ذلك الزمن أن يقسموا بها بين كل عبارة وعبارة ، أو يرددوها وحدها إذا ما اشتد غيظهم وهاج هائجهم . ثم أطرق برهة كأنما يفكر فى أمر خطر له مفاجأة ، ثم التفت إلى جان وقال فى لهجة من يعطى وعدا :—

« اسمعى ! إذا صدقت أنباؤك فسأرسلك للملك وأعطيك ما تريدين . . . » فتهللت أسرة جان ، وحمدت الله على أن أيام الانتظار قد آذنت بالزوال ، لأنها كانت على يقين من صدق الأنباء ، إذ أن أصواتها لم تكذبها قط . ثم أخذت جان تعد نفسها للسفر ، وكان

خالها وجين دى متز و بولنجى قد اشتروا لها جواداً ، وأخذوا يعدون ما يلزم من معدات السفر .

و فى اليوم العشرين من فبراير أسرت إلى جين دى متز و بولنجى بأن يستعدا للسفر يوم ٢٣ الساعة ١١ ليلا ، فأبديا دهشتهما من تحديد الميعاد قبل أن يعلنها الحاكم بالموافقة ، ولكن الامر لم يتعد الدهشة ، ومضيا يستعدان لما أمرت به . وكانت نية جان قد صحت على اختيار ذلك الموعد للسفر لانه موعد غير مألوف ، و كذلك اعتزمت أن تسلك طرقا غير مألوفة ، لكى تتفادى الوقوع فى شرك الاعداء الذين كانوا يسيطرون على معظم الطريق .

وبعد اسبوع من مقابلة جان الاخيرة للحاكم أو أكثر قليلا وصل إلى الحاكم رسول من عند الملك اسمه « كوليه دى قيين » Colet de Vienne وتقل إليه أن الملك مُنى بهزيمه عند روفراى Rouvray (١) وهنا بادره دى بودر يكور بالسؤال

— ومتى كان ذلك ؟

— كان يوم السبت ١٢ من فبراير . . . وكانت القوات الانجليزية تحمل المؤونة إلى جيشهم المحاصر لأورليان ، فوجدت القوات الفرنسية تقطع عليها الطريق ، فوقع القتال بين الفريقين وتشتت فيه شمل جيش الملك .

---

(١) وهى الموقعة المعروفة باسم « موقعة سمك الرنجة » لأن المؤنة كان معظمها منه بمناسبة صيام الكبير

وعند سماع الخبر أخذت بودريكور حيرة يعرف القارئ سببها، فقد صدقت جان فيما قالته عن الحرب قبل وصول رسول الملك بثمانية أيام . ولم يبق أمامه إلا تنفيذ ما وعدها به .

ولكي يطرد من ذهنه كل شك ، رأى أن يتحقق بنفسه من أن جان لا تخضع لتأثير شيطان يوحى إليها بما تقول وما تفعل، فقام من فوره ، وأخذ قسيساً ، وقصد فى موكبه إلى بيت جان . وهناك طلب منه أن يفحص الفتاة ، فان كان عملها من عمل الشيطان طرده برقاه وتعاويذه ، وأما إن كانت لا تخضع لشيطان من الشياطين ، تقبلها ونفذ لها أمرها . فتقدم القسيس وأخذ يتلو كتابه ، ثم صاح بها قائلا : « إن كنت من أهل الشر فاخرج ، وإن كنت من أهل الخير فتقدم . . . » فتقدمت جان وركعت على ركبتيها ولسان حالها يقول « لعلكم آمنتم وطردتم الشك من رؤوسكم » .

وإزاء هذه البينات لم يجد بودريكور بدأ من تجهيز الفتاة بما طلبت .

وفى اليوم الثانى والعشرين من فبراير ، أى فى الميعاد الذى حددته جان لرفيقيها ، كان كل شئ معد للسفر .

واتفقت جان و بودريكور أن تتزى بزى الرجال حتى لا تلفت النظر إليها بوجودها بين شرذمة من الرجال . وفى الساعة المحددة

للرحيل كنت ترى جان فى لباس الجندية ، من القبعة التى تشبه القلنسوة ، إلى الجورب الطويل ، والقميص العسكرى ، (والجتر والمغماز) ... ولم يكن فى مقدور من لا يعرفها أن يميزها من بين الفرسان فى ثيابهم المعهودة فى ذلك الزمن . وفى تلك الساعة جاء إليها الحاكم وسلمها كتاباً للملك ، وأمر لها بالحرس الذى طلبته ، ومن بينه « كوليه دى فيين » الرسول القادم أخيراً من عند الملك ، فقد كان قد أتم مهمته ، ولم يبق له إلا العودة ، فكلفه دى بودر يكور مرافقة الجماعة .

وفى الساعة الحادية عشرة تماماً انطلقت الجماعة من باب المدينة الغربى ، وجان أشد أهل الأرض فرحاً بما نالت من نصر ، وبما حققت من أمنية ، وبما نفذت من أمر « أصواتها » . وهكذا بدأت رحلة جان بل قل مغامرتها تلك المغامرة التى كانت قصتها من أروع ما عرف تاريخ بنى الانسان .

تنبيه : قد يلاحظ القارىء ان انصار الملك من الفرنسيين كانوا يسمونه « الملك » رغم اغتصاب العدو لعرشه واما جان دارك فبقيت فى اغلب الاحيان تدعوه بلقبه الاصلى وهو « الدوفن » (Dauphin) اى « ولى العهد » الى ان تمكنت من تتويجه فى ريمس واصبح الملك الشرعى فى نظر الجميع

فى الطريق الى الدوفن

وكانت جماعة جان دارك مؤلفة من ستة فرسان فى رواية ، وفى رواية أخرى من ٢٥ رجلا بما فيهم الحرس والخدم . وكان من بينهم بيير وجين شقيقا جان ، ومن بين الحرس الذى اختاره بودر يكور على عجل ستة من الرجال غير المدربين على الحرب والقتال ، ولم يسبق لهم ركوب الخيل من قبل .

وتوقعت الجماعة ان بعض هؤلاء الحراس السذج قد يحاول الفرار فى أثناء الطريق ، وبخاصة وهم لا يزالون فى منطقة فوكولير . فمنعا لهذا الاحتمال ، سار جين دى متز فى المقدمة ، ودى بولنجى فى المؤخرة . وأما جان فكانت هى وأخواها فى وسط الجماعة ، واستمر هذا الترتيب الى أن خرجوا من منطقة فوكولير . ودخلوا فى الأرض التى يسيطر عليها العدو . ولم يكن النفوذ الحقيقى لحاكم فوكولير ، يمتد إلى أكثر من مسيرة ثلاث ساعات .

أما المسافة بين فوكولير و«شنون Chinon» حيث الملك ، فكانت مائة وخمسين فرسخا على الاقل ، يقطعها المجد فى عشرة أيام . وأما الطريق فكانت وعرة المسالك ، شعثه الأديم ، فيها السهل المملوء بالمناقع ، وفيها الآكام والوهاد ، وفيها مجارى الماء العميقة ، والمسارب الوشلة ، مع ندرة الجسور ، وقلة المعابر .

وكان ذلك فى فصل الشتاء ، حيث الزمهرير القارس ، والمطر الهاطل في أغلب الأحايين ، والأرض تغشاها طبقة من الجليد .

ولما كان جل الطريق يقع فى أرض العدو ، رأت جان وجماعتها أن يجعلو سفرهم ليلا واختفاءهم نهاراً ، مبالغة فى الحيطة ، وإمعانا فى الحذر . فكثيرا ما عبروا مجارى الماء والبرد على أشده ، وكثيراً ماقضوا أوقات راحتهم بالليل أو النهار على الأرض العارية يغطيها الجليد وهم لا غطاء لهم إلا ما عليهم من الثياب .

فى أول الرحلة وبعد بضع ساعات من المسير ، علا صراخ الجدد من الحراس الذين لم يعتادوا ركوب الخيل من قبل إذ ، أحسوا كأن أرواحهم تزهق ، وكأن أجسامهم تدق ، فكانت جان تشجعهم وتبث فيهم روح التجلد والصبر بكلماتها العذبة تارة ، وبقدوتها المثلى تارة أخرى . وساروا فى الليالى الثلاث الأولى بمعدل ١٢ فرسخا فى الليلة الواحدة ، ولم يعترضهم الناس فى بادىء الامر فى مرورهم ، اعتقاداً منهم أنهم « من الجماعات الحرة » كما كانوا يسمون العصابات الجائلة ، وكان كل ما يرجوه الناس من هؤلاء ان يمروا بسلام .

أما فى الخمس الليالى التالية ، فقد بدأت مصاعب الطريق وأهواله تتجلى لهم ، فان خبر سفر جان عذراء فوكولير كان قد نمى إلى كل البلدان وكان ذكرها وذكر رسالتها قد استفاض فى جميع الانحاء ، فأخذ القوم

يتربصونها فى الطريق ، ولولا أنها كانت قد وضعت نصب عينيها من أول الرحلة أن تتخذ إلى «شنون» طريقا غير الطريق الذى ألفه الناس، وأن تسير فى مسالك ملتوية غير مطروقة ، لتسنى للأعداء الاهتداء إليها ومن يدرى فقد كان يمكن حينئذ أن يتغير وجه التاريخ . ومع تجنب جان الطريق العامة ، فقد قابلها الكمين سبع مرات ، وجرت بينها وبين رجاله مناوشات ، وخسرت جان اثناءها بعض رجالها ، ولكنها ، ولم تعرف شخصيتها قد تمكنت من التغلب عليهم ، والسير إلى الامام نحو غايتها

قلت لك ان بعض الحراس الجدد ضجوا من شدة ما لحقهم من ركوب الخيل لأول مرة ، وازداد ضجيجهم ، وكثرت بوادر تململهم كلما أحسوا شدائد الطريق المختلفة . وفى ذات يوم جلست الجماعة تستريح فى ظل شجرة لكى يرفهوا عن أنفسهم بعض ما أرهقها من تعب ووصب ، وما أصابها من وعثاء السفر ، وجعل بعضهم يتحدثون عن السر فى صبر جان وجلدها ، وقدرتها الخارقة على احتمال المكاره وكيف ، وهى الفتاة الصغيرة ، التى لم يسبق لها ركوب الخيل قط ، لا تضج كما ضجوا ، ولا تئن كما أنوا ، ولا تعبأ بمشقة ، ولا يضنيها تعب . وبينما هم يبحثون وينقبون فى أمر جان ، خطر لأحدهم أنها لابد وأن تكون ساحرة !.. نعم ساحرة !... وفى بضع ثوان كانوا جميعاً يقولون ساحرة ، وإلا لما استطاعت أن تخوض غمار الخطر وهى آمنة

مطمئنة ، كأنها بنت بجدتها ، أو كأنها تقود فرقة من رفقائها في القرية وهم ذاهبون تحت « الشجرة » .

وأخيرا صمموا على اغتيالها والخلاص من سحرها ولكن الله كشف سوء تدبيرهم قبل أن يقدموا على فعلتهم الشنعاء . وأراد دى متز ودى بولنجى أن ينفذا فى المتآمرين عقوبة الاعدام جزاء وفاقا ، ولكن جان أبت واستكبرت وقالت :ـ « لا هؤلاء ولا غير هؤلاء يستطيعون قتلى قبل أن أتم رسالتي . فلماذا أحمل نفسى جريرة دمهم . ادعوهم إلىّ ... »

ولما مثل المتآمرون من حراسها بين يديها ، أعلنتهم فى هدوء طبيعى بقولها المتقدم ، ثم التفتت إلى كبيرهم وقالت له . « إنه لمن المحزن أن تتآمروا على قتل نفس بريئة وأنت نفسك على حافة القبر . »

وشاءت المقادير أن ينقلب حصان هذا الرجل فى أول مجرى ماء يعترض الجماعة بعد حادث التآمر وأن يموت الرجل رغم كل محاولة لانقاذه . وبذلك صدقت نبوءة جان ، وعظمت بين الجماعة مهابة وجلالا ثم تابعوا السير على هذا المنوال من خطر ووعثاء حتى وصلوا إلى دير «سنت اربان Saint Urban » ومنه قصدوا إلى «أوكسير Auxere» ثم إلى «جين Gien » وفى « جين » دخلوا أرضا موالية ورأوا «اللوار» وزالت مخاوفهم واطمأنوا إذ أصبحوا من «شنون» قاب قوسين أو أدنى . ثم دخلوا قرية تسمى « فيربوا Fierbois » ومنها أصبحوا على مسيرة ستة

فراسخ من مقر الملك : وكان دخولهم فيها فى الليلة العاشرة لخروجهم من فو كولير .

وبوصول جان إلى الارض الموالية ، لم تعد تخفى نفسها ، ولا الغاية من سفرها . فهرع القوم إليها من كل صوب ، وتحدثت بخبرها أورليان المحاصرة ، وانتعشت الآمال بقدومها ، وأرسلوا الرسل للملك لكى يعنى برسالتها حتى ينقذهم الله على يديها .

وفى « فيير بوا » أرسلت جان رسالة للملك حملها اليه دى متز ، ودى بولنجى وكان تحوى رسالتها أنها سافرت مئات الأميال لكى تحمل إليه بشرى طيبة ، وأنها ترغب فى مقابلته شخصياً ، وأنها ستعرفه مهما احتجب واستتر .

وفى اليوم التالى وصلت جان إلى « شنون » . وكان ذلك فى يوم الأحد ٦ من مارس سنة ١٤٢٩ .

عند الملك فى شنون

وفى شنون نزلت جان فى فندق شهير ، ونزل معها رفاقها . واستعدت لمقابلة الملك ، ولكن دى متز ودى بولنجى حاملا رسالتها إليه أفهماها أنهما لم يجدا بين حاشية الملك أذنا صاغية ، وأن وصولها إلى الملك ليس بالأمر السهل . وفى الواقع كان الملك محوطا بأخس البطانة ، ممن يتصلون بأعدائه سرا ، غير آبهين لشىء إلا أن تمتلىء بطونهم وخزائنهم وبعدهم « فليأت الطوفان . . . ! » فلما وصلت الأنباء بقيام جان ، وعلم القوم بدعواها ، أخذوا يدسون لدى الملك ويوصونه بالحذر منها والتريث فى أمرها ، لا عن حكمة وحسن تدبير ، بل لاعتقادهم أن قيام أى نفوذ غير نفوذهم حول الملك يغض من شأنهم ، وقد يكشف ما خفى من أمرهم .

وكان كبير أولئك الدساسين جورج دى لاتريموای ، (La Trémoille) ذى الثروة الطائلة ، وصاحب النفوذ الأول لدى الملك ، لأنه كان يقرضه المال الذى يعيش به . وكان يشاركه فى النفوذ رئيس أساقفة ريمس وكبير رجال الدين فى المملكة ، « رينولت دى شارتر » Regnault de Chartres » . هذان كانا الكوكبين الساطعين فى حاشية الملك . ويليهما فى النفوذ « جوكور Gaucourt »

ولى العهد (الدوفن Douphin) شارل السابع ملك فرنسا

رئيس ديوان الخاصة ، وكان رجلا عسكريا من الذين لا يفقهون فى غير الشئون العسكريه شيئا .

أما من عدا هؤلاء من البطانة فكانوا أصفارا لا قدرة لهم على تصريف الأمور .

جاءت جان ، والملك كما قال عنه « مارك توين » كالفار في المصيدة لا يملك لنفسه من الأمر شيئا ، يبرم اليوم ما ينقضه فى الغد ، مترددا مستسلما ، فى فقر مدقع ، ويأس ساحق ، وظلام حالك ، لا يدرى لنفسه منه مخرجا . وما كان يفكر إلا فى وقف القتال ، وترك المقادير تجرى فى أعنتها ، والهرب إلى بلد أجنبى ، فقد انقضي على حصار الانجليز لأورليان خمسة شهور ، وكان سقوطها بين أيديهم أمرا محققا لأن الملك كان فى الواقع بلا جيش . وكان هو ، ومن حوله ، والشعب من ورائهم ، قد فقدوا كل أمل فى النصر . وفقدان الأمل فى النصر أكبر نكبة من فقدان الجيش . وسقوط أورليان كان معناه سقوط فرنسا حكومة وشعبا فى أيدى الانجليز لأنها كانت مفتاح جنوبى فرنسا كله أو الجزء الباقى منها مواليا للعرش الفرنسى ورافضا للتسوية القاسية التى حدثت فى « تروى » .

وكانت جان تعد الساعات فى انتظار مقابلة الملك . وقد علم الشعب فى أورليان بحضورها ، فأوفد الوفود كما ذكرنا من قبل إلى الملك .

وجاءت الوفود إلى جان فى الفندق ، ونقلوا إليها ما يعرفونه عن تردد الملك وخموله ، وجموده عن السعى فى خلاصهم ، فكانت جان تؤكد لهم فى لهجة طبيعية هادئة قرب الفرج وزوال ما هم فيه من شدة .

ثم علمت جان أن من أقرباء الملك الموجودين معه « الملكة يولند Yolandi » ملكة صقلية ، وكانت تكره طائفة الدساسين الذين يحيطون بالعرش ، فلما علمت بامر جان عطفت عليها ، وشجعت الملك على استقبالها . وظهر أن الملك كان يود أن يستقبل جان دارك ، ولكنه لم يستطع مخالفة ما كان يتلقاه من الأيحاء أو الأمر من « لاتريموای » ومن رئيس الاساقفة ، إلا أن ذيوع أمر جان . وضغط الحوادث قضى على رجال الحاشية ألا يظهروا بمظهر المعارض المتعنت الذى لا يهمه شيء . فتظاهروا بالاهتمام على أن يأخذوا بالتسويف والمماطلة . فعقدوا مجلس البلاط ، وقرروا أن يوفدوا لجان فى الفندق أربعة من رجال الدين يتلقون منها الرسالة التى تحملها للملك فقابلتهم جان ومن معها بالاحترام اللائق من غير بادرة اجتراء أو حركة سخط . ثم أخبرتهم فى هدوئها وصراحتها أن الرسالة خاصة بالملك وأنها لا تقدمها إلا لشخصه . فخرج الوفد غاضبا . ولكن الملك لما عرف ردها أعجب بأرادتها .

ثم فكر رجال الحاشية أو قل دائما « لاتريموای » ورئيس الأساقفة فى إرسال وفد آخر ، إلى موطنها فى اللورين ، يجمع المعلومات عنها ،

وعن نشأتها ، وعن أسرتها ومركزها . . . وكانت غايتهم من كل هذا الارجاء والتسويف . وكانوا يفعلون هذا وأورليان على مقربة منهم تحتضر

وأخيراً تمكن الذين عطفوا أو أخذوا يعطفون على جان ، منذ وصولها ، أن يحملوا الملك على مقابلتها رغم أنف معارضيها .

وأذن لها فى مقابلة الملك يوم الثلاثاء ٨ من مارس أى بعد وصولها إلى « شنون » بيومين . وفى هذا دليل على سرعة تغلبها على معارضيها ، الذين لو أتيح لهم تنفيذ أغراضهم لعرقلوا مساعيها دهرا طويلا .

وفى المساء تحددت المقابلة بين الملك وجان دارك . وفى الساعة المحددة كنت ترى جان ورفاقها يمتطون صهوات جيادهم ويصعدون فى المنحدر المؤدى إلى باب القلعة مقر الملك . وفى هذا المنحدر حدث حادث ظريف لجان ورفاقها . وذلك أن فارسا كان ينزل المنحدر بينما كانوا صاعدين ، فعندما اقترب من جان وجماعتها أخذ يسب ويقذف ألفاظا منكرة ولا يدرى أحد لذلك سبباً ، ولعله يكون قد ضايقه أن جان ورفاقها لم يفسحوا له مجازا كافيا لمروره ، أو يكون قد عرف القادمين وكان من الفريق المعارض لفكرة الاهتمام بجان ، لأن الحرس وضباطه كانوا أيضاً قد انقسموا فى أمر جان بين محبذ ومستهجن فلم يتمالك من إظهار غيظه عند رؤيته الجماعة صاعدة لمقابلة الملك

وسواء أكان هذا أم ذاك هو السبب ، فانه لم يكد ينتهى من ألفاظه البذيئه وأيمانه الغليظة حتى التفتت إليه جان قائلة له فى اهتمام « أتجعل الله عرضة لأيمانك وأنت جدّ قريب من الموت ؟ ! »

بعد قولها هذا بساعة واحدة ، زلت قدم هذا الفارس ، وسقط فى اللجة ، ولم يجد من ينقذه ، ومات غرقا .

استمرت جان فى صعودها إلى أن انتهت إلى ممر حجرى يؤدى إلى الردهة الكبرى الواقعة فى الجهة الجنوبية للقلعة ، وتقدم الكونت دى فندوم أحد أمراء الاسرة المالكة لكى يتولى مراسم تقديم جان إلى الملك .

وكان رجال الحاشية أو قل «لاتريموای» ذو الجسم الضخم ورئيس الاساقفة قد اتفقوا مع الملك على ان ينكروه لجان بأن يرتدى ثيابا عادية لا تميزها شارة من شارات الملك أو علامة من علاماته ، لينظروا أهى مهتدية إليه أم غير مهتدية (فان كانت كما تزعم مرسلة برسالة الهية عرفته وإن كانت دعواها زورا لم تعرفه واختلط عليها الأمر) واتفقوا على أن يجلسوا أحدهم على العرش مبالغة فى تضليلهم إياها

فلما دخلت جان القاعة ، وكانت تسطع فيها مئات المصابيح الزيتية ، وجدت جمعا لا يقل عن الثلثمائة من رجال ونساء فى مختلف الأزياء والألوان ، كل يلبس لباس طبقته بين الناس . وكان لحلى

النساء بريق امتزج بضوء المصابيح فخطفت بلمعانها الأبصار . . مناظر تدهش العقول ، وتحير الألباب ، وتزيغ الأبصار ، وعلى هذه الحال دخلت جان فى ثوبها العسكرى لم تخلع منه سوى قبعتها ودثارها الخارجى ، يقودها الكونت دى فندوم ، فأخذت فى هدوئها المعهود تلتفت شمالا ويمينا ، باحثة عن الملك ، غير حافلة بمن أجلسوه مكانه وبينما هى تجيل بصرها باحثة كان بعضهم يضللها بقوله ، هذا هو الملك ! انه هنا ... ! ها هو هناك . . . ! ، ولكنها لم تلبث أن قصدت الى الملك الحقيقى في غير خطأ أو تردد ، ثم ركعت أمامه ، وقالت وهى تحدق فيه « أيها الملك الكريم أطال الله بقاءك »

فأسرع شارل قائلا :

« لست أنا الملك ... ! ان الملك هناك (مشيرا الى الجالس على العرش) » فلم تتحرك جان من أمامه وقالت « باسم الله مولاى أنت هو . وليس أحد سواك . أعطنى الجند أنقذ أورليان ، وأذهب بك الى ريمس ، Rheims حيث تمسح بالزيت المقدس ، وتضع التاج على رأسك ، فهذه هى إرادة الله ... »

عرفت جان الملك من غير تردد ، وألقى فى روع الحاشية أنهم أمام شخص غير عادى ، ثم انتحت به ناحية منعزلة « وأسرت اليه » بضع كلمات تهلل لها وجهه ، ثم عاد يعلوه نور اليقين والاطمئنان ، مصدقا لما بين يديه ، مؤمنا بجان .

وقد عجز كل المؤرخين عن معرفة « ما أسرته » جان للملك . هذا الذى بدله من شكه يقينا ومن تردده ثباتا واطمئنانا . و يقول المجتهدون منهم أن جان أسرت اليه انه هو الملك الشرعى حقا ، وأنه وارث عرش أبيه ولقبه فى غير شك ولا ريبة كما ألقى فى روعه عندما أعلنت أمه الفاجرة عدم شرعيته ، الأمر الذى كان يقض مضجعه ، ويزيد قلقه . وقد خلا يوما الى نفسه ، وأخذ يصلى لله و يدعوه مخلصا أن يكشف له ماخفى من سر مولده ، وختم دعاءه راجيا إن كان ابنا غير شرعى أن ينزع من قلبه حب المُلْك والسلطان . فجاءت جان تسر اليه أن الله استجاب دعاءه ، وأرسلها اليه تبلغه فى جلاء أنه هو ابن الملك حقا فارتفع عنه كابوس الشك . وأخذ يفرح بزواله عنه . وآمن بجان لأنها لم تكن تعلم هى ولا غيرها أمر شكه فى شرعيته ، أو تعرف سر صلاته ودعواته من أجل إزالة ما علق بذهنه عنها .

و بعد هذه المقابلة الموفقة ، انتقلت جان بأمر الملك للسكنى فى أحد أبراج القلعة المسمى « برج كودراى » مع ضابط اسمه « وليم بلييه William Bellier » من ضباط الحرس هو وزوجه . ونزول جان فى هذا المكان من القلعة ، دليل على ما جعل لها من الاهمية . وخصوصا وقد اعطاها الملك خادماً خاصاً بها اسمه « لويس دى كونت Louis de Conte » وحارسا من الفرسان النبلاء اسمه « جون

دلون John d' Aulon » وقسيساً يلازمها اسمه « جون بسكرل John Pasquerel

ولم تلبث جان أن تعرفت بأحد النبلاء وهو « دوق دالنسون Duke de Alencon » أحد أقرباء الملك : وكان شاباً شجاعاً وسيم الطلعة ، يتصل نسبه إلى الدم الملكى من جهتين : جهة ميلاده ، وجهة زوجته . فقد كان متزوجاً بابنة دوق أورليان وابنة عم الملك . وكان نزوعا للحرب والفروسية ، صادق الوعد ، ثابت المبدأ . وقد وقع مرة أسيراً فى إحدى الوقائع(١) فعرض عليه إطلاق سراحه على شريطة أن يعلن تأييده لحق ملك انجلترا فى العرش الفرنسى ، وأن يقسم يمين الطاعة والولاء له ، فرفض فى شمم وإباء ، ودفع فدية باهظة ، وخرج من الأسر موفور الكرامة. ولهذا السبب كان « دالنسون» محبوباً ومحترماً من الجميع .

سمعت به جان فأحبته قبل أن تعرفه ، ولما جرت مقابلتها للملك كان غائباً لاشتغاله بالصيد والقنص ، وفى صباح اليوم التالى للمقابلة ، دخل عند الملك فوجد جان عنده ، فقدمها الملك اليه ،فرحبت به جان وقالت فى بساطتها المعهودة « كلما ازداد أنصار الملك من أمراء بيته كان فى ذلك خير للجميع » . وفى اليوم التالى ، أى يوم الخميس ١٠ من مارس ،

---

(١) موقعة قرنى فى ١٧ اغسطس سنة ١٤٢٤

تقابل «دالنسون» مع جان مرة ثانية . وفى ذلك اليوم عقد الملك مجلساً يتألف من جان ودالنسون ولاتريموای فى إحدى غرف الملك الخاصة واستمر اجتماعهم حتى تناولوا الغداء سوياً . وفى هذا الاجتماع سمع دالنسون حديث جان عن مستقبل فرنسا ، وعن رسالتها فلم يتردد فى تصديقها . ومن ثَمَّ صارا صديقين حميمين يجمعهما رأى واحد ، فى إخلاص ويقين ، الى أن فرقت حادثات الدهر بينهما كما سيجىء بيانه .

ولكن ما كان للملك أن يتخلص من نفوذ لاتريموای ورينولث دى شارتر رئيس الاساقفه بسهولة ، وقد استمر الاثنان يحذران من الاندفاع وراء جان . . وهى « الفتاة القروية ، الوضيعة النشأة » والتى لاتستطيع هى أو أى فرد من طبقتها . طبقة الزراع ورقيق الارض أن يدرك دقائق السياسة وخوافيها ، ودروبها ومسالكها ، أو أن يعرف مزايا اللباقة السياسية ، وأخذ الأمور بالخب والخديعة ، وأنى لمثلها أن تعرف مافى الحرب من خدعة ...! » بهذه العبارات الخلابة وإن كانت جوفاء • كان الخبيثان يحرضان الملك على عدم الانصياع لجان فى تلهفها على السير حالا لانقاذ أورليان المحاصرة ،وتنفيذ أمرالله فيها .

وبدلا من السير إلى الميدان ، تقرر أن تفحص جان أولا ، وهل هى فى تصرفاتها تخضع لشيطان شرير أو تصدر فيها عن وحى ملك كريم

ونجح أهل الدسيسة والطمع فى إقناع الملك بأن شرف التـاج متوقف على فحص الفتاة أولا قبل أن يعهد إليهـا بأى عمل من أعمال الدولة .

ومن ثَمّ قصد اليها في مسكنها كثير من العلماء وكبار الاشراف والـكل يفحص ويدقق ، ويدهش ويعجب مما كان يجـده من يقين الفتاة ، ورسوخ إيمانها ، فى بساطة ومن غير ادعاء ، وأرسلت الرسل الى دومريمى تبحث وتنقب عن كل صغيرة وكـبيرة تتعلق بنشأتها وسلوكها حتى قامت بدعوتها .

ولم يكتفوا بهذا ، بل قرروا ارسالها الى بواتيـه Poitiers لـكى تفحص وتختبر .

جان فى بواتييه

وكان فى بواتييه جامعة كبرى ، فيها علماء اللاهوت ، وفيها فقهاء القانون ، ونزح اليها بعض العلماء ممن كانوا فى جامعة باريس ورفضوا أن يؤيدوا دعوى انجاترا فى العرش الفرنسى وبقوا مخلصين لولى العهد .

ولما سمعت جان بقرار إرسالها الى بواتييه صاحت قائلة : « الى بواتييه؟ ألما يشبعوا فحصاً وبحثاً ؟ ! » أورليان تتعذب وتحتضر ! وهم يضيعون الوقت فى الفحص والبحث ! ربِ أولنى صبراً على مايفعلون . هيا بنا الى بواتييه . . »

ولم تكن بواتييه بعيدة عن شنون فهى على مسيرة يومين منها للراكب جنوباً ، وتقع على نهر صغير يسمى فيين Vienne . وسبق جان اليها رئيس الأساقفة لكى يتولى فحصها بنفسه . وهناك جمع لها أعلام العلماء في الروحانيات امثال « سجوان Seguin » الدومنيقى وأصله من ليموج وهو أشهر علماء عصره فى الروحانيات « وسجوان Seguin» الفرنسسكانى ، ثم غيرهما من علماء اللاهوت والقانون . ورأس حضرته الهيئة التى تألفت لامتحان جان وتحقيق امرها

وتقدمت جان أمام الهيئة فى غير خوف ولا وجل ، وليس لها من نصير سوى قلبها الكبير . وروحها العظيم . وعقيدتها الراسخة فى

صدق دعواها . وأجابت عما كان يوجه اليها من الأسئلة بصراحة تامة ، وقصت على الهيئة ما كان من أمر رؤياها ، وماسمعت من نصح وما صدرت لها من أوامر ، فى اخلاص وصدق كان له أثره فى قلوب أعضاء الهيئة الذين أنصتوا اليها كأن على رءوسهم الطير .

وبقيت ثلاثة أسابيع بين شقى الرحى ، تجلس وحدها أمام منصة جمعت كل مشاهير العلماء ، فى ثيابهم المزركشة . ولحاهم الطويلة : وهم يحاولون أن يستنبطو لها من عويص المسائل والوسائل . ماعساه يتزلق بها الى الخطأ وينحدر بها الى الخطيئة . فتصمد لهم جميعا فى تؤدة وتأن وكظم للغيظ . فحارت ألبابهم وألباب غيرهم ممن شهدوا جلسات امتحانها .

وفى ذات يوم أخذ العلماء يضيقون عليها الخناق بأسئلتهم اللاهوتية الملتوية . واعتراضاتهم اللفظية المعقدة . وأسانيدهم الروحانية الغامضة فعيل صبرها والتفتت اليهم فى شىء من الحدة ثم قالت :

« أنا لا أعرف الألف من الباء ولكنى أعرف أنى مرسلة من عند الله لتخليص أورليان من بين أنياب الغاصب . وتتويج الملك فى ريمس . وماعدا ذلك من مسائلكم التى تناقشونى فيها ضائع بلا جدوى ... »

ولا غرابة اذا عيل صبرها فقد كانت تجلس الساعات الطوال ، تتلقف السؤال من هذا ، وترد على ذاك ، من غير أن يتخلل الوقت فترة استراحة ، أو تبرح مكانها لتلاحق الأسئلة عليها ، بينما كان

قضاتها اذا تعبوا تسللوا الى الخارج للاستجمام ، وخلفوا بعضهم يسأل و يناقش الفتاة المسكينة ، ومع كل هـذا لم تتململ او تضعف ، وقلما بدت عليها إمارات الغيظ . ثم انها تخرج ، مع ذلك ، من المناقشة ظافرة دائما .

وفى يوم سألها سجوان الدومنيقى سؤالا جعل كل السامعين يرهفون آذانهم الى ردها ، وظن البعض انها سوف تحير جواباً ، وأن الحجة ستلزمها ، ونبوء بعد ذلك بالفشل . بدأ الداهية سؤاله فى نعومة ظاهرة :

— تؤكدين أن الله يريد ان يخلص فرنسا من الاستعباد الانجليزى ؟

— نعم . يريد الله ذلك .

— وتريدين جنوداً على ما أعتقد لـكى تخلصى بها اورليان ؟

— نعم . والخير فى ان يكون ذلك سريعا .

— إن الله قادر على شىء ، وقادر على أن يفعل ما يشاء . أليس كذلك ؟

— بكل تأكيد . ما فى ذلك شك

وهنا رفع الماكر رأسه فجأة ، وقذفها فى زهو وقوة بالسؤال الآتى :

إذن نبئيني . إذا كان الله قد أراد تخليص فرنسا . وهو قادر على على فعل ما يريد فلماذا إذن تحتاجين للجنود .... ؟

ولم يكد ينتهى هذا الكاهن من سؤاله حتى ضج المكان بالحركة واشرأبت الأعناق ، وأصاخت الآذان . لكى يسمعوا جوابها وقد ظنوا أنها سوف يرتج عليها وقد استدرجها السائل حتى أوصلها إلى مأزق . وبينما كان يهز رأسه إعجاباً بنفسه ، ويرى أمارات الاستحسان على الوجوه ، كانت جان رابطة الجأش هادئة ، وأجابت فى نغمتها الحازمة التى أصبحت مألوفة عنها : « يا هذا إن الله يساعد من يساعد نفسه ، وعلى أبناء فرنسا أن يقوموا بأعباء الحرب وهو يؤتيهم النصر من عنده .... ! »

فأخذت الحاضرين هزة إعجاب ، حتى أن السائل نفسه لم يستطع إخفاء إعجابه ودهشته من الرد المسكت الذى أفحمته به .

وفى مرة أخرى ضاق بها قضاتها ذرعا ، ورأى أحدهم وهو سجوان الفرنسسكانى أن يختصر عليها وعليهم طريق المناقشة ، فقال لها وهو يحاورها :

— إن الله يقضى ألا نصدقك حتى تجيئى لنا بمعجزة . فأين هى ؟
فاستشاطت غضباً ، وانتفضت قائمة ، وقالت فى حدة :

— « ليست «بواتييه» مهبطاً للمعجزات ، ولم أجىء اليها لكى أقوم

بمعجزات . . أرسلوني إلى أورليان وهناك ترون المعجزات حقا . واعطونى من الجند كثيراً أو قليلا . . . ودعونى أرحل . »

قالت ذلك فى إخلاص وحماسة . فعلا ضجيج القوم بهتفات الاستحسان وصيحات التأمين .

وبقيت جان ثلاثة أسابيع كاملة ، وفي بعض الروايات تسعة أيام فقط ، وهى تناقش وتحاور ، وكانت طيلة هذه المدة تنزل فى بيت « دام دى راتابو Dame de Ratabeau » زوج أحد أعضاء « برلمان » بواتييه . وكان هذا المنزل وقت نزول جان فيه ، محط رحال كبار القوم ، رجالا ونساء ، يقصدون إليه لكى يتحدثوا معها ، وينصتوا إلى صوتها العذب ثم يخرجون وقد سحروا بحلو حديثها ، وقوة إيمانها .

وفي آخر الأمر كسبت جان المعركة ، واضطر قضاتها إلى أن يحكموا بالأجماع لمصلحتها . وإليك نص حكمهم :—

« لقد تحققنا وبهذا نعلن أن جان دارك المعروفة باسم « العذراء » مؤمنة صادقة الأيمان ، وكاثوليكية سليمة العقيدة ، ولا شىء فى شخصها أو لفظها يخالف الدين . وواجب الملك أن يتقبل ما تعرضه عليه من المساعدة ، لأنه إذا رفض معونتها حرم نفسه معونة الله ... »

وقوبل الحكم بهتاف الاستحسان المتواصل ، وأقبل الجمع الحاشد فى شغف وحماسة على جان مهنئين معجبين بما نالت من نصر وفخار .

وفى ذلك الوقت عادت بعثة الرهبان، التى كانت قد أوفدت إلى موطن جان تبحث وتنقب فى نشأتها، وأعلنت أن صفحة جان فى موطنها، من يوم ولدت إلى يوم سارت قاصدة حاكم فوكولير وإلى يوم خرجت من فوكولير قاصدة «شنون» نقية، ناصعة، طاهرة لايشوبها أدنى غبار.

وبقى بعض الموسوسين يشكون فى مطابقة تزيى جان بزى الرجال لأصول الدين وتقاليده، ولكن اثنين من العلماء، وكان أحدهما عميد جامعة باريس فيما مضى، أفتيا بأنه لا جناح عليها فى ارتداء زى الرجال لأنها تقوم بعمل الرجال، والعدل يقضى أن تتزيى بزيهم ما دامت تعمل عملهم ... إلى هنا، وبهذه الأحكام وتلك المباحث، بلغت جان ذروة النصر الأدبى لنفسها. ولم يبق أمامها إلا أن تحقق النصر المادى لبلادها ومليكها.

فى سبيل النصر

دوى حكم بواتييه فى الأرجاء ، وبعث روحا جديدة فى كل مكان . وانمحى كل شك فى صدق جان .

وحملت الرسل نبأ الحكم إلى الملك فكان جوابه الذى ما كان يملك سواه أن أصدر أمره بتعيين جان « قائدا عاما للجيش » وعين دالنسون رئيس أركان حرب لها .

جان فتاة دومريمى ، الوديعة ، تصبح القائد العام لجيش فرنسا ! ويصير أحد أمراء البيت المالك رئيس أركان حرب لها ! لَحَقّ تلك إحدى المعجزات .

وقبل أن تبرح جان بواتييه . أملت بلاغا يرسل إلى القائد العام الانجليزى ، تدعوه فيه إلى مغادرة البلاد وتسليم الحصون . وإن لم يفعل حاق به الويل والخسران العظيم .

وأمر الملك بأن يصنع لجان شكة كاملة من السلاح الأبيض عند أحد مشهورى القيون فى مدينة « تورز Tours » وأن يكون من أفخر صنوف الصلب المموه بالفضة المحلى بالنقوش ، وأن يكون من الصقل كالمرآة اللامعة . وأمرت جان أن يصنع لها علم خاص قالت إنها تلقت أوصافه من القديسين ، وذلك أن يكون من الكتان الابيض تنقش

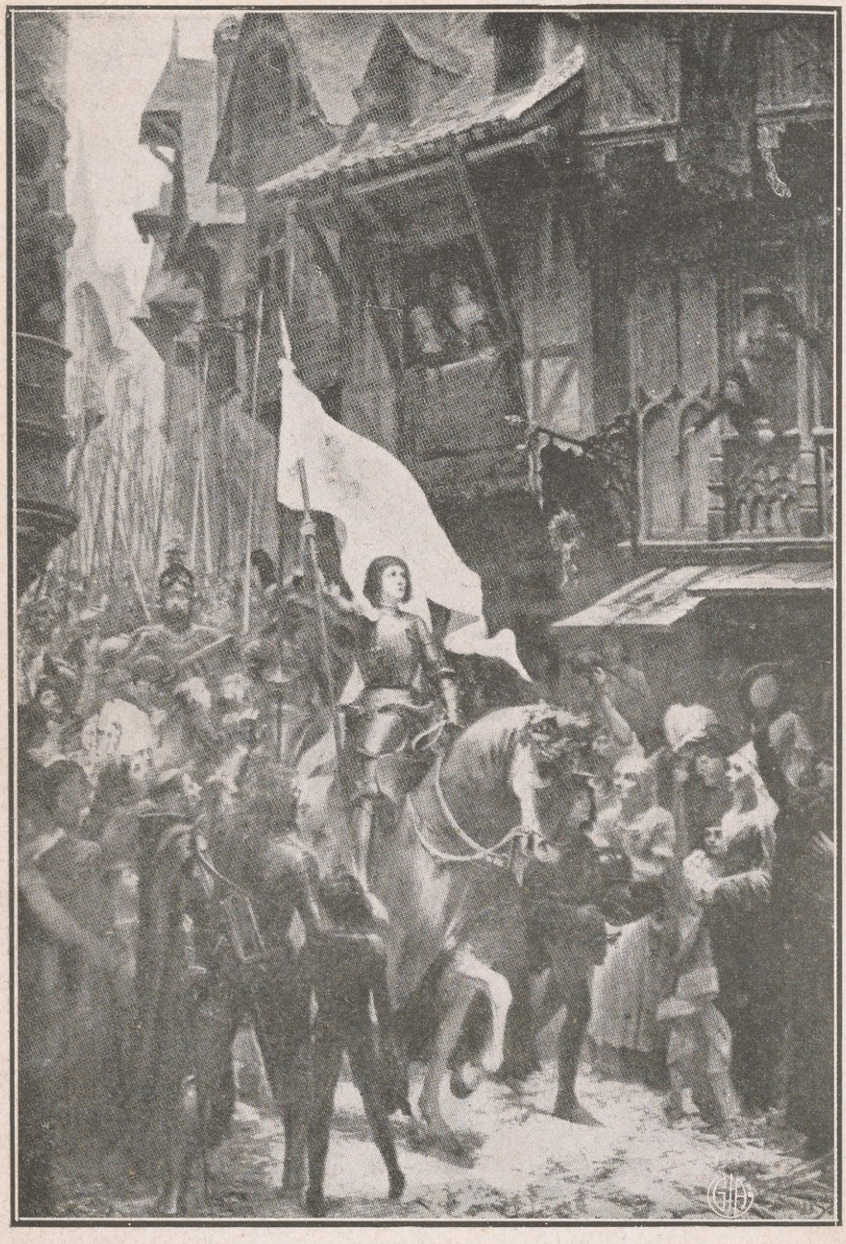

دخول جان دارك إلى أورليان

عليه زهرة الزنبق رمز المملكة ، وصورة المسيح يحمل الدنيا فى يده ، وعلى جانبيه شكل الملكين الحارسين ، ثم ينقش عليه إسم « يسوع ومريم » . وأمرت كذلك بصنع علم صغير آخر تنقش عليه صورة ملاك يقدم زهرة الزنبق للعذراء مريم .

وأراد الملك أن يقدم لها حساما ولكنها أرسلت فى طلب آخر كان مخبوءاً فى كنيسة « سنت كترين دى فيير بوا » لم يكن يعرف مكانه أحد من قبل . وقيل فى تعليل ذلك إن « أصواتها » هى التى أرشدتها إليه . أو أنها لابد وأن تكون قد سمعت به فى أثناء مرورها بذلك المكان، عندما كانت فى طريقها من فوكولير إلى الملك، فقد استراحت قليلا فى فيير بوا وزارت كنيستها .

ووجدت الرسل الحسام حيث وصفت جان . وفي « تورز » صقل وأزيل عنه الصدأ . وتناقلت الألسن خبره فكان معجزة أخرى لها .

وتبرع أحد صناع « تورز » بإعداد غمدين للسيف ، أحدهما من القطيفة الخضراء ، والآخر من القماش الذهبى لكى تستعمله فى أيام المهرجانات الكبرى . ولكن جان آثرت أن يعد لها قراب من الجلد اكتفت به دون غيره .

وأرادت أن تبادر بانقاذ أورليان وإسعافها ، فاتخذت « بلوا Blois » قاعدة لها تجمع فيها المؤنة والذخيرة ، ومنها تسير إلى أورليان التى

كانت تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام بمعدل إثنى عشر ميلا فى اليوم.

وإلى « بلوا » قصدت جمهرة المتطوعين ، وزمر المجندين ، جاءوا إليها فى تحمس عظيم ، ينشدون أهازيج الفرح والسرور ، وتأخذهم نشوة الغبطة بالعمل تحت لواء جان . . .

وأرسلت جان القائد « لاهير La hire » إلى «بلوا» ليتولى إدارة الشئون العسكرية ، وإعداد المعدات الحربية ، والمساعدات المادية التى أخذت تنهال على المكان منذ اتخذته جان مستودعا تجمع فيه عدتها للحرب والقتال .

وبعد أن أتمت استعدادها الحربي فى « تورز » ، قامت في جحفل لجب ومعها دالنسون ، قاصدة إلى « بلوا » لكى تشرف على الجيش المحشود فيها .

وفى « بلوا» وجدت جان أن الحركة الحربية قائمة على قدم وساق . ولكنها لاحظت أن كثيراً من الموبقات فاشية بين الجند ، وأنهم كانوا إلى الفوضى الذين لا يعرفون نظاما ، أقرب منهم إلى الجيش المنظم . رأت البغايا على عادة ذلك الزمن ، تسير مع الجيش جنبا إلى جنب ، كما رأت الفسوق والمعاصى تغشى الجند بشكل مروّع . فاستدعت « لاهير » إليها ، وكان رجلا ضخما ، مدججا بالسلاح من فرعه إلى قدمه ، إذ كان من القواد العظام ، وألقت إليه بأوامرها من

وجوب بث روح النظام ووقف العربدة الخارجة عن الحد، والقصد فى الشراب وطرد العاهرات. وأن يطهر كل مجند نفسه بالاعتراف أمام قسيسه. وأن يحضر المجندون جميعاً الصلاة كل يوم مرتين. فهال «لاهير» ماتأمر به جان. وهو المستهتر الذى لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا ارتكبها. وأحس كأنها تطلب مستحيلا فالجيش جيش والكنيسة كنيسة! وما يفرض هنا لا علاقة له بما يفرض هناك! أللحرب نذهب أم للصلاة! كل هذه الهواجس مرت سراعا بخاطر «لاهير». وجان تلقى إليه أوامرها. وظن أنه يستطيع تحويلها عما تأمر به. فخاب ظنه ووجدها فى حزمها الشديد لا تقبل هوادة ولا لينا فيما تراه مخالفا لعقيدتها فاضطر أن يصدع بالأمر. وفى ثلاثة أيام صار المعسكر كأنه خلق جديد. تقام فيه الصلاة فى مواعيدها. واختفت النسوة الساقطات. وكبح جماح لاهير وخمدت فيه جذوة الفساد. وكسرت حدة نفسه المولعة بالشر، وأخذ يروضها على المبادىء الجديدة التى بثتها جان فى الجيش.

ومكثت جان في بلوا ثلاثة أيام ولما استوثقت من كل شىء أمرت بالسير قدماً الى أورليان.

ويحسن قبل أن نصف ما حدث أن نبين موقع أورليان وما أقيم حولها من حصون... كانت أورليان على الشاطىء الأيمن لنهر اللوار، وكان حولها سور عليه عدة قلاع. وكان عدد سكانها فى ذلك الوقت

نحو عشرين ألف نسمة ، وكانت تبلغ فى امتدادها على النهر نحو ثلاثة ارباع الميل . وكان يصل ما بين ضفتى النهر امام المدينة جسر ذو تسع عشرة قنطرة. وفى آخر الجسر من الجهة الجنوبية قلعة تسمى «لى تور يل Les tourelles »

ولما جاء الأنجليز يحاصرون المدينة أسرع أهل أورليان بهدم الجزء الجنوبى من الجسر ليحولوا دون دخول الأنجليز منه ، فاستولى الأنجليز على القلعة المتقدمة ، وحفروا أمامها خندقا وسلطوا عليه ماء النهر . ثم أقاموا على الخندق جسرا يفتح و يغلق عند الحاجة . ثم بنوا قلعة على مقربة من الجسر ، مع أن القلاع المعروفة باسم « لى أوغسطنيان Les Angustinian » كانت على مقربة منه . وأنشأ الانجليز حول أورليان حصونا أخرى كثيرة ، كان أهمها أربعة حصون هى سنت لورنس « St,-Laurence » غرب المدينة وعلى مقربة من النهر لكى تحرس طريق بلوا Blois ، وحصن « باريس » لكى يحرس طريقها ، وحصن « لى أوغسطينيان » الذى كان يحرس طريق الجنوب . وقبيل مجىء جان دارك كان الانجليز قد أتموا بناء حصن أطلقوا عليه إسم « سنت لوب St Loup » إسم الضاحية التى بنى فيها ، وذلك لكى يحرسوا الطريق من الشرق . وكان يتخلل تلك الحصون معاقل كثيرة تشبه سلسلة متصلة . ولكن بالرغم من تلك المعاقل التى

أقاموها لم يكن جيشهم المحاصر للمدينة كافيا لمنع المدد والمؤنة عن المدينة منعاً تاما . ولم تكن قواهم المبعثرة بين الحصون العديدة تكفى لصد جيش كبير يأتى لنجدة المدينة . وعند ماجاءت جان لنجدتها ، كان الانجليز ينتظرون مددا ، يبلغ ستة آلاف مقاتل ، قادما إليهم تحت قيادة سر جون فولستاف Sir John Falstaff

تلك كانت حال أوليان عند ماكانت جان تعد الجيش فى « بلوا » لانقاذها وكان قد مضى عليها وهى تحت الحصار ما ينيف على ستة شهور . و كانت مؤنتها قد أوشكت على النفاد وكان سقوطها فى أيدى الانجليز — لو استمرت على ما كانت عليه — أمراً محتوماً . وأورليان كما أشرت آنفا ، كانت المدينة الوحيدة الهامة الباقية فى يد شارل ولى عهد فرنسا ، وكانت فوق هذا مفتاح الجنوب كله ، أى أن سقوطها كان معناه القضاء الأخير على مملكة فرنسا ومحوها من عداد الممالك المستقلة . وبلغ من ثقة الانجليز في ذلك الوقت بوقوعها فى أيديهم ، أنهم كانوا يتوعدون شارل بارساله إلى المستشفى قريباً ولكن :

تقفون والفلك المسخر دائر وتقدرون فتضحك الأقدار

فقد بعثت جان دارك !

قلنا : إنها بعد أن مكثت فى بلوا ثلاثة أيام ، واستوثقت من كمال

العدة والعتاد، أمرت الجيش بالمسير . وأن يسير رأساً على السيف الأيمن للنهر أى الضفة التى تقع عليها أورليان .

ولكن قواد الجيش خدعوها وساروا بها من الطريق الجنوب الذى أوصلها تجاه أورليان على الضفة اليسرى . ولما تبينت جان ماوقع إستشاطت غضباً . ولما عبر « دنوا Dunois» القائد المحلى ، الذى كان يتولى الدفاع عن أورليان ، النهر لملاقاتها سألته فى شدة وحزم : « من المسئول عن تلك الخطة ؟ » فأجابها بأن القوّاد « الخبيرين » هم الذين قرروا ذلك . (معرضا بعدم خبرتها بفنون الحرب ،) . فقاطعته قائلة « إن الذين يرشدوننى لأحكم وأعظم خبرة من قوادك . . . فكرتم فى خديعتى . . . ولكنكم فى الواقع ما خدعتم إلا أنفسكم ، لأنى جئتكم بعون الله وتأييده ، فهل لديكم أكبر من عون الله مددا . . . ؟ »

ولكنهم لماذا خدعوها ؟ أليست هى القائد العام ؟ ألم تجمع لهم بتأثير وجودها جيشا متحمسا توّاقا للنصر وقد يئسوا قبل مجيئها من تكوين جيش يصد العدو المغير؟ ألم يأمرهم الملك عندما ولاّها القيادة العامة ، بعد فوزها فى بواتييه ، بألا يعصوا لها أمراً ، أو يحاولوا شيئاً من غير علمها ؟

هذه أسئلة تجول ولا شك فى خاطر القارىء . والاجابة عنها قد لا تخفى عليه إذا تأمل فى حقائق الموقف من وجوهه المختلفة

القواد العسكريون فى كل زمان ومكان يرون الحرب فنا تخفى طرائقه وأصوله على غيرهم من « المدنيين » بالغة ما بلغت كفايتهم وعبقريتهم بل « وقداستهم » فى غير ذلك من الشئون . جان تستطيع أن تخاطب القديسين ، وأن تسمع أصواتهم ، وأن تقنع رجال الدين بصدق إيمانها ، وأن تؤلف قلوب الشعب حولها ، وأن تبدلهم من يأسهم وقنوطهم ثقة وأملا بأقوالها وأفعالها . ولكن محاولتها أن تقنع رجال الحرب برجحان خطتها على خطتهم ، وفهمها لظروف الموقف الحربى على فهمهم ، أمر لم تكن عقولهم مستعدة لقبوله ولو من قديسة متصلة بالسماء .

رأت جان أن تسير نحو أورليان من الضفة اليمنى ، فكأنها شاءت أن تواجه الانجليز فى حصونهم ، وأن تخترق قواتهم فى « بوجنسى Beaugency » وفى « مونج Meung » الواقعتين على الطريق قبل الوصول إلى أورليان حيث معسكرهم العام وحصونهم التى تحرس الباب الغربى من المدينة . خطة صريحة تتلخص فى مقابلة الانجليز وجها لوجه ، والقضاء على قواتهم ، فى المعسكر وفى الحصون ، قبل أن يجىء اليهم المدد . هذا ما أمرت به جان ، أو بعبارة أدق نتيجة ما كان محققا وقوعه لو نفذ القواد أمرها على ظاهره .

فلما أمرت جان بالسير في هذه الطريق ، تظاهر القواد بالطاعة ولكنهم تداولوا سرا فى الأمر ، وقر رأيهم على أن ما تطلبه جان

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

هو من قبيل الأمر بالقائهم فى التهلكة ، وتهامسوا فيما بينهم بذكر خطأ « القائد العام » ! ! وما فيه من حماقة وجنون ..... !

لم يكن مستغربا من قواد فرنسا أن يحجموا عن مواجهة الانجليز لأنهم ألفوا الهزيمة على أيديهم فى الخمسين سنة الأخيرة دحروا فى « كرسى Crecy » وأخذ ملكهم أسيرا ، أبيد جيشهم في « إجنكورت Agincourt » الشهيرة ، ولوا الأدبار فى كثير من المواقع ، وفقدوا الروح المعنوية أى الثقة بأنفسهم حتى كان مجرد رؤية الأنجليز كافيا لأن يجعلهم يولون الأدبار . بل لقد بلغ الهلع من نفوسهم أن اعتقدوا أن هؤلاء « Goddams الملاعين » ، وهى اللفظة التى كانوا يطلقونها على الانجليز ، هم من الشياطين او زبانية جهنم ذوى الذيول الحمراء ، لا يستطيع البشر صدهم عن الشر والخراب ... تلك كانت عقيدة عامة الجيش الفرنسى فى الانجليز، فى ذلك الزمن ، وليس أدل على فساد روح الفرنسيين من اعتراف قائدهم « دنوا » عند ما كان يؤدى شهادته في قضية « رد اعتبار جان » كما سيأتى بيانه ، من أن مائتين من الانجليز كانوا كافين لمطاردة ثمانمائة أوألف من الفرنسيين فى ذلك الوقت . وإن قوما فقدوا الثقة بأنفسهم إلى هذا الحد ، ما كان ينتظر منهم أن يفعلوا مع جان التى أمرتهم بمواجهة الانجليز غير ما فعلوا . لم يستطيعوا مخالفتها جهرا ، فتآمروا على خديعتها سرآ ، وساروا بالجيش في غير الطريق التى رسمتها له .

وفى الواقع أن القواد كانوا مخدوعين فيما فعلوا لا خادعين . بل حمقى طائشين . إذ لم يكن هنـاك أدنى فائدة حربية أو غير حربية من السير بالجيش والمؤن على الضفة اليسرى للنهر ، وهم يعلمون أن الجسر الوحيد الموصل للمدينة فى قبضة الانجليز . و يعلمون أن السفن لديهم لم تـكن كافية ، ولا قادرة على مقاومة تيار النهر ، وتيار الريح ، وحمل الجيش والمؤنة إلى المدينة . وماذا تـكون إذن فائدة الجيش ومؤنه اذا ماوصل قبالة المدينة التى يفصلها عنه نهر لا يملك وسائل عبوره !؟

وأعظم ما غفل عنه قواد ذلك الزمن أنهم لم يقدِّروا الأثر الذى أحدثته جان ، بوجودها على رأس الجيش ، في الطرفين المتقاتلين . أما الأثر فى الانجليز فقد كان عظيما وعظيما جداً فقد اعتقدوها « ساحرة » تفعل بسحرها الأعاجيب ، وتستطيع أن تقذف بهم الى الجحيم وكان لهذا الاعتقاد أثره فى روحهم المعنوى الذى مكن لهم من كسب الحروب السابقة . وأما أثرها فى الفرنسيين فكان أجل وأعظم فهى « قديسة » تتلقى الوحى من السماء وتفعل ما تفعل بأذن الله ، فاندفعوا وراءها مؤيدين مناصرين فى حماسة ويقين أنساهم الجبن والخور ، وجعلهم يتلهفون الى الفوز والظفر . غفـل القواد عن هـذا التغيير فى نفسية الجيش ، وتباحثوا وهم أسرى لما ألفوا ، أعداء لما جهلوا . فباءوا بالحماقة والطيش ، ونقلوا الجيش على غير هدى إلى حيث لا يستطيع عملا .

ويجمع كل من كتب فى أمر جان على أن خطتها كانت المثلى ، وأن

القوم لو جروا عليها لفازوا فوزا كبيرا ، وأن الأنجليز ما كانوا يستطيعون وهم قلة غلبها الوهم أن يخرجوا من حصونهم أو معسكرهم لو مرّت جان بجيشها كما رسمت .

إذن كان حقا ماوجهته جان من اللوم للبستارد (١) Bastard «النغل» دنوا قائد أورليان عندما عبر النهر لمقابلتها .واضطرهو ومن معه أن يروا خطأهم فى السير بالجيش على الضفة اليسرى .

ولما اعترفوا بالخطأ قالت جان « أما وقد وقع الخطأ فالله وحده القادر على تعويضنا عنه خيراً . لو أن الريح تغير اتجاهها بحيث يمكن للسفن الموجودة أن تسير ضد التيار ، إذن لأمكن أن نجد لنا مخرجا من هذا المأزق . وقدأجاب الله دعاء جان وتغير اتجاه الريح فجأة فحملت السفن المؤنة وسارت بها الى « تشسى Chécy »وهى قرية تبعد خمسة أميال شمالى أورليان ، لكى تنقل منها برا إلى أورليان . وكان المقصود من ذلك أن يكون دخول المؤنة من « باب برجندى » إذ أنه كان الباب الوحيد الذى لم يكن الأنجليز قد أكملوا سده بالحصون . ولأن قلعتهم المجاورة « سنت لوب » لم يكن فيها أكثر من ثلثمائة جندى وهؤلاء كان يمكن تخطيهم . ولما تغيرت الريح فجأة كما أشرنا اعتقد « دنوا » أنها كرامة لجان ، وسلم لها من بعدها تسليما تاما ، ولم ينس طول حياته ذكر تلك الكرامة .

---

(١) كان يعرف « دنوا » بلقب Bastard of Orleans

وبعد أن سارت السفن تمخر عباب النهر بالمؤنة ، عبرت جان النهر ومعها نحو مائتين من حملة الرماح، وقضت ليلتها فى «ريلى Reilly» فى بيت رجل صالح يدعى «جوى Guy» . قيل عنه أنه هو الشخص الوحيد الذى سمح له برؤية القديسيين الذين يخاطبون جان .

وبعد غروب شمس اليوم التالى بساعة واحدة تقريبا «الجمعة ٢٩ ابريل سنة ١٤٢٩» قصدت جان ومعها دنوا إلى أورليان . وحوالى الساعة الثامنة مساء دخلت جان أورليان من «باب برجندية» ممتطية جوادها الابيض تحمل سيف فييربوا المشهور ، ومن حولها القواد ، ومن ورائها حملة الرماح . ويمكن للقارىء أن يصور لنفسه أورليان وجان تدخلها لأول مرة !!! جان التى جاءت إليها تسعى من اللورين لانقاذها من العدو المحاصر الذى أجاعها وأذلها وأوشك أن يقضى فيها قضاءه الأخير . جاءتها جان رسولة من عند الله تتلقى الوحى من ملائكته وقديسيه !!! إن أدق المؤرخين وصفاً ليعجز عن إبراز صورة إستقبال أورليان لجان دارك أول مرة ، فقد خرجت المدينة بأسرها تتزاحم حولها ، وتخفق قلوبها ، ويحرص كل فرد من أفرادها على اجتلاء محيا القديسة القادمة . وخير لى أن أترك لكل قارىء تصوير الموقف لنفسه وأنا واثق أن صورة الاستقبال التى سترتسم فى ذهنه ستكون أقرب إلى الواقع من محاولتى إبراز صورة لما حدث بالكتابة أو التورط فى وصف ما كانت تهتز له قلوب

الشيب والشبان ، و الفتيات والفتيان . الذين خفوا لاستقبالها ، أو محاولة وصف قرع الطبول ، ودقات النواقيس وتلويح الأيدى ، وحملقة العيون ، وتقبيل الأقدام . لابل وتقبيل الأرض التى سار عليها الجواد الذى كان يحملها ... !

كان يوم جان فى دخولها أورليان على حد تعبير أحدهم « كيوم الحشر » فصور لنفسك أيها القارئ يوم الحشر فى أورليان وعلى طريقة أهل القرون الوسطى . سارت جان ولا ندرى كيف سارت وسط الكتل البشرية التى تحمل المشاعل بأيديها إلى كنيسة أورليان حيث صلت صلاة الشكر لله وللقديسين ، ومن الكنيسة سارت إلى البيت الذى اختير ليكون مقرا لها ؛ بيت جاك بوشيه «Jacques Boucher» أمين دوق أورليان .

وقضت المدينة ليلتها فى حلم مستمر إلى الصباح .

أما الانجليز عند دخول جان المدينة ، فقد وجموا ولزموا قلاعهم مأخوذين مذعورين مما سيجيئهم به الغد ....

وفى صباح اليوم التالى ، أى يوم السبت ٣٠ ابريل سنة ١٤٢٩ ، بدأت جان تعمل ماجاءت من أجله ؛ وكان أول أعمالها أنها أرسلت تبحث عن الرسول الذى بعثته يحمل للانجليز بلاغها النهائى الذى أملته فى بواتيه والذى أرسلته لهم من « بلوا » كما اسلفنا فلم تعثر له على أثر .

و لما كان بلاغ جان إلى الانجليز من أهم و ثائق حياتها الخالدة التى يتجلى فيها روحها العالى ، وصراحتها البريئة الطاهرة ، و إيمانها الراسخ برسالتها ، و بانتصار حق بلادها على باطل أعدائها ، رأيت أن أثبته هنا بنصه (١) و إليك هو :—

« إلى ملك انجلترا ، و إليك أنت يا دوق بدفورد المتسمى وصياً »
« على فرنسا ، و إليك يا وليم دلابول إرل سافولك ، و ياجون لورد »
« تالبوت ، يا من تسمون أنفسكم وكلاء دوق بدفورد ، أطلب منكم »
« باسم ملك السموات أن تردوا الحقوق إلى أهلها ، وأن تسلموا »
« للعذراء المرسلة من عند الله مالك السموات مفاتيح كل البلدان »
« التى استوليتم عليها واغتصبتموها من أرض فرنسا . لقد جاءت »
« العذراء بأمر الله لكى تنقذ الدم الملكى ، وهى مستعدة للسلام ، »
« على شريطة أن تجروا معها على سنن الحق بأن تنصفوا فرنسا »
« وتردوا لها ما أخذتم

« وأنتم أيها المحاربون ، أشرافا كنتم أو من عامة الشعب ، الذين »
« تتصدون لأورليان ، أطلب منكم باسم الله أن ترحلوا إلى بلادكم . »

« يا ملك انجلترا ، إن لم ترحل فتقضى ما أطلب منك ، فاعلم أنى »
« قائد حربى ، و بهذه الصفة سأطارد رجالك أينما وجدتهم فوق »

---

(١) وجدت ثمان نسخ اصلية منه محفوظة فى دار المحفوظات بباريس

« تربة فرنسا ، فمن أبى واستكبر كان جزاؤه القتل ، ومن أطاع »
« ورحل عفوت عنه

« ولا تعتقدن أنك ستملك فى فرنسا شروى نقير . كلا ! إن »
« الله قسمها للملك شارل الوارث الشرعى لها . هذه هى إرادة الله .»
« وقد أبلغتها العذراء إليه . وسيدخل باريس ظافرا منصورا . فاذا »
« لم تصيخوا الى كلام الله المرسل لكم على لسان العذراء ، فستزلزل »
« الأرض تحت أقدامكم أينما وجدتم ، وستحاربكم حربا لم تروا لها »
« مثيلا من آلاف السنين . ويومئذ تعلمون من منا يؤيده الله رب »
« السموات والأرض ... »

لم يرد الانجليز على هذا البلاغ بل خالفوا الأصول المرعية فى ذلك الزمن ولم يعيدوا الرسول الذى حمله اليهم . فأرسلت اليهم من أورليان رسولين بانذار جديد تطلب منهم فيه فك الحصار والرحيل وأطلاق رسولها الأول . فعاد الرسولان يحملان اليها إنذارا من الانجليز بأنهم « سيحرقونها اذا وقعت فى أيديهم ، وأنه خير لها والفرصة سانحة أن تعود الى قريتها ترعى الغنم ... » فكلفت جان الرسولين بالعودة اليهم بشرط جديد وتحد بديع . قالت فيه للورد تالبوت قائد الانجليز العام « أخرج من قلاعك بجيشك وأخرج لك بجيش ، فاذا غلبتك فاخرج من فرنسا فى سلام ، واذا ما غلبتنى فاحرقنى كما تشتهى ... »

ولكن الانجليز رفضوا هذا التحدى فلم يكن لديها بد من الهجوم والعمل على رفع الحصار .

وفى يوم الأحد أرسلت « دنوا » ليتولى قيادة الجيش الذى عاد إلى « بلوا » لكى يجئ من الطريق المستقيم . وكانت جان موفقة التوفيق كله فى إرسال « دنوا » لقيادة الجيش من « بلوا » لأن لاتريموى كبير مستشارى الملك أو كبير الخونة هو ورينولت دى شارتر رئيس الأساقفة أرسلا برسلهم إلى الجيش يفسدون فيه ، ويحرضونه على عدم الطاعة لجان فى السير إلى أورليان .

وخرجت جان على رأس قوة صغيرة تقابل دنوا وجيشه ، على بعد عدة فراسخ من المدينة ، لأنها علمت بنية الانجليز فى التعرض للجيش القادم عند دخوله إليها .

ودخل الجيش المدينة ولم يقذف الانجليز عليه قذيفة واحدة ، ولم يخرجوا من قلاعهم لملاقاته . ولا تعليل لذلك إلا إنهم هلعوا لرؤية جان على رأس الجيش ، وخشوا أثر سحرها فيهم ، فقبعوا فى قلاعهم فى انتظار المدد الذى كانوا يتوقعونه قريباً .

وقابلت أورليان الجيش المنقذ بفرح عظيم وحماسة لا توصف ، حتى أن فريقاً منهم دفعته حماسته لمهاجمة الانجليز فى قلعة سنت لوب فردتهم حاميتها . حدث هذا فى وقت كانت فيه جان تستريح فى المنزل

من عناء اليوم ، فأخذتها سنة من النوم ولكنها لم تلبث أن هبت من نومها تقول لرفاقها إن القتال يدور الآن ، ولامت خادمها على تركها تنام . وسارعت إلى جوادها ، وتلقفت علمها ، وركضت ومعها دولون D'Aulon إلى باب المدينة الشرقى إلى أن وصلت إلى سنث لوب حيث كان القتال دائراً كما قالت فاشتركت فيه وسرعان ما سقطت القلعة فى أيدى الفرنسيين وذبح من جنودها وأخذ الباقون أسرى .

وكان هذا أول نصر ناله الفرنسيون ضد الانجليز ... فزادهم حماسة ووثوقاً بأنفسهم بعد أن كانوا يفرون ذعراً فى السنين الأخيرة كلما لاح لهم الانجليز . ومما يجدر بنا التنويه به ، أن جان وجدت بين أسرى القلعة بعض الرهبان ، فأمرت باطلاق سراحهم فى الحال ، احتراماً لصفتهم الدينية . وكان عملها هذا أول عمل من نوعه ، كما كان من أول الأعمال الدالة على صدق إيمانها وعظيم احترامها لرجال الدين .

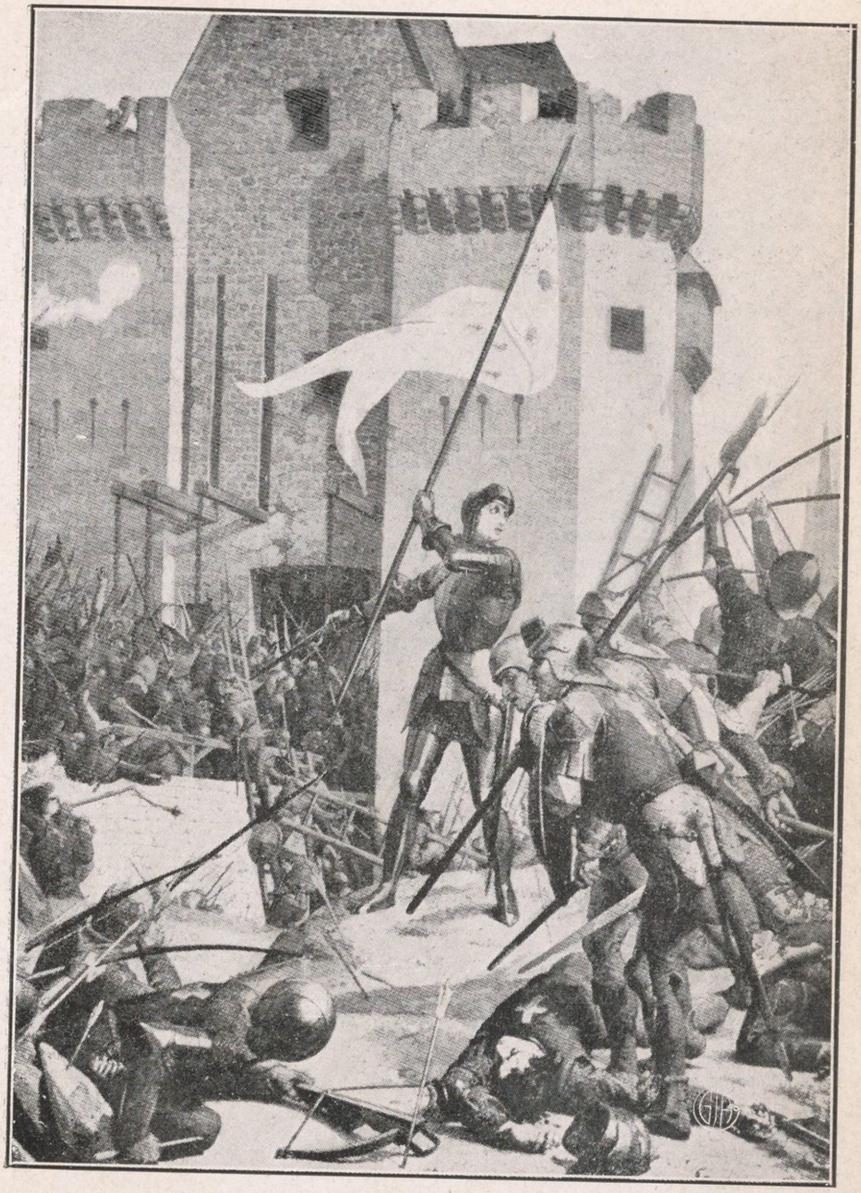

استيلاء جان دارك على قلاع أورليان

رفع الحصار عن أورليان

استولى الفرنسيون بقيادة جان على أول قلعة من قلاع العدو المحاصر . وكان استيلاؤهم عليها أهم حادث وقع منذ بدأ الحصار وأرادت جان مواصلة القتال ، ولكنها اضطرت إلى وقفه فى اليوم الثانى لأنه صادف يوم « عيد الصعود » فلم تشأ أن تدنس حرمة اليوم بالقتال فيه . ولكنها في اليوم الذى يليه بدأت المناوأة ، وخاطرت بالزحف فوق الجسر إلى أن قاربت حصون العدو ، ومن هنـــاك قذفت إنذارا أخيراً على طرف سهم صوبته إلى قلب المعسكر ، فكان رد الذين تلقوه منها أن صاحوا مستهزئين « أخبار من العاهرة ! » . وعند سماعها تلك الكلمة القذرة أجهشت بالبكاء ولكن قديسيها أسرعوا إلى مواساتها وتسرية الحزن عنها .

وخطر للقواد الفرنسيين أن يكتفوا بالاستيلاء على قلعة سنت لوب وأن يتركوا الانجليز للزمن يسلط عليهم اليأس والضجر فيرحلوا . . . سياسة المماطلة والتسويف التى جروا عليها وجرّت عليهم شؤم الخراب وذل الانكسار . ولكن جان أبت إلا متابعة الحرب ، ومواصلة القتال ، لأنها كانت تعلم أن المدد الانجليزى الذى سبقت الاشارة اليه كان على وشك الوصول فلم يكن من الحكمة ترك العدو حتى يصل اليه المدد . وبعد حوار طويل تغلب رأى جان على رأى القواد . وفي

الحق أن الذى تغلب هو أصالة الرأى على الخطل . وقام الفرنسيون يغيرون ما بهم من تردد و إحجام إلى هجوم واستبسال بفضل تلك الفتاة المملوءة يقينا و إيمانا .

وفي صباح يوم الجمعة ٦ من مايو ، عبرت جان ومعها الجيش الى الضفة اليسرى لكى تهاجم القلاع الهامة التى تحرس رأس الجسر المؤدى إلى المدينة من تلك الناحية ، فلما رآها الانجليز تعبر النهر أخلوا القلعة الأولى وكانت تسمى « سنت جون » وهى القلعة الوحيدة التى كان يمكنها مقاومة جان وجيشها فى أثناء عبور النهر ، وارتدوا الى القلاع التى خلفها لكى يحشدوا قوتهم فى نقطة واحدة . وتقدمت جان الى قلعة أوغسطنيان Augustinian أولى القلاع الهامة التى تحرس مدخل الجسر ، وقد جمع فيها الانجليز أمدادا من القلاع الأخرى فلما تقدمت جان خرج اليها رجال الحامية وفاجئوا الفرنسيين قبل أن يتكامل عددهم واضطروهم للفرار .

فلما رأت جان الجند يفرون صاحت فى وجوههم قائلة « لوأن فيكم اثنى عشر رجلا غير جبناء لكفى . اتبعونى ! » فكان لكلماتها فى نفوس الفرنسيين أعمق الأثر وتبعوها . فلما رأى الانجليز جان تتبعها فئة قليلة من الجيش تقبل عليهم ارتدوا مذعورين أمام « الساحرة الملعونة ! »

وهنا عاودت بقية الفرنسيين شجاعتهم لما رأوا جان تطارد الانجليز فخفوا إليها سراعا وعادوا تباعا فلم تكتف جان برد الانجليز إلى حصنهم بل واصلت القتال حتى استولت على الحصن ذاته . وهكذا تفعل القدوة والمثل الحسنة .

وكانت جان تود مواصلة القتال حتى تستولى على أكبر الحصون الباقية المسمى لى توريل ولكن القواد نصحوا بأن ينال الجند فترة من الراحة ، فقبلت جان نصحهم ويظهر أن قبولها هذه النصيحة شجع القواد على أن ينصحوا لها نصيحة أكبر أثرا من تلك وهى أن تكتفى جان بما حدث وأن يقفوا القتال حتى يرحل الانجليز من تلقاء أنفسهم ولكنها أبت عليهم ذلك وعابت عليهم سياسة التردد

وفى صباح اليوم التالى خرجت على رأس القوة قاصدة الاستيلاء على « لى توريل » وهاجمت الحصن . وفى أثناء الهجوم جرحت جرحا بليغاً بين كتفها ورقبتها ، وسال منها دم غزير . فوقعت على الأرض تبكى بكاء مرا . وانتهز الانجليز فرصة إصابتها وتجمعوا حولها قاصدين تمزيقها إربا إربا ولكن الفرنسيين قاوموهم وصمدوا لهم ويقول مارك توين فى أسلوبه البديع « دار القتال حولها على أيهم يستولى عليها وفى الواقع على فرنسا ، لأن جان فى أثناء تلك الدقائق القليلة كانت هى فرنسا للطرفين فمن استولى عليها فقد استولى على فرنسا إلى الأبد

وكانت تلك الدقائق العشر هى أهم الدقائق التى دقتها الساعة فى تاريخ فرنسا كله فى الماضى وفى المستقبل ... »

ليس فى قول مارك توين مبالغة أو إسراف لأنه لو كان قدر لجان أن تقع فريسة فى أيدى الانجليز فى ذلك اليوم ولما يتم عملها أو ترسخ سياستها فى قلوب الفرنسيين لكانت فرنسا قد ضاعت ضياعا نهائياً، وضاعت ملكيتها وقوميتها إلى الأبد لأن معاهدة « تروى » كانت تنفذ إذ ذاك بحذافيرها، وتضم فرنسا إلى إنجلترا. (ولو كنت فرنسيا لقلت) ولكن الله سلم.

وتمكن الفرنسيون من نقل جان إلى خارج المعمعة، ودهن جرحها بالزيت وضمد، وكانت « أصواتها » قد نبأتها من قبل بهذا الجرح وبمكانه، وكانت جان قد أعلنت هذا لمن حولها قبل الخروج للموقعة، ويلاحظ أنه وإن كانت جان قد حاربت حرب الأبطال إلا أن ذلك لم يمنعها من أن تبكى بكاء الأطفال وكان من الطبيعى لمثلها أن تبكى وتتألم وإن كانت من قبل ذلك تعلم أنها ستجرح فى هذه الموقعة. ولم تدّع جان — كما ذكرت آنفاً — فى يوم من الأيام، من ساعة اتصالها بالقديسين فى دومريمى إلى ساعة حرقها فى ساحة الاعدام، أن لها قوة خارقة تستطيع بها دفع الأذى مهما كان مصدره، ولكن كل ما اعتقدته أنها كلفت أمراً خاصاً ببلادها وكان عليها

نفاذه . وقد ادّعى كثير من معاصريها أن لها معجزات ، واعتقدوا فيها ما شاءت لهم أوهامهم أن يعتقدوا ، ولكن جان صانت لسانها وعملها عن الدعوى ، وقالت ما قالته وعملت ما عملته كأنه أمر طبيعى لا خوارق فيه .

واستمر القتال بعد جرح جان ولكن اعتراه الفتور من جانب الفرنسيين لأنهم انزعجوا من جرحها . ولما قارب المساء صدر أمر « دنوا » بوقف القتال ، فقامت جان وكانت قد استردت شيئاً من قوّتها وسارعت باصدار الأمر بالاستمرار ومواصلة القتال . وكان ظهور جان بين الجند بعد جرحها بمثابة فتيل أشعل من جديد ، فعادوا أشد مما كانوا حماسة ، وتقدمتهم قائلة لهم « عند ما يلمس علمى هذا سور الحصن فالحصن لكم لا محالة » . وبعد قليل شوهد العلم يلمس الحصن ، فاندفع الجند يتسورونه وفتحوا فيه ثغرة دخلوه منها واضطر من بقى فيه من الانجليز إلى الفرار . وغرق معظمهم فى النهر ، وكان بين الغرقى القائد جلاسديل Glasdale الذى قذف جان بتلك الكلمة « القذرة » قبل ذلك بثلاثة أيام .

وبالاستيلاء على لى توريل أصبح الجسر فى قبضة الفرنسيين وعبرت جان الى أورليان من على الجسر كما وعدت أهل المدينة فى الصباح عند ما كانت تعبر النهر لقتال العدو .

وفى صباح يوم ٩ مايو سنة ١٤٢٩ لم يبق للانجليز أثر أمام أورليان فقد ارتدوا عنها مقهورين ، وتركوا مؤنهم وذخيرتهم اذ لم يجدوا متسعاً من الوقت لنقلها أو اتلافها ، وولوا عنها مدبرين . وهكذا رفع الحصار عن أورليان فى أربعة أيام بعد أن دام سبعة أشهر كاملة . وكان رفعه على يد تلك الفتاة العجيبة المدهشة .

وخرجت أورليان تستقبل جان في عودتها اليها بعد النصر : خرجت تهلل وتبكى ... والبكاء يكون لفرط الفرح كما يكون لفرط الحزن . بل ومن الفرح ما يكون أكثر استدرارا للدمع : استقبلتها المدينة هاتفة مرحبة « بعذراء أورليان » ومن ذلك اليوم عرفت جان بهذا الاسم وأصبحت تلقب به الى الآن .

والمدهش من أمر هذه الفتاة أنها وهى محفوفة بكل مظاهر الزهو والفخار . وفى حين تتسنم ذروة مجد لم يتح لفتاة غيرها قط . بقيت على طهارة قلبها وبساطة طبعها وعظمة نفسها لم تبطرها أورليان أو تملأ عطفيها زهوا وهى تقبل الأرض بين يديها . بل ذهبت الفتاة من فورها الى فراشها تلتمس الراحة كما يذهب سائر الأطفال الى النوم بعد مجهود يومهم العنيف .

وذكرى يوم ٨ مايو الذى تم فيه النصر لجان لا تزال باقية خالدة تحتفل بها فرنسا فى كل عام احتفالا شعبيا وعسكريا غاية في المهابة

والجلال . ولن تمحى ذكراه أبد الدهر . فهو يوم جان العظيم ، يوم كسر شوكة الأجنبي وخذلانه والقضاء على سيطرته على أرض الوطن .

قلنا ان اللورد « تالبوت » قائد القوات المحاصرة خرج ومن بقى معه فى فجر اليوم التالى لاندحاره (٩ مايو) لا يلوى على شيء . وخرج أهل أورليان الى الحصون الانجليزية وحملوا كل ما فيها من مدافع وأسلحة وذخائر ثم أضرموا النار فى القلاع حتى طمسوا أثرها من الوجود . وصلّت جان صلاة الشكر لله فى كنائس المدينة كلها والناس جميعا من حولها . ثم أخذت تفكر فيم تفعل غدا وتركت الناس فى مهرجانهم طول الليل وعكفت هى على التدبير .

وفى فجر يوم الثلاثاء ١٠ مايو غادرت جان أورليان قاصدة الى مدينة تورز Tours حيث كان الملك لكى تبلغه خبر الانتصار . غادرت المدينة والناس من حولها يجهشون بالبكاء تأثراً لفراقها . ولا غرابة في ذلك بعد كل الذى مر بك من فعالها .

فى سبيل التــاج

سارت جان إلى تورز Tours بين صفين من أهل القرى الذين خفوا إلى الطريق الذى ستمر به يحيونها ويهتفون لها . والسعيدالسعيد منهم من استطاع الاقتراب منها يلثم قدمها أو يمسح على درعها . وغلبت الحماسة بعضهم فكان يقبل مواطىء سنابك جوادها .. أليست هى مخلصتهم من تضييق العدو وشدة وطأته ؟

وفى تورز استقبلها الملك استقبال الملكات : رفع لها القبعة عند دخولها ، ونزل من منصة العرش . وكانت قد ركعت أمامه فأخذ بيدها وأجلسها مشفقاً عليها من أجل الدم الذى نزف من جرحها فى سبيل فرنسا ، ثم جلس بجوارها . وفى رواية أخرى أنه خرج لملاقاتها فلما قدمت عليه جان خلعت قبعتها وطاطأت رأسها فرفعها وطلب إليها أن تتمنى ماشاءت وهو الكفيل بمنحها مناها . وهنا علت وجه جان حمرة الخجل وخبأت وجهها بين راحتيها وقد اضطربت لمفاجأتها بالكلام عن المكافأة كأنما كانت تقوم بما قامت به من جلائل الاعمال ابتغاء الأجر وسعيا وراء النفع لاحبا فى بلادها وكراهية لعدوها الغاصب لها ولحقوق عرشها . ولم يدرك الملك لأول وهلة سر اضطرابها فطفق يمازحها فزادها ذلك اضطرابا ، وأسال دمعها مدرارا

وعندئذ تبين الملك سوء ماصنع فحول الكلام الى مجرى آخر ، وجعل يحدثها عن شجاعتها ، ومهارتها فى الاستيلاء على حصون لى تور يل وبعد أن زالت عنها جفلة الخجل ، أو ثورتها النفسية على التعريض غير المقصود بنزاهة غرضها ، عاد الملك يلحف عليها فى أن تقول له عن مكافأة يجزيها بها . وتطلع اليها القوم من حول الملك ينتظرون منها الكلام عما تريده من الهبات والمنح الملكية ، ولشدما كانت دهشتهم عند ما رفعت رأسها قائلة له «أيها الدوفين الكريم ! ليس لى من رغبة فى هذه الدنيا الا أن نتابع النصر ضد الغاصب . وألا نقعد عن متابعته يوماً واحد حتى يخرج من أرض الوطن . هيا بنا الى ريمس حيث نقضى مراسم تتويجك ... »

ولله در هذه الفتــاة ! يفكر الملك فى مكافأتها على انتصارها ، وتفكر هى فى مواصلة الانتصار انجازا لوعدها واتماما لرسالتها . حقاً

إذا كانت النفوس كبارا   شغلتها كبائر الأغراض

وكان بين أورليان وريمس حصون للانجليز ، ومواقع منيعـة ، واقعة على النهر ، بعضها قبل أورليان والبعض يليها . ودونها جسور لعبور النهر يستطيع الانجليز ، اذا جمعوا جموعهم ، أن يعبروا عليها الى أملاك الدوفين ، وأن يستردوا مع الزمن ما يفقدون بالحرب منها طالما بقيت لهم هذه الحصون . ورأت جان ان الحكمة تقضى

بمواصلة القتـال ، وأخذ العدو أخذ عزيز مقتدر وجيشها ثمـل بخمرة النصر ، وروحه المعنوية تحفزه ، بينما العدو مأخوذ وجل . وكان رأى جان هو السداد بعينه ، ليس يمكن تخطئتها فيه ، لا من قواد عصرها ، ولا من قواد أى عصر من عصور الماضى أو الحاضر أو المستقبل . ولـكن ماذا يجدى الرأى الصواب مع ملك هو الضعف ممثلا ، والخور متراثيا ، وفوق هذا وذاك يحيط به جماعة من الخونة الدساسين الذين يجعلون مصلحتهم الذاتية فوق كل اعتبار ولو أدى الأمر الى ضياع العرش والبلاد . وإليك ما رد به الملك على جان وهى تدعوه الى مواصلة القتال والذهاب إلى ريمس لتتويجه ، الأمر الذى بدونه لا يمكن اعتباره ملـكا شرعيا تجب له الطاعة حتى بين أخلص المخلصين له من رعاياه ، لأن مراسيم التتويج فى ريمس ، والمسح على رأس الملك بزيت كنيستها ، صيرتها التقاليد من الأمور المقدسة التى لا يستغنى عنها ملك مهما كان نسبه وحسبه . قال لها الدوفين وهو يحاورها :—

« إلى ريمس ! هذا مستحيل يا قائدى العزيز ! أنسير اليها ونتحدى السلطة الانجليزية فى صميمها ؟ ! »

بهذا الجبن أجابها ذلك الخامل ومن حوله رجال حاشيته يؤيدونه فى تقاعده ، وأصبحت جان « الرجل الوحيد » الذى يجرى فى عروقه

دم الشجاعة والاقدام والوطنية الحقة، فى ذلك الجمع الحاشد . لم يفت فى عضد جان جواب الملك اليائس، أو إيماءات الرضا عن ذلك الجواب من رجال الحاشية بل استمرت تستعطفه قائلة :—

« ألتمس يا مولاى ألا تدع هذه الفرصة الذهبية تفلت من أيدينا فكل الظروف ملائمة . بل كأن الظروف خلقت لكى نستمر فى مواصلة الجهاد ضد العدو . فان روح جنودنا قد سما بها النصر إلى أعلى عليين . والقعود عن القتال قد يغير هذه الروح . فاذا ما رأى الجند ترددنا فى متابعة النصر بالنصر ، تولتهم الدهشة ثم داخلهم الشك ، فيفقدون ثقتهم فينا . وكذلك الانجليز يأخذهم العجب ثم يستجمعون شجاعتهم، ويستردون إقدامهم . فالبدار ! البدار ! ولتأمرنا بمواصلة السير الى ريمس .. »

أنصت الملك لهذا الرجاء ، وهز رأسه ، وسأل لاتريموای رأيه — لاتريموای المستشار الخائن وصاحب النفوذ الأول عليه — فأسرع بالجواب :—

« مولاى ، ان الحكمة كلها في رفض ماتطلبه جان ، فكر يامولاى فى حصون الانجليز على اللوار . فكر فى حصونهم الكثيرة التى تحول بيننا وبين ريمس ! »

ولم يؤيد جان فى رغبتها لدى الملك أحد من رجال الحاشية ،

فقد كانوا جميعاً يرون ما يراه لاتريمواى ورئيس الأساقفة من عدم متابعة القتال ، واتباع سياسة الانتظار والمفاوضة .

وكلما ألحت جان على الملك ، وأبانت له ولهم ضرر الانتظار ، أصروا جميعاً على الرفض . وكان امتناع الملك ضعفاً منه وخوفاً من مستشاريه . وكان رفض هؤلاء راجعاً إلى ممالأتهم للعدو ، واتفاقهم معه سراً على عرقلة مساعى الملك فى استرداد عرشه وملكه ، استبقاء لنفوذهم من جهة ، وطمعاً فى مال العدو من جهة أخرى .

وأبى الملك إلا أن يكافىء جان على انتصارها في أورليان ، وألحف فى أن تتمنى عليه ما تشتهى ، وهى تقابل إلحاحه بقولها أن لا أمنية لها إلا أن ترى فرنسا حرة وملكها متوجاً ، وأن مشتهيات هذه الدنيا كلها لا تجد إلى نفسها سبيلا . وأخيراً فاجأها الملك وفاجأ رجاله من حوله برفع سيفه وإنزاله فى هدوء على كتف جان قائلا لها : « لقد رفعتك أنت وأهلك وذريتكم من بعدكم إلى رتبة الأشراف جزاء وفاقا على إخلاصك وعملك العظيم . »

وأصبحت جان بعمل الملك هذا من النبلاء . وكان لعمل الملك دوى هائل شاع فى كل الأوساط فى جميع الأرجاء . أما أثره فى جان فلم يكن بذى بال . ومثلها لا تهمه الألقاب والرتب ، فهذا شأن الطامعين المتطلعين من أهل هذه الدنيا ، الذين يحبون المال حباً جماً ،

و يلهيهم الزخرف ، وتستدرجهم متع الحياة . أما جان القروية المؤمنة الخالصة ، فقد خرجت من ديارها تبغي لوطنها فكاكا من أسره ، وخلاصا من ذله ، يدفعها وحي مقدس . فكل ما كانت تطمع فيه أن تتمكن من إنجاز رسالتها ، والقيام بدعوتها ، ثم تعود إلى قريتها مرة أخرى ترعى غنم أبيها ، وتساعد أمها فى تدبير منزلها .

مضت الأيام والملك في تردده لا يقر قرارا حاسما ، وبدأ الجيش يسأم الانتظار ، ولما قلت مؤنته أخذ أفراده ينفضون عنه ، وأخذت جان ترقب عن كثب ما كان يجرى وقد تملكتها الحسرة ، وحز فى قلبها الألم إذ قدر لها أن ترى جيشها الظافر يتفرق أيدى سبا مع أن مصلحة البلاد كانت تقضى باستخدامه على عجل . ولكن ماذا تعنى مصلحة البلاد عند الخونة من رجال الحاشية ؟ وماذا يعنيهم من تفرق الجيش ؟ ! لقد صادف ذلك هوى في قلوبهم ، ولم يزدهم إلا تشبثاً بسياستهم !

كانت مفاوضة الأعداء محور سياسة رجال البلاط ، وقد حسبوا أنهم بالمفاوضة يستطيعون أن يكسبوا ما تكسبه الجيوش والمعارك ، واعتبر هؤلاء القوم أن المفاوضات بين رجال السياسة وأقطابها من أعمال السياسة العليا التى لا تدركها جان ولا تستطيع أن تلم منها بطرف .

وكان مستشارو الملك يرون أنهم لو أمكنهم التفرقة ما بين دوق برجنديه وحلفائه الانجليز فأنه « لا يبقى جندى انجليزى واحد على أرض فرنسا ...! » وهذا الرأى فى ظاهره صحيح ، ولكن عقبات جمة تحول دون تحقيقه : منها أن دوق برجنديه أكثر دهاء وأشد مكرا مما يظنون ، فقد كان بطبيعة الحال ميالا الى الاستقلال بالسلطة فى بلاده (القسم الشرقى من فرنسا) وما ضم إليها من بلاد فلاندرز (هولاندا) الغنية . وكان استقلاله يتحقق بتحالفه مع الانجليز أكثر مما ينتظر تحقيقه إذا ما انضم إلى ملك فرنسا فى محاولته استرداد عرشه وبلاده . وذلك لأن ملك فرنسا هو السيد الشرعى لدوق برجنديه على تلك المقاطعة . فعبثا يظن مستشارو الملك أنهم يستطيعون التفرقة ما بين الدوق وبين انجلترا . أضف إلى هذا أن «لاتريموای» كبير المستشارين كان متصلا سرا بدوق برجنديه ، وكان الدوق يرشوه بالمال مكافأة له على مساعيه فى عرقلة حركات الملك ومعاكسة جان فى أغراضها . ومن ثمة كان لا يمحض الملك النصح فى حفزه على عدم إجابة جان إلى مطلبها .

وانتهز دوق برجندية فرصة الرغبة فى مفاوضته ، واستغلها لصالحه بأن سار على قاعدة « فرق تسد » وعمد إلى الاستفادة من الطرفين ، الانجليزى والفرنسى ، بأن جعل كلا منهما يشعر بحاجته إلى تأييده

ومعاضدته ، لكيما تكون له من وراء ذلك السيادة المطلقة فى بلاده مستقلا بها استقلالا تاما عن الملكين ، ملك انجلترا الجالس على عرش فرنسا بحكم معاهدة تروى ، وملك فرنسا الذى أخذ يسترد ملكه بمعونة جان العذراء . وجريا على هذه الخطة عمل على ارضاء طلاب المفاوضة من الفرنسيين بأن عقدهدنة موقوتة مع الدوفين ، وفى الوقت نفسه احتفظ بصداقته مع دوق بدفورد الوصى على العرش الانجليزى .

وانقضى شهر والملك وحاشيته فى مفاوضاتهم يعمهون ، وجان على أحر من الجمر تسعى لوضع حد لهذه المماطلة وهذا التسويف والأخذ بما كانت تدعو إليه من المبادرة إلى القتال وإجلاء العدو عن أرض الوطن . وكان قلقها يزداد يوما بعد يوم لأنها كانت تعلم أن « رسالتها لا تمتد إلى أكثر من سنة » : هكذا علمت من قديسيها الذين ما فتئوا يذكرونها بالاقدام والسير الى الأمام فى غير تردد ولا توان .

وفى يوم ضاقت ذرعا بهؤلاء القوم الذين يحيطون بالملك يوسوسون له بآرائهم الفجة غير البريئة وكان الملك في لوش Lôuches فجاءته ومعها « بستارد أورليان » المعروف ، ودخلت حتى الحجرة التى كانوا فيها يتناقشون . وقرعت بابها ، وركعت أمام الملك وأمسكت ركبتيه بيديها وقالت متضرعة « أيها الدوفين النبيل ! لا تضع الوقت سدى فى المناقشات العقيمة . وهيا بنا إلى ريمس لكى نلبسك تاجك وتاج آبائك من قبل .

إن « أصواتي » تدعونى إلى التقدم على بركة الله ... ! »

بأزاء مافعلته جان تشجع الملك ، وفى ساعة تغلبت فيها حماسته على تردده ، أمر الجيش بالزحف والاستيلاء على المدن التى لا تزال فى أيدى الانجليز ، واخلائها من العدو ...

لقد ضاع شهر من الزمان فى تردد الملك واستماعه بل خنوعه لمشورة السوء من رجاله . فلما أن نادى منادى الحرب بين النـاس ، وتقدمت جان للقيادة ، هرع إليها القوم من كل حدب ، ولبوا دعوتها من كل صوب . وكان أشهر من جاءها شابان من النبلاء من بريتنى Brittany هما « جى » و « اندرو » ، ابنا اللورد « لافال » ، ومن الاشراف الذين توارثوا النبل كابرا عن كابر من أربعة أجيال . جاءا الى جان متطوعين لخدمتها ، بعد أن سمعا بها . وأعجبا بفعالها ، واعترفا بقداستها . وهكذا ذكت جذوة الحرب من جديد ، وقامت جان على ما تراه مفصلا فيما يأتى تصيح بالمدن المحتلة بالعدو صيحتها المشهورة « سلموا إلى ملك السموات ... ! ! » فلا تلبث أن تجيب الدعاء .

وفى يوم الخميس ٩ يونيه ، أى بعد شهر كامل من يوم أورليان ، بدأ الجيش زحفه وعلى رأسه جان ومن حولها « بستارد » أورليان ، ودالنسون ، وكامل حاشيتها ، والشابان من آل « دى لافال » ، قاصدين جارجو Jargeau ، وكانت على مسيرة يومين جنوبى أورليان . وكانت فرقة من

الفرنسيين قد حاولت الاستيلاء على « جارجو » فصمدت لجنودها ، وقاومتهم حاميتها مقاومة شديدة ، واضطرتهم الى الانسحاب . ولم تكن جان مع هـذه الفرقة حين هجومها . فلما وصل إليها الجيش ، رأى فريق من القواد أن يفاوضوا سافولك Suffolk قائد المدينة فى تسليمها من غير مقاومة في مقابل ترك الحامية تخرج منها بسلام . ولكن جان كانت تعلم أن المدد الانجليزى قدخرج من باريس بقيادة فاستولف Fastolf قاصداً نجدتها ، وأن استعداد سافولك للمفاوضة لم يكن إلا مراوغة منه لكسب الوقت ، فأمرت باطلاق المدافع على القلعة فأحدثت فيها ثغرة أمرت جان رجالها بالتقدم إليها وصعدت درج سلمها ، وفى هذه اللحظة أصابها حجر أوقعها ولكنها انتفضت قائمة وصاحت « إلى الأمام يا رفاقى ! تقدموا إلى الأمام فالقلعة لنا فى هذه الساعة ... ! » واقتحم الفرنسيون الحصن ، واستولوا على المدينة عنوة ، وفرت الحامية إلى ناحية الجسر ، ولحق بها الفرنسيون فذبحوا رجالها وأخذوا « سافولك » نفسه أسيرا .

وعادت جان فى مساء ذلك اليوم « ١٢ يونيه » إلى أورليان ظافرة منصورة

ولم تضع جان وقتا فى أورليان ، بل أعلنت رغبتها فى التعجيل بالاستيلاء على مونج Meung الواقعة على النهر شمالى أورليان . ولما أن وصل الجيش فى يوم الثلاثاء ١٤ يونيه إلى أورليان عائدا من جارجو ،

أعلنت جان لدالنسون أنها ترغب فى السير غدا نحو مونج ، وطلبت منه أن يأمر بذلك . وفى يوم الخميس ١٦ يونيه استولى الفرنسيون على مونج ومنها سارعت جان بالجيش للاستيلاء على بوجنسى Beaugency البلدة التالية وكان يحتلها الانجليز.

فى هـــذه الأثناء انضم إلى جان القائد الفرنسى المشهور «ريشمونت Richemont» وكان من أعظم نبلاء فرنسا نفوذا ولكنه كان عدواً لدوداً للمستشار لاتريموای الذى كان كثيراً مايوقع النبوة بينه وبين الملك ويوغره عليه بل قل يأمره أن يرفض مساعدته، وذلك لاعتقاده أن فى قبول الملك معونة «ريشمونت» وقبوله إياه فى حاشيته ضياع النفوذه هو وسيطرته على الملك . ولكن جان دارك رأت مافى قبوله من قوة وأيد لجيش الملك ، فعملت للتغلب على كل معارضة فى هذا الشأن فكانت حكيمة فى جمع كلمة أبناء الوطن الواحد ، وتأليف ما بين قلوبهم ، وضمهم إلى الملك يزداد بهم منعة ويرتفع بهم شأنا .

وقد كان لقبول جان القائد ريشمونت أثره الفعال ، فان الحامية الانجليزية فى بوجنسى لما علمت بانضمامه إلى جيش جان مُلِئَت رعبا وتركت المدينة خاوية، واعتصمت بالقلعة، ولكنها لم تلبث أن سلمت ..!

وفى يوم الجمعة من ذلك الأسبوع وفيه ثمل الفرنسيون بخمرة النصر يتلوه النصر ، جاءتهم الأنباء بأن القائد الانجليزى «تالبوت»

قادم لنجدة بوجنسى ، ولم يكن قد علم بسقوطها فى أيدى الفرنسيين ، وأنه قد أصبح على مسيرة يوم من المدينة .

وكان اسم «تالبوت» وحده كافيا لالقاء الرعب في قلوب كثير من الفرنسيين فان هؤلاء المساكين قد درجوا على التقهقر والانكسار أمام الانجليز ، ونشأت أجيالهم الأخيرة فى ظل الهزيمة لا يسمعون إلا عن «كرسى» و «بواتييه» و «اجنكورت» حيث كانت تذبح الجنود الفرنسية ذبح الخراف ، والسعيد منهم من كان يسلم ساقيه للريح إذا شام العدو أو شم رائحة الطعن والنزال . وكان تالبوت هو القائد الذى طبع بفظائعه فى أذهان الفرنسيين صورة مروعة لم يمحها من أذهانهم تطورات الحرب الأخيرة من يوم ظهور جان . هؤلاء الذين جاءتهم «قديسة من السماء» تؤيدهم ، وتتقدمهم فى الحرب ، وتتلقى عنهم الصدمات الاولى بصدرها الجائش وإيمانها المكين . والذين إنتصروا نصرهم على تالبوت هذا فى أورليان وانتصروا أخيرا فى جارجو ومونج و بوجنسى ، واعتقلوا قوادا من الانجليز أسرى وراءهم ، هؤلاء هم الذين لما سمعوا بقدوم تالبوت بجيشه فكر فريق منهم فى أن يرتدوا متقهقرين إيثارا لعدم الاشتباك معه فى قتال . . . ! ! بئس ما يفعل الذل بالنفوس !

أما جان ، ولله در جان ، فقد هزأت بحال المترددين وظفقت تبث فيهم روح الشجاعة والاقدام قائلة لهم : « علينا أن نحاربهم . . . ! ولو تعلقوا بأهداب السحاب لوجب علينا أن نجرهم منها . . . ! »

وفى مساء ذلك اليوم كانت جان وجيشها على ربوة صغيرة تستعد للغد ، وكانت القوات الانجليزية قد وصلت على مقربة من مكان الفرنسيين ، ولكن الطرفين لم ير بعضهما بعضا لتكاثف الغابات والاحراج فى تلك الناحية . وقبل أن يرخى الليل سدوله جاءت رسل الانجليز بعد أن تبينت مكان الفرنسيين تعرض عليهم حلا يوفر على الفريقين ويلات الحرب وفجائع القتال . وذلك أن يخرج ثلاثة من فرسان الانجليز لمثلهم من فرسان الفرنسيين وأن يجرى القتال بين الفريقين وتكون الغلبة لمن ينتصر فريقه !؟ ولكن جان كلفت ، من أبلغ الرسل أن يعودوا إلى جيشهم وأن ينتظروا ما يجرى به القدر فى الغد .

وفى هذه الليلة التفتت جان إلى رفاقها وسألتهم :

— ألديكم مغاميز جيدة ؟

فاجابوا — أتطلبينها للهرب ؟

— كلا ! بل أطلبها للمطاردة ... !

وقد تحققت نبوءة جان ففى صباح اليوم التالى كان تالبوت وفاستولف في طريقهم إلى باريس مرتدين !! وكأن الله أراد أن يضرب مثلا للجبناء من رفاق جان فأوقع الرعب فى قلوب الانجليز وعلى رأسهم تالبوت الفظيع وجعلهم يرتدون . وليست تعرف علة ارتدادهم على التحقيق ،

ولعلهم بعد أن علموا بسقوط بوجنسى وجدوا ألا مناص من الهزيمة فآثروا التقهقر إلى مكان حصين.

أما جان فقد زحفت فى أثر الانجليز فلم تقف لهم على أثر. فواصلت الزحف حتى رأت أمامها كنيسة مدينة « بتاى Patay » وهى مدينة صغيرة. ومن العجب أن الانجليز كانوا طيلة مدة السير على مقربة من الفرنسيين، ولكن هؤلاء لم يهتدوا إليهم. ولما أحس الانجليز بمطاردة الفرنسيين لهم انتقى «تالبوت» قوة من خيرة رماة السهام وأمرهم أن يختفوا وراء الأجمة حتى إذا رأوا العدو أمطروه وابلا من سهامهم، وكانوا فى الرماية من ذوى الخبرة المتفوقين.

وصادفت طلائع الفرنسيين غزالا فى مكمنه فانزعج وفر أمامهم، وجاء إلى معسكر الانجليز الرماة فقابلوه بصياحهم المعهود إذا ماوجدوا صيدا، فتبين الفرنسيون مكانهم من الصياح، وكانوا من قبل يجهلون أنهم على مثل هذه المسافة القريبة من عدوهم الذى يطاردونه. وفى الحال عادت الطلائع الفرنسية تنبىء قومها بما حدث، فسلكت القوى الفرنسية عدة طرق، وانقضوا على هؤلاء الرماة حتى أبادوهم. وجاء جيش فاستولف لنجدة الرماة، ولكن الفرنسيين انقضوا عليهم كذلك حتى أفنوهم عن آخرهم. وكان ذلك يوم السبت ١٨ يونيه، وتلك هى الموقعة الشهيرة المعروفة بموقعة « بتاى ». وترجع شهرتها إلى أنها كانت أول موقعة تقابل فيها الفرنسيون والانجليز وجها لوجه فى

ميدان مكشوف . خسر فيها الانجليز خسائر فادحة ، وهلكت فيها زهرة جيشهم ، ووقع «تالبوت» نفسه أسيرا وكان نصر الفرنسيين حاسما

وفى الواقع ان فى « بتاى » ولدت فرنسا جديدة ... !

ومن غريب المصادفات أنه لما هزم الفرنسيون فى موقعة «فرنى» قبل ذلك بخمس سنوات ، كان تالبوت هذا نفسه هو الذى أسر الدوق دالنسرن ، وهو اليوم رئيس أركان حرب جان ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن دفع فدية كبيرة وعاني آلاما شديدة . فلما جاءوا هذه المرة بتالبوت أسيرا أمام دالنسون بعد موقعة «بتاى» بالغ في إحترامه وأطلق سراحه بعد مدة وجيزة وبدون فدية !! وكان هذا غاية لكرم الفرسان فى ذلك العهد . . .

وفى مدة لا تتجاوز يوماً وليلة كان خبر إنتصار الفرنسيين فى « بتاى » قد ذاع وعم فرنسا كلها ، فطارت قلوب أهلها فرحا ، ورقصت طرباً ، إذ غسلت «بتاى» عار «كرسى» و « بواتييه » و «اجنكورت»

وقفلت جان ومعها رجالها والقائد « ريتشمونت » إلى أورليان ، ومعها أسرى الحرب ومن بينهم تالبوت . ولا تسل عن فرح أورليان وعن مهرجاناتها وعن أنوارها فى هذا اليوم العظيم . حدث عنها ولا حرج ، إذ لا يمكن لواصف مهما أوتى من القدرة أن يصف ابتهاج المدينة وفخارها ...! «تالبوت» الذى كان يحاصرهم بالأمس وكان اسمه كافيا لالقاء الرعب فى قلوبهم ، يدخل المدينه أسيراً مقهوراً ؟ ! لقد جن أهل أورليان من الفرح ، ولهم العذر فى « جنونهم » .

آن للملك الآن أن يقصد إلى « ريمس » لتتويجه ؟ ! تلك كانت النغمة التى تتردد على ألسنة الخلق جميعاً . ولكن الحاشية — والحاشية دائما — كانت لاتزال مترددة فى السير بالملك الى « ريمس » بحجة ان بلادا حصينة فيمابين «بتاى» و «ريمس» لاتزال فى أيدى البرجنديين حلفاء الانجليز . وكان أشهر هذه المدائن «أوكسير» و «تروى» و «شالون» و «ريمس» نفسها فقد كانت ذات أسوار وقلاع كثيرة . وقد احتجت الحاشية أيضاً بأنه لا يوجد لديها المؤونة ولا المال الكافى لرحلة تخترق نحو مائة فرسخ . تلك كانت حجة الحاشية فى الاحجام عن السير نحو ريمس ، بعد كل هذه الانتصارات الباهرة .

وإذا قلنا الحاشية عنينا دائماً لاتريمواى المعروف ... !

وكانت أورليان قد دعت الملك إليها ليشهد احتفالها بالنصر ، وقدوم جان إليها ، وأعدت المدينة له استقبالا فخماً ولكنه لم يحضر وذهب مع «لاتريمواى» إلى قلعة فى صلى سير لوار Sully Sur Loire

ولما لم تجد جان الملك فى أورليان ، وكانت قد وعدت «ريشمونت» أن تصلح مابينه وبين الملك ، سارت به إلى «صلى» حيث الملك وقدمته إليه ، وأزالت ما كان بينهما من نفور وجفاء . وهذا العمل كما اشرنا آنفا دليل على حكمة وحنكة وسلامة فى التقدير يتبين مقدارها كل من يعرف قداسة الوحدة الوطنية . والذين يعرفون تاريخ فرنسا بعدموت

جان يعلمون أن « ريشمونت » هذا كان هو القائد الذى أتم عملها وأخرج الانجليز من بقية البلاد التى كانت فى حوزتهم بعد وفاتها . فكأنها وهى تصلح ما بينه وبين الملك ، كانت تعرف ما يدّخره المستقبل للقائد العظيم من عمل جليل فى سبيل إتمام وحدة الوطن المقدسة . . . .

وبعد تقديم ريشمونت للملك ، عمدت جان إلى إزالة مخاوفه من السير إلى « ريمس » لأنه كان قد أستمع لاستشاره الخبيث وهو يخيفه من قلاع الانجليز التى تسد الطرق اليها وقد تمكنت جان من اقناع الملك بان القلاع الانجليزية لم تعد ذات أهمية بعد انتصارات « اللوار » التى مر ذكرها . وفى الواقع أن السير إلى ريمس كان عبارة عن « نزهة خلويه » وكانت جان متحققة من ضعف القوى الانجليزية وفقدانها الروح المعنوى حتى أنها لم تأخذ المدفعية معها فى سيرها .

بدأت الرحلة إلى ريمس بمدينة « جين Gien » وبلغ عدد الجيش الذى خرج منها اثنى عشر ألف مقاتل ، وكان خروجه فى ٢٩ يونيه وركبت جان بجوار الملك . وركب دوق دالنسون على الجانب الآخر ، وتبعهم ثلاثة من الأمراء ، وجاء بعدهم « بستارد أورليـــان » وغيره من القواد والمستشارين والنبلاء والفرسان . واستراحوا ثلاثة أيام عند أوكسير ومنها أخذوا مؤنتهم ، وجاءهم وفد من سكانها يلتمس من الملك دخول المدينة ولكنه لم يرض ضرورة لدخولها . ومنها تقدموا إلى سنت فلورنتان Saint-Florentin التى فتحت أبوابها للملك . وفى يوم ٤ يوليه وصلوا

إلى سنت فال Saint Val وعلى مقربة منها كانت مدينة « تروى » الشهيرة التى عقدت فيها المعاهدة التى أضاعت فرنسا ، وكانت محصنة تحصيناً منيعا تحميها الجنود الانجليزية والبرجندية وفى انتظار مدد جديد من باريس .

وأرسلت جان الى حامية «تروى» تدعوها إلى التسليم . فرد عليها قومندان الحامية رداً خشنا هزأ بها فيه ، ولعله تشجع واستكبر لأنه لم ير مع جان مدفعية تستطيع بها دكّ الأسوار . ومضت خمسة أيام والمفاوضات دائرة بين الفريقين بغير جدوى . ولما رأى الملك ذلك هم بالعودة والنكوص عن ريمس (وياله من ملك شجاع !) ولكنه حين سأل جان رأيها فى الموقف أجابته بلا تردد « سندخل المدينة بعد ثلاثة أيام » . وهنا تدخل لا تريموای قائلا « لو كنت واثقة من قولك فنحن نستطيع أن نمكث ستة أيام لا ثلاثة .. ! » فردت جان فى الحال متهكمة « ستة أيام كاملة ؟ ! إننا سندخلها غدا باذن الله . » ثم ركبت جوادها واخترقت الصفوف تدعو القواد والجنود للاستعداد للهجوم على المدينة عند الفجر ، وفي الميعاد المحدد تصدّرت جان القوة وآذنت فى النفير تدعو إلى الهجوم . وفى هذه اللحظة رفعت المدينة راية الهدنة وسلمت «تروى» من غير قذيفة واحدة . وفى اليوم التالى دخلها الملك ظافرا منصورا . واستأنفت جان السير . وكانت «شالون Chalon» المدينة التالية فسلمت بلا قتال ، ومنها سار الجيش دون أن يعترضه

معترض إلى أن صار الجمع على مقربة من « ريمس » وكانت منارات كنيستها أول ما أخذ الأبصار ، فارتفعت هتافات الجيش تشق الفضاء حتى بلغت عنان السماء . وكان ذلك فى ١٦ يوليه . وعسكر الجيش خارج المدينة ، وأما الحامية الانجليزية البرجندية التى كانت فى « ريمس » فقد غادرتها عند ما اقتربت جان وجيشها من المدينة من غير حرب أو جدال ، وكفوا أنفسهم شر القتال .

ولا تسل عن هزة الفرح التى شملت « ريمس » عند اقتراب الفرنسيين منها ، فقد هبت في الحال تقيم الزينات ، وترفع الأعلام والرايات ، وتنصب أقواس النصر ، وتزين الكنيسة الكبرى من الداخل والخارج استعداداً لاستقبال الملك وجان دارك .

وهكذا انتهت « النزهة الخلوية » وهو الاسم الذى يطلقه المؤرخون على زحف الجيش الفرنسى على ريمس . مائة فرسخ فيها المدن المسوّرة الحصينة والحاميات المسلحة تسلم جميعاً من غير حاجة إلى إراقة الدماء . ألا يدلك هذا على مبلغ ما أصاب الانجليز والبرجنديين من فزع وخور أمام اسم جان دارك !؟ وأين هذه الحال من تلك التى كان فيها ظهور الجند الانجليزى فى الميدان كافياً وحده لكسب المعركة من الفرنسيين الذين كانوا يولون الأدبار ويركنون إلى الفرار !؟ غيّر الفرنسيون ما بأنفسهم فغير الله ما بهم . ردت جان الثقة إلى نفوسهم

و بمحض إيمانها أقامت لهم أدلة قدرتها على التغلب على كل عقبة مهما صعبت، ولو كانت العقبات شقة بعيدة أو أنهاراً جارية أو حصوناً قائمة أو مدناً مسورة أو رماحاً مشرعة .

الآن أصبحت جان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق رغبتها وإتمام رسالتها . ففى الصباح الباكر ستدخل ريمس ظافرة منصورة ، وستتوج الملك وتمسح على رأسه بالزيت المقدس . ...!

ترى ، أيها القارىء ، ألم تسائل نفسك عن السر فى اهتمام جان وإلحاحها فى وجوب تتويج الملك ؟ وتتويجه فى المكان الذى تُوِّجت فيه كل ملوك فرنسا من قبل ؟ ولماذا جعل تتويج الملك فى ريمس نهاية رسالة جان ؟

إن تتويج الملك شارل السابع فى ريمس كان أعظم عمل سياسى قامت به جان دارك . ولن تجد لأهميته حداً . وعليك أن تدرس عقلية الشعب الفرنسى في ذلك العهد وأن تدرس عقيدته الدينية لكى تدرك تمام الادراك قيمة إلحاح جان فى الاسراع بتتويج الملك . إن الشعب لم يحفل باتهام أمه له بأنه ليس ابناً شرعياً ، لأنه كان يعلم فساد خلق تلك المرأة . و إنما اهتم الشعب، وأقصد بالشعب طبقة العامة وهى السواد الأعظم، بأن الملك لم يتوج التتويج الشرعى ، ولم يمسح على رأسه بالزيت المقدس، فهو لم يزل قبل أن يتم له هذا ملكا غير شرعى .

وما دامت شرعيته معلقة فأن تأييده من جانب الشعب يكون فاتراً أو معدوماً . وهل يمكن أن يدوم مُلْكٌ لا يؤيده الشعب ؟ لهذا السبب قدّرت جان وهى الفتاة القروية الخارجة من صميم الشعب ، والناشئة فى أحضان عقائده وميوله ، أهمية التتويج للملك وللمملكة . فاذا ما توّج الملك وزال كل شك فى شرعيته ، أصبح عرشه قائماً على دعائم متينة من حب الشعب و إخلاصه ، وأصبح شرف الملك موصولا بشرف الشعب ، ووجب عليه الذود عنه وافتداؤه بالأموال والمهج . ومتى تم ذلك لم يعد لجان من شأن ، ولا لدعوتها من داع . لهذا كان التتويج ختام رسالتها . إذ بعده ينتقل واجب الدفاع عن الملك إلى شعبه جميعاً لا إلى فرد بعينه من أفراده .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

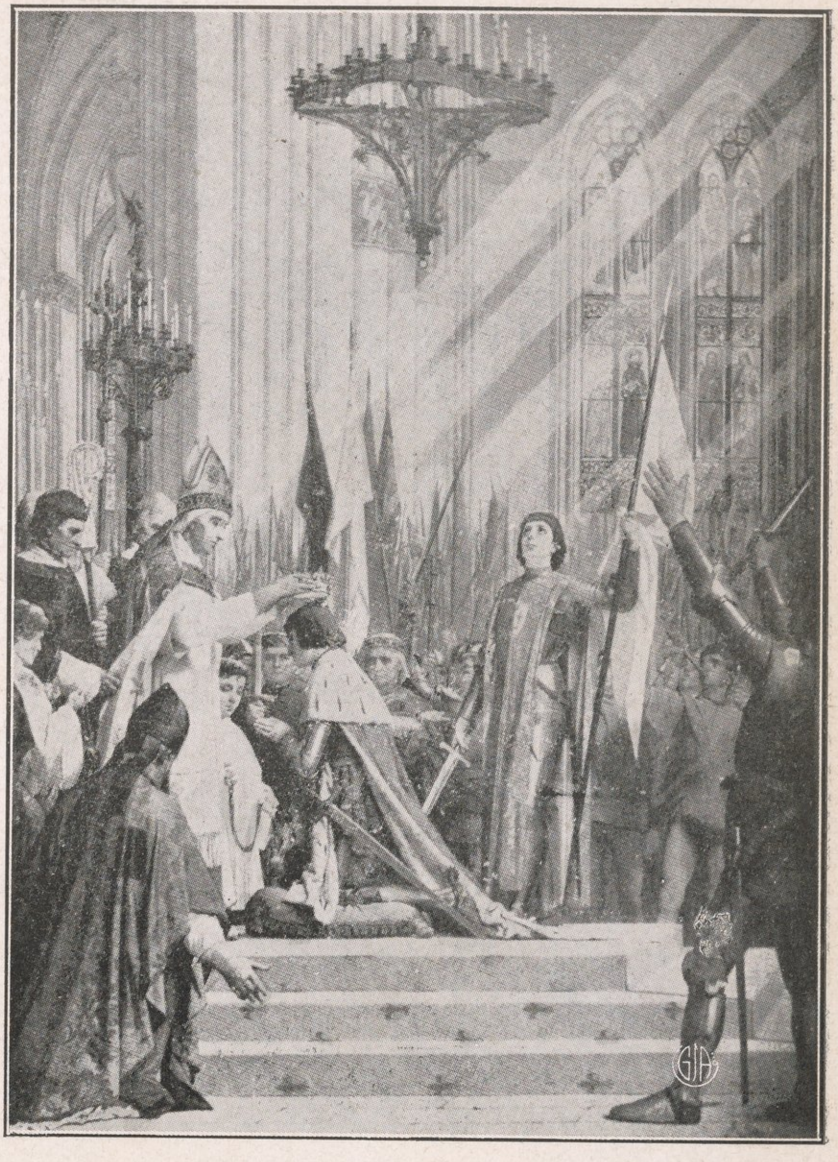

تتويج شارل السابع فى كاتدرائية ريمس

التتويج فى ريمس

إذن كان للتتويج أهميته الكبرى. وكان انتصارا سياسياً حاسما لجان دارك من جهة، ولفرنسا المجاهدة ضد الغاصب من جهة أخرى.

وإليك وصف ما حدث قبل التتويج وبعده:

لما عسكر الفرنسيون خارج ريمس جاءتهم وفود المدينة تترى. وكان أول وفد جاء يرحب بالملك عظماء المدينة وعلى رأسهم رئيس الأساقفة. وتبعته وفود أخرى كثيرة جاءت تحمل الاعلام والرايات، وتعزف بالموسيقى وتنشد الاناشيد فى فرح شامل وسرور فياض. وبشر تطفح به الوجوه وتنطق به الاسارير، وكانت حركة الاستعداد لاستقبال الملك داخل المدينة على قدم وساق.

وفى الوقت المناسب، فى الصباح التالى، تحركت مواكب الجيش قاصدة إلى «ريمس»، وتقدمت جان على جوادها الأكحل ومن حولها دوق دالنسون ورجالها الآخرون، تستعرض الجيش وتستعرضه للمرة الأخيرة فى حياتها! (ألم يكن الجميع على يقين من أن التتويج هو ختام رسالة جان؟). حقا كان هذا آخر استعراض جان لجيشها المحبوب الذى أحبته وأحبها، ورفعت عنه عار الهزيمة ومحت عنه وصمة الجبن التى لازمته طيلة السنين الاخيرة. فلا إسراف إذن إذا قلنا إن الجيش كان ينظر الى جان نظره الى «قديسة هبطت من السماء» لتخلص

فرنسا من مهاوى الفناء ، ولتبعثها من جديد تقوم بدورها الذى خلقت له بين العالمين .

مرّ الجيش أمام جان لا كما مر أمامها فى المرات السابقة ، بعد انتصاراته الباهرة ، هاتفا ، رافع الرأس ، وامض اللحظ ، منشداً أناشيد الظفر ، بين بريق الأسلحة وعزف الموسيقى ، بل مر فى هذه المرة وهو يشعر بأنه يودع قائده المقدس الوداع الأخير . مر الجند وكأن على رؤوسهم الطير وهم فى تأثر بالغ أقصى الحد ! تحسبهم من شدة التأثر كأنهم في مدينة أموات ! وتلك أشباح تتحرك ، وترفع يمناها بالتحية ، وتتبادل مع قائدها العظيم نظرات حزينة تكاد تنطق . . . « باركك الله . والوداع الوداع أيها القائد المحبوب . . . ! » .

وبعد ذلك ركبت جان إلى حيث نزل الملك ، وكان قد نزل فى قصر رئيس الأساقفة الخلوى ، وأسرعت جان فى صحبته إلى أن سارا فى مقدمة الجيش .

وفى هذه الاثناء كان أهل القرى المجاورة يهرعون إلى الطريق التى ستمر منها جان والملك ، وكانت جموعهم الكثيفة تبدو فى أبهج منظر وقعت عليه العين ، فقد جاءوا جميعاً فى ثياب بيض وحمر ، فى اتساق جميل ، وهندام بديع ، فكان السائر فى الطريق كأنما يتهادى بين صفين عظيمين من « أزاهير الخشخاش والزنبق ...!! » جاء الكل لكى يروا جان معبودتهم التى سمعوا عن أفعالها الأعاجيب . وكانت جان

قد ألفت هذا المنظر فما من قرية عاجت بها . أو مدينة نزلت فيها ، إلا خرج أهلوها سراعاً وانتظموا صفوفاً يهتفون ويجهرون بالدعاء كلما مرت بهم أو أَهَلَّت عليهم . وقد دوّن معاصروها فى شهادتهم أن الجموع التى كانت تمر بها جان في كل مكان ، كانت تركع لها وتنحنى أمامها خاشعة متبتلة .... وقد اعتبرت المحكمة التى نظرت قضيتها هذا العمل من الناس تأثراً بسحرها واتخذته قرينة ضدها .

وكلما اقترب الموكب من «ريمس» تجلت بروجها وأسوارها ، وما عليها من زينة فائقة ، وبنود خافقة ، وما فوقها من كتل بشرية متراصَّة ودخلت جان والملك المدينة من أبوابها ، فتلقاهما الأهلون فى طرقاتها حتى إذا ضاقت بهم ازدحموا فى النوافذ وعلى السطوح وفى كل موضع لقدم انسان ، عالياً كان ذلك الموضع أو منخفضاً . وكنت ترى على كل شرفة فى دار وعلى كل نافذة البيارق والأعلام تخفق ، والمطارف البهيجة الألوان ترفرف ! ولو قلت إن «ريمس» على بكرة أبيها ، وجميع المخلوقات التى فيها ، قد اشتركت في استقبال جان والملك ، فانك لا تعدو الواقع وحملت الجماهير أنواطا نقشت عليها صورة جان واتخذوها تعاويذ تقيهم الشر وتجلب لهم الخير وكذلك أدخلت الكنيسة اسم جان فى صلواتها . وكان هذا الشرف إلى ذلك الوقت مقصوراً على الملوك ذوى التيجان .

ونزلت جان والملك فى قصر رئيس الأساقفة . ثم شرعا فى الحال فى إعداد لوازم التتويج ،وألزم ما كان يلزم له قارورة الزيت المقدس الموجودة فى كنيسة دير القديس ريمى Remi ، فأرسل الملك فى طلبها وكان لاحضارها طقوس ورسوم لا تسلم بدونها . ذلك أنه كان مشروطاً لاحضارها أن يندب الملك خمسة من النبلاء ، يرتدون ثيابا فاخرة و يتدرعون بأنواع الأسلحة المعروفة وكذلك تتزين الخيل التى يمتطونها ثم يقصدون فى موكب إلى الدير كحرس رسمى لرئيس أساقفة « ريمس » وقساوسته الذين يكونون فى أفخر ملابسهم الكنيسية ويحملون جميعاً طلب الملك للزيت . وكان على هؤلاء النبلاء قبل أن يتحرك الموكب نحو الدير ، أن يقسموا جهد أيمانهم ، أن يحافظوا على قارورة الزيت فى الذهاب إلى مكان التتويج ، وفى العودة منه بعد الانتهاء . وعندما يصل الموكب إلى باب كنيسة القديس « ريمى St Remi » يقفون جميعاً فى انتظار القارورة المقدسة . و بعد قليل تسمع الأناشيد آتية من بعيد ثم تقترب شيئاً فشيئاً إلى أن يظهر رتل طويل من رجال الدير ، وفى الطليعة كبيرهم ، في ملابسه الكهنوتية ، يحمل القارورة ، و يسلمها فى مهابة إلى رئيس الأساقفة . وعند تسلمها يعود الموكب جاريا فى إيابه على نحو نظامه فى الذهاب ويتوجه إلى الكاتدرائية الكبرى حيث يجرى مراسم التتويج . ويمر الموكب في

ذهابه و إيابه بين صفين من جموع الشعب رجالا ونساء وهم سجود مكبون على وجوههم يصلون فى صمت عميق كرامة وهيبة لتلك القارورة المقدسة.

أتدرى السر فى كل هذا ؟

السر أن هؤلاء القوم جميعاً كانوا يعتقدون أن الزيت والقارورة التى تحتويه من صنع الله !!! وأنها أرسلت من السماء مع طائر إلى القديس ريمى فى الساعة التى قام فيها لتتويج الزعيم « كلوفس Clovis » ملكا على فرنسا من منذ تسعمائة عام. هكذا كانوا يعتقدون... ومن بعد كلوفس كان ملوك فرنسا جميعاً « يكرّسون » أى يدهنون عند تتويجهم بهذا الزيت المقدس الذى سلمه القديس لخلفائه من بعده لكى يتوجوا الملوك به. وما كان يصح تتويج الملك شرعا إلا إذا مسح على رأسه من هذا الزيت المقدس ! أفهمت إذن السر فى الاهتمام بأمر هـذا الزيت؟ ولماذا حرصت جان الحرص كله على تتويج الملك وتكريسه به ؟ وأخيراً أفهمت الحكمة السياسية السامية فى التتويج وجعله ختام رسالة جان . . ؟

وعند ما وصل موكب القارورة المقدسة إلى باب الكنيسة الكبرى التى سيجرى فيها التتويج ، ودخل منه رئيس الأساقفة ، أنشد الجمع الحاشد أنشودة دينية ، وكانت الكنيسة مزدحمة بالناس ، وترك فى وسطهم مكان خال ، دخل إليه رئيس الأساقفة وقسسه ، يتبعهم الخمسة

النبلاء فى زيهم البديع ، يمتطون صهوات جيادهم . وقد وصلوا راكبين إلى مقربة من صدر الكنيسة ، وهناك أمرهم رئيس الأساقفة أن ينصرفوا ، وعند إشارته لهم بذلك انحنوا احتراماً حتى مست رياش قبعاتهم رقاب الجياد ، وتراجعوا إلى الوراء حتى الباب ثم انصرفوا .. .

ومرت بضع دقائق والجمع الحاشد فى الكنيسة صامت ساكن كأن على رؤوسه الطير . وبعد ذلك دقت الطبول دفعة واحدة ، وشوهدت جان والملك يقبلان فى خطى هادئة ، ولا تسل عن انفجار الجمع بالهتاف ، وعزف الموسيقى ، وارتفاع الحناجر بالأناشيد .. !!! وكان من خلف جان والملك الأمراء والنبلاء والقواد العظام . ولما وصل الملك الى المكان المعد للتتويج بدأت مراسم الاحتفال ، وكانت طويله فخمة ، من صلوات وأناشيد وخطب وغير ذلك من المظاهر الكنيسية . و وقفت جان إلى جانب الملك طول المدة وعلمها منشور فى يدها . وفى النهاية أقسم الملك اليمين القانونية ، ومسح بالزيت المقدس ، وتقدم اليه حامل التاج و ركع أمامه فتناوله الملك بكلتا يديه ووضعه على رأسه .

وفى هذه اللحظة ضج المكان ضجيجاً يصعب وصفه ، فالدنيا تجيش بالهتاف والصياح والترانيم ، وكل هذا مقرون بنغمات الموسيقى العالية وصلصلة النواقيس الرنانة .

وهاهى قد صحت الأحلام ، وتحققت النبوءة نبوءة القروية الساذجة

جان دارك ! فانكسرت شوكة الانجليز ، وتوج ولى العهد الشرعى ملكا على فرنسا .

ولا حاجة إلى التوكيد أن جان كانت أسعد مخلوقة فى تلك اللحظة التى تحققت فيها رسالتها . وتقدمت جان بين يدى الملك ، والآن نقول الملك بحق ، وكذلك قالت جان ولم تقل « الدوفين » ولن تقولها مرة أخرى ! ثم ركعت أمامه والدموع تسيل من مآقيها ، وشفتاها ترتجفان لا من اضطراب ولكن من فرط ما تولاها من الفرح ، وقالت له فى عبارة هادئة وصوت خفيض متهدج :

« الآن أيها الملك الرحيم ، تمت رسالة ربى أن تجىء إلى ريمس »
« وتلبس التاج الذى هو لك بحق وليس لأحد سواك . ولقد أنجزت »
« ما ندبت له من عمل . فألتمس منك أن ترضى عنى وأن تسمح لى »
« بالعودة إلى أمى أواسيها فهى عجوز ومحتاجة الىّ »

فتقدم اليها الملك وأنهضها ، ثم شكر لها عملها المجيد فى عبارات سامية ، ثم أيد انعامه عليها برفعها الى مصاف الأشراف وما منحها من رتب وألقاب ثم قال « لقد أنقذت التاج فتكلمى وتمنى ما تشائين فانى معطيك كل ما تطلبينه ولو كان فيه فقر المملكة بأسرها ... ! »

وعندئذ جثت جان بين يديه ثانية ثم قالت :

« لو شاء جلالة الملك الرحيم أصدر أمره الكريم باعفاء قريتى

دومريمى التى أفقرتها الحرب من دفع الضرائب » .

— « لك ما تريدين »

— « ثم ماذا » ؟

— « هذا كل ما أريده يا مولاى . . . »

ولم يستطع الملك على كثرة محاولاته أن يجعلها تطلب أكثر من هذا ! وكانت دهشة الملك عظيمة . . . ثم أخذ يتمتم كأنما يتحدث الى نفسه « لقد ربحت مملكة عظيمة ، وتوجت ملكها وكل ما التمسته هو هذا الشيء الزهيد ! وليست لها فيه منفعة ذاتية ، بل طلبته من أجل آخرين حقا هذه هى القناعة التى تتناسب مع عظمتها وعظمة ما قدمت لبلادها من عمل . . ! » ثم أصدر أمرا رسميا باعفاء « دومريمى » من الضرائب مدى الحياة . وبقى أمره محترما نافذا الى أن جاءت الثورة الفرنسوية التى قلبت الأنظمة كلها فى فرنسا .

وفى الساعة الثانية بعد الظهر تمت احتفالات التتويج وخرج الملك وجان من الكنيسة على رأس الموكب وسط الهتاف البالغ عنان السماء . وهكذا انتهى ثالث يوم من أيام جان دارك العظيمة . وكان الأول على ما يذكر القارىء يوم ٨ مايو . والثانى يوم ١٨ يونيه ، والثالث يوم ١٧ يوليه . أى يوم رفع الحصار عن أورليان ، ويوم واقعة « بتاى » ويوم التتويج فى « ريمس » ثلاثة أيام غراء محجلة ، خالدة على الدهر باقية !!

طريق التضحية

التمست جان من الملك بعد الانتهاء من مراسم التتويج مباشرة أن يأذن لها فى العودة إلى أمها وقريتها .

ولكنها لم تعد !

ولم تر والدتها وقريتها بعد أن غادرتهما أول مرة !

ترى ما السبب ؟ !

ولماذا لم تعد جان إلى قريتها تستأنف فيها حياة الهدوء وراحة الضمير ؟

نعم ! لماذا لم تعد حتى كانت توفر على الانسانية ماعانته من مرارة من جراء ما نزل بها من شدة وما أصابها من هول ؟ !

لقد أتمت رسالتها ، وأنقذت وطنها ، وكسرت شوكة العدو الغاصب ، وبلغت من النصر ذروته ، وكسبت من الفخر أقصى غاياته

ونعود فنكرر التساؤل لماذا لم تؤب جان إلى قريتها ؟ !

لم يكشف السر فى عدم عودة جان إلى قريتها بعد إتمام رسالتها على وجه اليقين أبداً . وذهب المؤرخون فى تأويل ذلك مذاهب شتى ـ وعللوه بأسباب ترجع كلها إلى اجتهاد المؤرخين فى الاستنباط أكثر مما ترجع الى حقائق تاريخية أو حوادث معلومة ـ

علّل البعض بقاءها بعوامل نفسية ، والعوامل النفسية لا تدون ولا تحملها صفحات التاريخ . وذهب البعض إلى أن الملك هو الذى استبقاها لكى تتم عملها الحربى ، ولكى تطارد الانجليز إلى النهاية ، وإلى أن يجلو آخر جندى لهم عن أرض الوطن . وعارض هذا الرأى فريق آخر من المؤرخين بحجة أن الملك وهو من الضعف الجثمانى والخلقى بمقدار ما نعلم ، كان لا يزال واقعا تحت نفوذ لاتريموای مستشاره الأول ورينولت دى شارتر رئيس الأساقفة . وهذان الكبيران كانا يكرهان جان رغم ما قامت به من جلائل الأعمال ، لأن وجودها أكبر هادم لنفوذهم وفاضح لدسائسهم . يدلك على هذا وقوفهم لها بالمرصاد ، وتعقب حركاتها وسكناتها بقصد إحباطها والعمل على فشلها على النحو الذى تقدم لك بيانه .

تلك كانت ظروف الحال مع رجال الحاشية . فكيف يعقل أن يكون الملك هو الذى استبقاها ؟

و يرجح البعض أن جان و إن كانت قد أتمت رسالتها إلا أنها عادت فأحست أن الغرض الأسمى من عملها لم يتحقق بعد ... لأن الانجليز كانوا لايزالون يحتلون باريس عاصمة المملكة وما حواليها ، ولا شك أن جان كانت تعلم أن من يحتل عاصمة قطر من الأقطار يعتبر مالكا له حتى يضطر الى الجلاء عنه ... فلا غرابة اذن فى عودة جان للعمل الوطنى من

متابعة للعدو ومطاردةٍ له حتى تطهر البلاد منه ومن عدوانه عليها.

والواقع أن العقل لا يصدق أن فتاة فى سن السابعة عشرة ، تمكنها ظروفها ، وحسن طالعها ، من تولى قيادة جيش بلادها ، والسير به من نصر إلى نصر ، والتمتع بلذة الظفر على الأعداء في مختلف الميادين ، من سياسة ، ودينية ، وحربية ، تقبل بعد كل هذا أن تعود الى قريتها لكى تعيش فيها عيشتها الفاترة الخاملة.

ولا يعدو في نظرنا ما قالته للملك ، بعد الانتهاء من تتويجه ، فى شأن عودتها الى أمها وقريتها ، أن يكون فيضا من فيوض النفس البشرية ، يتملكها عند نشوة النصر وتحقيق الأمنية ، ثم لا تلبث أن تعود الى طبيعتها الأولى ... وطبيعة جان كانت تقضى عليها بمواصلة الجهاد ما بقى العدو على أرض الوطن . مواصلة الجهاد ، ومطاردة العدو الى النهاية ، ودخول الملك باريس عاصمة المملكة ، هى الأغراض التى تستهوى لب مجاهدة بطلة كجان دارك ... ! أما العودة الى الريف ، والى ظل الشجرة ، والى رعى الغنم . ومعاودة التطريز . فكلها أمور ما كان يمكن أن تجد لها فى هوى جان حيزا تشغله ، أو فراغا تملؤه بعد كل الذى جرى لها من المخاطر والمغامرات . وما خاضته من الصعاب .

وسواء أكان هذا أم ذاك من الأسباب هو الذى استبقاها . فقد بقيت حتى يقضى الله أمره فيها .

ويحسن أن نشير هنا الى أن رسالة جان التى أوحى بها القديسون اليها كانت - كما ظلت ترددها الفينة بعد الأخرى - تنحصر فى ذهابها الى الدوفين (Dauphin) وانقاذ أورليان . ثم تتويج الملك فى « ريمس » . ! لم تزد رسالتها المقدسة على هذا الحد . ولم تتجاوز تلك الغايات . وكانت جان تردد أيضا أن المهلة التى منحتها لتتم رسالتها فيها لا تتجاوز السنة الواحدة . ومن ثم كانت قلقة كلما قامت فى سبيلها العراقيل أو تلكأ ولى العهد فى السير طبقا لخططها أو تردد فى إنفاذ رأيها

وكذلك تحسن الاشارة الى أن جان لم تستشر « أصواتها » فى أمر بقائها بعد التتويج أو عودتها الى سيرتها الأولى . وهى التى ما كانت تبرم أمرا إلا بعد أن ترجع الى « أصواتها » فيه . تُرى جاء ذلك منها عفواً أم قصدا ؟ هذا سؤال لا يستطيع مخلوق أن يعرف وجه الصواب فيه . وكل ما يمكن ذكره فى هذه الناحية هو أن عدم استشارة جان «للأصوات» فى أمر البقاء أو العودة ليس معناه البتة قطع صلاتها بها .. فقد استمرت الأصوات حتى آخر نسمة فى حياتها تناديها كلما أعوزتها ومست الحاجة اليها . استمرت تشجعها عند ما كان الأمر يستدعى التشجيع . وظلت تواسيها عند ما كانت حالها تستوجب المواساة ...

بل لقد نبهتها الأصوات إلى ما كان ينتظرها من خطر . والى ما يجب عليها أن تقابله به عند وقوعه كما سيأتى بيانه .

ومن الغريب أنه فى الفترة التالية من حياة جان دارك ظهر كثيرون ادعوا الوحى والولاية والعلم بالغيب . وكانوا فى ادعائهم مقلدين لجان ، منافسين لها . ولكنهم على رغم ما اجتمع لهم من أنصار فشلوا في دعواهم ، ووقعوا فرائس فى قبضة الكنيسة ، ولقوا على يديها ما أعد لأمثالهم من « الملحدين » و « السحرة » .

ومن هؤلاء الأولياء الذين اشتهروا بين قومهم « الأخ ريتشارد » Richard » وكان خطيباً مؤثرا حمل الجماهير على الاعتقاد بقرب « يوم القيامة » فخلع كثير منهم رداء الترف والمظاهر الدنيوية، وتفرغوا للعبادة ، وانصرفوا الى حياة الزهد والتقشف . وقد قابلت جان « الأخ ريتشارد » هذا مرتين أولاهما فى مدينة « تروى » والأخرى على اللوار عند عودتها إليه .

وأدعت الوحى إمرأة تدعى « كاترين دى لاروشل » Catherine de la Rochelle وكانت رسالتها غريبة ولكنها حببت فيها الملك وذلك أن دعواها كانت فى أنها أرسلت لكى تملأ خزائن الملك ذهبا ..!! وبطبيعة الحال قربها الملك اليه ، ورحب بها فى بلاطه ، ولكن ذهبها لم يتحقق . وكانت فوق هذا برجندية النزعة

أى تدعو إلى سياسة المسالمة بين ملك فرنسا وقريبه دوق برجنديه حليف الانجليز . ولهذا السبب كرهتها جان وقالت مرة « ردوا تلك المرأة إلى زوجها ودعوها تعنى بأطفالها فذلك أجدر بها »

واشتهر من أولياء ذلك الزمن سيدة أخرى تدعى « كولت Collette وشاع عن « كولت » هذه كثير من « الكرامات » وكانت تسير فى الطرق فى ثياب خَلقةٍ وخلفها أتباع كثيرون .

وظهر ولى آخر اسمه « وليم الراعى » ادعى الوحى وتلقى الرسائل من السماء ، وذاع صيته فى كل الأرجاء ، ولكن الكنيسة لم تدعه يستمرىء شعوذته ، وسرعان ما لاقى حتفه بالقائه فى نهر السين حيث مات غرقا .

وفى الواقع أن « أدعياء » الوحى والولاية قد كثروا فى زمن جان دارك . ولم يكن ظهورهم أو كثرتهم بالأمر المستغرب لأن طبيعة التفكير وعوامل البيئة — بيئة القرون الوسطى - كانت تسهل بل تدّعو الى وجود هؤلاء الأدعياء .

لكن شتان بين جان دارك « وأصواتها » وبين هؤلاء الأدعياء . ! جان لم تدع فى يوم من الأيام أن لها قدرة خارقة ، أو أنها جاءت لتقوم بالمعجزات ، بل حصرت دعوتها فى غرض واحد وغاية محدودة

وهى « إنقاذ الوطن بانقاذ الملك . » غاية وطنية سامية وغرض عملى شريف . وليس معنى هـــذا القول انكار ما نسبه الكثيرون من المعجزات لجان ، ولكن جان كانت تنكر دائماً أن لها « معجزات » أو أنها أرسلت لتقوم « بمعجزات » كالتى ادعاها المشعوذون من أبناء عصرها لأنفسهم . كانت جان وطنية مجاهدة بكل مافى كلمة الوطنية من معنى . وكل مافى أمرها من غرابة ، أنها كانت وطنية بالمعنى الذى يعرفه أهل القرن العشرين لا أهل القرون الوسطى .

ولننتقل الآن الى إتمام مابقى من سيرتها .

عقد الملك بعد انقضاء حفلة التتويج بأيام قلائل « مجلساً حربياً » لكى يقرر الخطة التى تتبع بعد ما وصل اليه من النجاح ، وتحقق الغايات التى « أرسلت » من أجلها جان .

وكانت أبسط الأصول الحربية تقضى على الملك بأن يتابع انتصاراته و يطارد عدوه حتى يدخل باريس عاصمة ملكه .

ولكن دوق برجندى اتفق مع حليفه بدرفورد فى اجتماع عقد بينهما فى باريس فى ١٥ يوليه أى قبل ان يتم تتويج الملك شارل فى « ريمس » بيومين على أن يدافعا عن باريس دفاع المستميت ، ولكنهما فى الوقت نفسه أرادا أن يأخذا الملك شارل بالخب والخديعة ، لكى يكسبا وقتا ينظمان فيه صفوفهما ، ويردان فيه شيئاً من الثقه الى نفوس

جنودهما الذين وصلوا الى حد من الأعياء والأنهاك جعلهم يفرون أمام الجيش الفرنسى فرار النعاج أمام الذئب لا يلوون على شىء متى ظهرت لهم جان على رأس الجيش المهاجم (١)

تلك كانت السياسة التى بيتها خصوم الوطن الفرنسى ! و بطبيعة الحال اختار أولئك الخصوم أداة لمكرهم، وآلة لدسهم، المستشارين لملك فرنسا لاتر يمواى و زميله ر ينولت دى شارتر رئيس الأساقفة. وقد علمت من امر ضعف الملك ما علمت، فضلا عن انه كان مثقلا بالديون المالية التى اقترضها من لاتريمواى فكان بسبب ضعفه ودَينه ألعوبة فى يده

أخذ المستشاران و رجال البلاط من اتباعهما يزينون للملك، وقد تم له تتويجه وأصبح ملك البلاد الشرعى، أن يعدل عن سياسة الحرب الى سياسة المفاوضة ! والمستشاران كفيلان بأن تسلم له باريس من غير حرب أو قتال . . . !

وفى بادىء الأمر مال الملك طوعا أو كرها إلى الأخذ بمشورتهما وكاد يمضى أمره بما أشارا به

وهنا تقدمت جان يؤيدها المخلصون من القواد تعارض مشورة

---

(١) كتب احد المعاصرين لجان دارك واسمه (Alan Chartier) الى أحد الامراء فى اواخر يوليه سنة ١٤٢٩ يصف فزع الجنود الانجليزية فقال « لقد اصبح الجند الانجليزى كالنساء واصبح قوادهم وكانهم قد شد وثاقهم فهم لا يبدون حراكا »

لاتريموای وزميله ومن لف لفهما . وأهابت بالملك أن يستأنف مطاردة العدو ، ومتابعة الهجوم عليه ، وهو لا يزال فى سكرات الهزيمة وذل الانكسار مرددة عبارتها المشهورة « لا يتحقق السلم إلا على أسنة الرماح ..! » .

وقامت حرب عوان فى بلاط الملك بين سياسة المخاتلة والدس بل سياسة الهزيمة والتردد التى كان بطلاها لاتريموای وصاحبه . وبين سياسة الصراحة والحزم والجهاد إلى النهاية ممثلة فى جان دارك .

وفى نهاية الأمر تغلبت حجة جان ، وانتصرت سياستها على سياسة أعدائها . وسرعان ماصدرت أوامر الملك بالزحف على باريس... وما كادت جان تسمع أمر الملك حتى أصدرت هى الأخرى أوامرها إلى القواد بالاستعداد فورا للسير نحو باريس . وما إن رفعت راية الجهاد حتى هرع الأقوام وتسابقوا الى الانضمام الى الجيش الذى يحشد للزحف على باريس ... !

وفى هذه الآونة كانت جان قد كتبت الى دوق برجندى خطابها المشهور « المؤرخ ١٧ يوليه سنه ١٤٢٩ بمدينة ريمس » والذى تقول فيه ... « أرجوك بل أضرع اليك بكل خضوع أن تقلع عن محاربة مملكة فرنسا المقدسة ، وان تسحب على الفور جندك من القلاع

والحصون الواقعة فى داخل حدود تلك المملكة . وعليك أن تعلم أن كل حرب تشنها ضد فرنسا إنما هى حرب ضد ملك السموات والأرضين ، وإن كان لا بد لك من حرب فلتوجه قواتك إلى الشرق الخ . . . » .

وغضب لاتريموای غضبا شديداً لما باءت به سياسته من الفشل ، ولكنه لم ييئس ، وأخذ يواصل دسه بالليل وبالنهار مهددا متوعداً بالويل والثبور .

ولما كملت الاستعدادات أمرت جان بالزحف ، وتقدمت القوات نحو باريس ، وعلى رأسها جان ، ومعها الملك وبجانبه لاتريموای .

وفى سنت ماركول ، وهى بلدة تبعد ستة فراسخ عن باريس ، توقف الملك عن السير ثلاثة أيام متتابعات ... ولماذا توقف الملك ؟ سل دسائس لاتريموای تخبرك اليقين . أخذت دسائسه تفعل فعلها ، وتؤتى أكلها ، فتوقف الملك لغير سبب معروف عن متابعة السير ...! وكانت ثلاثة أيام ذهبية عرف الانجليز كيف يستفيدون منها ...! وتقدمت جان للملك تتوسل وترجو بالحاف استئناف السير قائلة « إن كل دقيقة تضيع فى التأخير هى دقيقة يكسبها العدو فى الاستعداد وبث روح المقاومة ..! » وأخيرا تمكنت من اقناعه باستئناف الزحف ولعلها تمكنت من اقناعه فى لحظة كان فيها لاتريموای بعيداً عنه ...

لأن هذا الاقتناع كان الى الرغبة فى التخلص من الحاح جان أكثر منه اقتناعا صحيحاً بصواب ما تدعوه اليه . ومن مجرى الحوادث يتحقق لديك صدق هذا النظر .

استأنف الجيش المسير ، وفى ٢٥ يوليه التقى الجيشان ، جيش جان دارك وجيش الانجليز . وتظاهر الجيش الانجليزى بالاستعداد للقتال والطعن والنزال ! ولكنهم لم يكادوا يشعرون بوجود جان حتى استحوذ عليهم الرعب ، وارتدوا إلى حصون باريس مولين فى غير نظام .

ولم يبق أمام جان إلا ملاحقة العدو والاستيلاء على باريس من أهون سبيل .

ولكن ! نعم ولكن ! ! هنا قدر للشيطان أن ينتصر . نعم قدر للدس أن يثنى الملك عن مد يده واقتطاف أثمن ثمرة فى حديقة ملكه ، اقتطاف باريس عاصمة المملكة وبيت الملك ... !

هنا وعلى أبواب باريس ، والعدو منهزم موكوس ، يقف الملك ويرتد إلى الوراء ... ! نعم ارتد إلى الوراء ، بعد أن عقد هدنة مع دوق برجندى لمدة خمسة عشر يوما « تسلم له بعدها باريس من غير حرب أو قتال .. !! » . هكذا خدع الملك ، وكان خادعه وسارق لبه «لاتريموای» مستشاره الخائن الذى ما فتىء يزين له الرضا بالمفاوضة ، ويفسد عليه

أمره بافهامه أن باريس يمكن أن تسلم له من غير حرب أو قتال .

وفى هـذه المرة تمكن لاتريموای من حمل الملك على توقيع عقد الهدنة بينه و بين دوق برجندى فى منطقة باريس لمدة ١٥ يوما تسلم فيها باريس بشرط أن يتراجع بالجيش إلى مدينة « جين » ..!!

وقد وسع عقل الملك كل هذا السخف . وجاز عليه أن الارتداد إلى الوراء يمكن أن يترتب عليه تسليم العدو طائعاً مختارا لعاصمة الديار ..!!

وأمر الملك أن يتراجع الجيش طبقاً لشروط الهدنة إلى « جين » « وجين » كما يعلم القارىء الآن هى المدينة التى بدا منها زحف جان المشهود على مدينة « ريمس »

وماذا كان موقف جان دارك من أمر الهدنة ؟

كادت تتميز من الغيظ والحزن ، إذ ليس أبلغ فى إيلام النفس الشريفة من أن يفسد عملها الصالح أهل الدس والخيانة . . .

كانت جان ، قاب قوسين أو أدنى ، من الوصول إلى غايتها ، والاستيلاء على عاصمة الملك مواجهة فى ذلك قوات انجلترا وبرجندية مجتمعة ، وكانت تمنى نفسها بين لحظة وأخرى بضرب أعداء بلادها الضربة القاضية ، وهى جد موقنة بانتصار نهائى فاصل . .

وهنا تأخذها الخيـانة على غرة ، وتقضى على آمالها مفاجأة ، وتأتيها الخيانة من ناحية كانت تقضى أبسط قواعد المروءة والرجولة ، دعك من قواعد الوطنية والسياسة ، بتأييد جان وشد أزرها ، لأنها هى الناحية الوحيدة التى كانت ستنعم وتغنم نتيجة النصر . وكأنه لم يكن يكفى جان مناجزة انجلترا وبرجندية مناجزة علنية مكشوفة ، حتى تدبر ضدها تلك المناوأة الخفية من خلفها .

وإن عجبت لشىء فاعجب لذلك المخلوق الضعيف جسما وإرادة ، والذى أصبح كالدمية بين يدى مستشاره الخـائن يلعب به لعب الصولجان بالـكرة ، يقلبه شمالا ويمينا وهو لا يملك لنفسه أمرا . ذلك المخلوق الذى أصبح بفعل المـكر والخديعة يرضى من الغنيمة بالاياب ذلك هو الملك شارل السابع الذى توجته جان فى ريمس بالأمس ، وجعلت منه ملـكا شرعيا تدين له البلاد بالولاء والطاعة ، بعدان كان شريداً طريداً يوشك ان يفر من البلاد يأساً ورعباً . . .

غضبت جان وحق لها أن تغضب من عقد تلك الهدنة من خلف ظهرها فى غير فائدة مضمونة إلا للعدو يجمع فيها شمله ويجبر كسره . . .

ولـكن ماذا تفعل جان وقد أصبحت أمام الأمر الواقع ، وهو توقيع الملك للهدنة !!

هنا ظهرت جان بمظهر رائع من الـكرامة والشرف . وذلك

أنها قامت بتنفيذ أحكام الهدنه تنفيذاً دقيقا ، إذ لم تشأ أن تعرض مليكها للسخرية ، مهما كان اعتقادها فى خطله وسوء تصرفه بقبوله عقد الهدنة . ! ! وهكذا النفس الأبية لا تنزل إلى درك الدس والمكر السيئ فتقابله بمثله ، بل تبقى دائماً فى مستواها الرفيع شريفة نزيهة لا تنزل عن مستواها مهما ضايقتها نذالة الأنذال أو خبث الخبثاء .

وفي أثناء الارتداد طبقا لشروط الهدنه ، كانت بعض البلاد خارج منطقة الهدنة لا تزال فى أيدى العدو ، فأخذت تسلم تباعا لجان للملك . ومن هـــذه البلاد مدينة بوفيه Beauvais ، التى أرسل لهـا الملك رسله تدعوها للتسليم ، وكان أسقفها « بييركوشون Pierre Couchon » مواليـا للانجليز ، مؤيدا لدعواهم فى عرش فرنسا ، ولـكنه لم يجرؤ على رفض تسليم المدينه ، وخرج منها مغضوبا عليه لا يلوى على شئ . وستسمع عن هـذا الأسقف الشئ الـكثير فيما بعد . . . ولنكتف الآن في أمره بهذا القدر ! ؟ ومن المدائن التى سلمت لجان فى تلك الفترة ، مدينة « كومبين » Compiegne وهى من أمهات المدن الفرنسية .

وكان « بدفورد » الوصى على ملك انجلترا ، قد تظاهر بالاستعداد للدخول مع الفرنسيين فى معركة فاصلة حول « كومبين » . ولـكنه فى صباح اليوم الذى تظاهر بالاستعداد لخوض المعركة فيه ، ركن إلى

الفرار ، ودخلت جان « كومبين » فى ١٨ أغسطس ، ورفعت عليها العلم الفرنسى ، بعد أن طردت منها الحامية الانجليزية .

وفى ٢٣ أغسطس كانت مدة الهدنة قد انقضت ، فأمرت جان بمعاودة الزحف على باريس . وهنا أظهر الملك وحاشيته امتعاضهم من الأمر !!! وارتدوا إلى مدينة « سنلس Senlis » . والقارىء لا يحتاج إلى كبير عناء فى معرفة سر امتعاض الملك وحاشيته من معاودة الزحف على باريس مادام يعلم أن على رأس الحاشية « لا تريموای » صنيعة البرجنديين حلفاء الانجليز .

وفى هده الفترة أخذت المدن تسلم للجيش الفرنسى تباعا ، وتولى عنها حامياتها الانجليزية فرارا ، ولكن بالرغم من هذه الانتصارات قعد الملك فى مدينة « سنلس » متسخطا متبرما باقدام جان على مهاجمة الانجليز فى باريس ، لأنه كان — تحت تأثير وهمه القديم - يعتقد ، على رغم كل ما رآه وسمعه من أعمال جان ، أن الانجليز فى باريس لا يهزمون . وهو لاشك كان متأثرا فى اعتقاده هذا بما كان يلقيه فى روعه عنهم مستشاره السوء .

أما جان فقد سارت تتابع انتصاراتها حتى بلغت « سنت دينس St. Denis » فى ٢٦ أغسطس سنة ١٤٢٩ ، ومعنى هذا أنها أصبحت على أبواب باريس . واستمر الملك (جامدا) فى مكانه في « سنلس »

بالرغم من الرسل التى كانت تجيئه من جان تدعوه للتقدم إلى مقر الجيش . وضاعت تسعة أيام كاملة فى تردده وتمنعه ووعده الرسل بالحضور وهو لا يحضر ، وأخيرا أمكن اقناعه بالسير إلى « سنت دنيس » ووصل إليها فى ٧ سبتمبر سنة ١٤٢٩ . وكان لتأخير الملك فى الوصول إلى مقر الجيش بعد ان وصل تحت أسوار باريس أثره الفعال فى تغيير الموقف الحربى ، فبعد أن كان الانجليز لا يجدون منجاة لهم إلا فى مغادرة المدينة والارتداد الى نورمنديه آخر مقاطعة فى فرنسا بقيت على ولائها لهم ، ولأنها من جهة أخرى أقرب المقاطعات إلى بلادهم الأصلية ، عادوا فانتهزوا فرصة تردد الملك وتباطئه ، وأخذوا يستعدون للدفاع عن المدينة ، ويبثون روح المقاومة فى الجند مشيرين الى تردد الفرنسيين وإحجامهم عن الهجوم .

وبعد وصول الملك أمرت جان بالهجوم وحددت للبدء فيه الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى . وكانت جان على رغم الضرر الذى نشأ من تقاعس الملك عظيمة الثقة فى النصر ، واقتحام أسوار المدينة ، ودخولها ظافرة من غير خسارة تذكر .

وفى الساعة المحددة للهجوم بدأ الجند بمحاولة اقتحام باب « سنت أونوريه St Honoré » وبينما هم على وشك النصر ودخول باريس ، أصاب جان سهم ! ! فكان هذا السهم نذير الارتداد والتقهقر ، لأن

الجند الفرنسيين تخاذلوا لما رأوها جريحة ، ونكصوا على أعقابهم وجلين !. وأبت جان كعادتها أن تترك حومة الوغى على الرغم من إصابتها القاتلة ، وأمرت الجند بالثبات ومواصلة الهجوم فقد أصبحوا على أبواب النصر النهائى . وهنا تقدم القائدان « دالنسون »و«جانكور» وحملاها قسرا خارج المعمعة وهى تصيح بالجميع « يجب أن نأخذ باريس أو نموت دونها !!! » .

وصممت جان ، بالرغم من جرحها ، أن يعود الجيش لمواصلة الهجوم فى بكور اليوم التالى . وما كان هناك أدنى شك لدى القواد فى استيلائها على المدينة فى أقل من نصف ساعة كما وعدت لو أنه أتيح لها أن تواصل هجومها كما عزمت .

وفى اليوم التالى لم يبدأ الهجوم على باريس كما وعدت جان لأن الملك أبى عليها مواصلة الهجوم ...

قد يتبادر إلى ذهن القارىء أن إباء الملك وحيلولته دون الهجوم يرجعان إلى شفقته على جان قائدة جيشه الجريحة ، أو لنفوره من مجازفتها بحياتها وحياتها كما مر بك أثمن ما كان لديه قنية ، فتكون ممانعته حبا فى عدم تعريضها للخطر ! كلا ! ليست عوامل الانسانية ، ولا الأصول الحربية ، هى التى دعت الملك إلى وقف الهجوم على باريس ، إنما جاء الوقف نتيجة دأب « لاتريموای » على مساعيه

الخفية فى حمل الملك على عدم القتال والأخذ بأسباب المفاوضة مع العدو ، مزينا له أنه لا فائدة من القتال على شىء يمكن نيله بدونه .. حجة فارغة ، وخيانة بارزة ، خضع لها الملك لا لاستكانته بل لخوفه من مستشاره صاحب السيطرة على عقله وجسمه وجيبه .

إذن لم يبدأ الهجوم على باريس فى الصباح الباكر كما أرادت جان لأن الملك ، كما اتضح ، كان قد وقع هدنة ثانية أطول من الهدنة الأولى ، تتلخص شروطها فى وقف الهجوم على باريس والعودة الى اللوار ثانية ... ويحصل هذا فى مقابل وعود خلابة ، وألفاظ جوفاء وردت فى عقد الهدنه . ولكن الثمن الحقيقى لهذه الهدنة قبضه « لاتريموای » من دوق برجندية (وقبضه) دراهم معدودة ... !!! وهكذا كانت تباع الأوطان ، ويشترى النفوذ في تلك الأيام الخالية ، والعهود المندثرة .

وكان وقع خبر الهدنة الثانية على جان أليما أشد الألم . وباعثا على الهم والغم . ولا يحتاج القارىء الى وصف مقدار ما استحوذ عليها .. فقد جاء خذلان الملك لها . وهى على باب النصر تمد يدها لاقتطاف ثمرته ... ، فأثر ذلك فيها تأثيرا بليغا ، حتى أنها ذهبت الى الملك . بعد أن خلعت درعها الأبيض وعلقته فى كنيسة « سنت دنس » والتمست منه أن يخليها من القياده العامة ، حتى تعود إلى قريتها وأهلها .

ولـكن الملك أبى عليها العودة فى هذه المرة إباء صريحا بحجة أن الهدنة لا تشمل فرنسا كلهـا ، وأن هناك حصونا وقلاعا لا تزال تحتاج إلى جهدها وعنايتها .

ولم تـكن رغبة الملك فى استبقائها هذه المرة بريئة من دس « لا تريموای » لأنه خشى أن يتركها حرة فى حركاتها ، وهى صاحبة النفوذ العظيم على الجماهير وعلى الجند ، فيلتفوا حولها ، و يعاودوا الـكرة فى الهجوم على باريس ، حيث لا يكون للملك قدرة على الحيلولة بينها و بين ما تريد . ولهذا السبب حملها الملك على البقاء ليضمن تعطيلها وليحتاط لجميع حركاتها ، ويستطلع كل نياتها .

وفى هذه الأثناء عادت « الأصوات » إلى منـاجاة جان ، تأمرها بالبقاء في « سنت دنس » . وفى الحال أعلنت جان رغبتهـا فى البقاء طوعا لأمر « أصواتها » لأنها لم تخالف لها قط أمرا . . . وهنا أدرك « لاتريموای » أن ترك جان حيث أرادت ، وعلى مقربة من باريس ، أمر له خطورته ، وقد يفسد عليه « هدنته » . فألح على الملك أن يرفض بقاءها فى « سنت دنس » بالرغم من أمر « الأصوات » لها بالبقاء ، ولو أدى الأمر إلى استعمال القوة المـادية فى حملهـا على السـير معهم أنى ساروا ..!! وكانت جان لا تزال تتألم من جرحها فلم تستطع المقاومة وانتقلت رغم أنفها إلى اللوار ، وعادت إلى جنوبى فرنسا . . .

وكانت هذه أول مرة خالفت جان أمر « أصواتها ... ! »

وفى يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٤٢٩ أخذ الجيش الفرنسى فى الارتداد تغشاه الكآبة ، ويغلبه الحزن من جراء هذا التقهقر غير المنتظر ... وعند ما وصل الجيش الى مدينة « جين » فى ارتداده ، أمر الملك بتسريحه . وكانت تلك عاقبة الخيانة والدسيسة ، يسرح الجيش والعدو لا يزال رابضا فى عاصمه الملك ، يستجمع قوته ، ويلم شعثه لخوض المعركة من جديد . . .

ألا لعنة الله على القوم الخائنين ... !!

ومضت ثمانية أشهر فاترة كان اليوم فيها يمر على جان كأنه دهر ، فقد أخذ الملك يتنقل من بلد إلى بلد ، ومن قلعة إلى أخرى ، وحوله حاشيته تتمادى فى إسرافها وخلاعتها . جرى كل هذا وجان منصرفة إلى التفكير فى مصير الأمور ، وكلما أمعنت في التفكير ، تبدى لها مبلغ إجرام الحاشية ، وانصرافها عن الطريق السوى ، وتفشى الفساد بين أفرادها .

وأخيرا ضاقت جان ذرعا بحياة المجون واللهو التى انصرفت إليها الحاشية ، بينما العدو الغاصب لا يزال يدنس أرض الوطن بقدميه ، ويستعد لاسترداد ما فقد من بلدان ، وما خسر من كرامة ونفوذ .

لم تطق جان صبراً على هذه الحال ، وما كان لها أن تطيقها ، وهى

الشعلة المتقدة ، والشباب المتحمس فى سبيل الله وفى سبيل الوطن . !
فاتصلت بالقواد سرا على أن تعاود الهجوم ، وتقاتل العدو أنى تقفته ، فوافقها زميلها النبيل الدوق دالنسون على ما اعتزمت وكان الوحيد من بين القواد الذى رضى عن خطتها الجديدة ووقف الى جانبها الى النهاية : ومن ثم أخذت جان تؤلف جماعات من المتطوعين تخرج بها لقتال العدو فى أى مكان تجده فيه . . .

وقوع جان فى الاسر

وصارت جان تقتفي أثر العدو ، وتضربه ضربات موفقة . وكانت تتولى قيادة الجماعات التى كانت تؤلفها ، مجردة عن كل صفة رسمية . فلا هى كانت « القائد العام الجيوش جلالة الملك » كما كانت تلقب فى حروبها السابقة ، ولا هى كانت تقوم بحرب نظامية بالمعنى المفهوم من كلمة حرب . بل كانت حملاتها أشبه ما يكون بمااصطلح المؤرخون على تسميته « بحرب العصابات » لأنهاخرجت تقاتل العدو أنى وجدته وتهاجمه وتطارده أنى تقفته ..

وفى الأسبوع الثالث من شهر ابريل ١٤٣٠ كانت جان مع فرقتها فى « ميلون Melun » وبينما هى تدبر وتنظم عمل الفرقة جاءتها « الاصوات » ، وجاءتها هذه المرة تحمل لها النذير بما يخبئه لها المستقبل القريب . . . أنذرتها بأنهاستقع أسيرة فى أيدى العدو قبل عيدالقديس « يوحنا المعمدان » . . ! ؟ وطلبت منها الأصوات ألا تجزع للأمر وأن تستقبل الأسر برباطة جأش وثبات جنان لأن الله سيكون معها . .

وبالرغم من هذه النصيحة كان وقع الانذار عليها شديدا ، واضطربت له ، وجزعت منه ، وسألت « الاصوات » فى لهفة عما اذا كان موتها يجىء بعدالأسر مباشرة ، أو يسبقه محاكمات طويلة شاقة ،

ومايتبعها من السجن وعـذابه المضنى ...! ودلت جان بسؤالها على أنها لم تكن تخشى الردى إذا عاجلها وانما تخشى عذاب السجن المهين .

وقد أجابت « الأصرات » على سؤالها قائلة

"Ne t'ebahis pas et prends tout en gré, Dieu t'aidirai "

ومعناه « لا تأخذنك الدهشة وتقبلى كل شىء بالرضى ، فأن الله فى عونك . »

وتركت « الاصوات » جان من غير أن تحـدد لها تاريخا معينا لوقوعها فى الأسر سوى العبارة المبهمة الخاصـة بتحديده « قبل عيد القديس يوحنا » ويقع هـذا العيد فى ٢٤ يونيه من كل سنة . ولما كان الانذار الذى تلقته جان جاء حوالى ٢٠ ابريل تكون المدة الباقية لها من الحياة الطليقة لا تتجاوز ٦٠ يوما .

فماذا فعلت جان فى تلك المدة ؟

لو تصور القارىء أنها انصرفت الى العبادة فى الـكنائس والأديرة لما تجاوز المعقول فى تصوره . أولا : لأنهـا جزعت عند ما صدمت بالانذار من أصواتها . وثانياً : لأنها مهما كانت بسالتها وقوة احتمالها لا يمكن أن تبقى مطمئنة كما كانت قبل الانذار الذى جاءها من طريق « الملائكة والقديسين » وهى بأنبائهم مؤمنة موقنة . فلو فكرت فى

الحيطة والحذر لنفسها لكى تخفف من البلاء عند وقوعه لكان ذلك منها طبيعيا وما كان يمكن أن يكون محلا للوم او لتثريب .

ولكن جان دارك لم تخلق لكى تأتى بالمعقول ! ولكى تتجنب غير المعقول الذى يتجنبه كل الناس !... انها كانت فذة ومدهشة فى تصرفاتها ... أنها فيما تقدم من أمرها جاءت بما لم تأت به الأوائل ! ! وكذلك شأنها بعد الانذار كما كان قبله شجاعة واقداما ، ومتانة وايمانا ، وظهر أن ما تولاها من قلق عند مفاجأتها بالانذار كان نتيجة طبيعية للمفاجأة لم يلبث أن زال بزوالها . وعادت جان لمغامراتها قوية صادقة وكأن لسان حالها يقول « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا »

ووصلت جان فى غاراتها الى مدينة « لانى Lagny » حيث كانت توجد قوة برجندية ، فهاجمتها وانتصرت عليها وأسرت قائدها « فرنكيه داراس Franquet D'arras » وكان من الأشقياء المشهورين فسلمته جان لولاة الأمور فى المدينة فشنقوه فيها ...

وتروى كتب التاريخ كرامات لجان من كراماتها المأثورة عنها ، ونروى نحن أنباء هذه الكرامات على أنها مما تناقله عنها معاصروها ، وما يتناقله الناس قد لا يكون حقيقة تاريخية تثبت أمام الفحص العلمى الدقيق ولكن هذا لا يمنع من رواية ما رواه غيرنا ولو من قبيل الدلالة على عقلية الناس فى ذلك الزمن ...

وإليك قصة تلك الكرامة :

حدث فى يوم من الأيام التى كانت جان فيها بمدينة « لانى » أن طفلا أشرف على الموت ولم يكن أبواه قد عمداه فى الكنيسة ، وكان موت الطفل من غير « تعميد » فيه إثم كبير ، فاجتمعت حول الطفل فتيات المدينة وأخذن يصلين من أجله ، ولما علمت جان بما حدث ذهبت واشتركت مع الفتيات فى الصلاة ، وبمجرد اشتراكها معهن « فتح الطفل عينيه ! » وكأن روحه ردت اليه..!! فأسرع القوم بتعميده ولم تكد تتم مراسيم التعميد حتى فارق الطفل الحياة ....! تلك كانت « كرامة » جان فى « لانى » التى جمعت قلوب أهل المدينة حولها .

ومن الغريب أن جان سئلت فى موضوع هذا الطفل فلم تدع لنفسها شيئا خارقا أو سرا خفيا بل أجابت سائلها فى بساطتها المعهودة .... « ليس فى الأمر ما يستغرب ! وكل ما فيه ان الله استجاب لدعاء العذارى عندما كن يصلين ، فهل من عجب اذا أحيا الله الطفل ؟ أليس الله منا جد قريب ؟ »

وكان أهل « لانى » معروفين بشجاعتهم وصلابتهم فى القتال فانتهزت جان فرصة إعجابهم بها والتفافهم حولها وألفت منهم قوة عتيدة تساعدها فى غزواتها التى كانت تشنها على العدو .

وفى هذه الآونة ترامت الأخبار بأن دوق برجندية بدأ يحاصر

مدينة «كومبين» وهى التى كانت قد فتحت أبوابها وسلمت لجان فى أغسطس الماضى ، وثم قضى شرط من شروط الهدنة المعلومة باعطائها الي دوق برجندية ... فلما جاءها الدوق ، رفض أهل المدينة تسليمها له وأبوا أن يرتدوا عن ولائهم للملك ، فدلوا بهذا الأباء والولاء أنهم ملكيون أكثر من الملك .

ولم يكتف أهل المدينة باعلان الرفض فحسب بل نشطوا للدفاع عن أنفسهم واختاروا من بينهم حاكما عليهم اسمه «دى فلافى De Flavy» ووكلوا اليه أمر الدفاع ومقاومة العدو حتى آخر رمق لهم من الحياة ...!

وكانت «كومبين» مدينة محصنة ولا تقل فى أهميتها عن «أورليان» وذلك لقربها من باريس ، ولأنها مفتاح الطريق إليها ...

وتقع «كومبين» على الشاطىء الجنوبى لنهر «وازOise» وعلى كثب منها يصب فى «واز» نهيران كبيران أحدهما يسمى أين «Aisne» والثانى يسمى أروند «Aronde»

ولكومبين مكانة تاريخية خاصة لدى الفرنسيين وذلك لما يتصل بها من الذكريات القومية قديما وحديثا(١)

ولما جاءها الدوق يحاصرها صمد له «دى فلافى» فحاول الدوق أن يرشوه بالمال ...!! والرشوة كانت من الوسائل التى يتذرع بها فى ذلك

---

(١) من الذكريات القديمة ما جرى لجان دارك حولها ومن الحديثة استقبال نابليون لمارى النمساوية فى قصرها وعقد الهدنة فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ على مقربة منها

العصر للاستيلاء على المـدن المحصورة إذا أعيت المحاصر الحيل فى أخذها عنوة ... ولـكن «دى فلافى» برهن على أنه كان من الحكام القلائل فى ذلك العصر الذين آثروا عمران نفوسهم بالشرف على عمران جيوبهم بالمال ... و بطونهم بالشبع ...! فقد أثر عنه أنه رفض الرشوة فى إباء وشمم قائلا « ليست المدينة ملكا لى حتى أبيعها بالمال » وعند سماع رده شرع الدوق يشدد الحصار و يضيق على المدينة الخناق . لـكى يكرهها على التسليم .

وفى هذا الوقت العصيب جاءت جان وفرقتها التى جمعتها من أهل «لانى» الأشداء لكى تساعد على انقاذ المدينة وبنيها الذين كانت بهم جد معجبة . وقد قالت فيهم عبارتها المشهورة التى لاتزال مسطورة على تمثالها فى المدينة وهى « Je vrai voir mes bon amys au Compiegne»
« سأذهب لـكى أمتع ناظرى باصدقائى المخلصين فى كومبين !! »

وكان وصول جان إلى « كومبين » فى ١٣ مايو . وجاءتها عن طريق الغابة المحيطة بهـا ، واستقبلتها المدينة استقبالا منقطع النظير فى الحفاوة والفخامة وكان رئيس الأساقفة المشهور فى المدينة عند مجىء جان اليها وكان على رأس المستقبلين لها عند قدومها .

ومن ١٣ مايو إلى ٢٣ منه أخذت جان تختلف إلى المدن المجاورة وكان العدو يحاصرها أيضاً لـكى تساعدها على الدفاع أو على مهاجمة القوات المحاصرة لها .

وفى صباح يوم ٢٣ مايو عادت إلى كومبين وشرعت فى الحال تعد هجوماً مفاجئاً لقوات العدو المحاصرة واتفقت على أن يكون بدء الهجوم عصر ذلك اليوم .

وهنا يحسن أن نبين للقارىء مواقع العدو من المدينة لكى يعلم مقدار المخاطرة التى تقدم عليها جان فى امضائها ما اعتزمت عليه .

كان الجيش المحاصر مقسما ثلاثة أقسام قسم تحت قيادة «بودى» Baudet de Noyelles وكان مقره فى « مارنى Margny » وقسم ثان تحت قيادة الشريف « جين دى لوكسمبرج » ومقره فى « كليروا Clairoix » وقسم ثالث تحت قيادة دوق برجنديه ومقره فى « كودون Coudon » وكانت هناك قوة انجليزية مرابطة فى « فنت Venette » تحت قيادة « منتجومرى Montgomery »

وكان القصد من توزيع القوات على النحو المتقدم تمكينها من معاونة بعضها بعضاً فى حالة محاولة مهاجمتها بعضها أو كلها على غرة .

وقصدت جان أن تفاجىء قوات العدو المعسكرة فى «مارنى» ، أى القوة الرابضة على الضفة المقابلة «لكومبين» والتى لم يكن يفصلها عنها سوى النهر وطريق ممتد فى سهل كان فى غالب الأحيان مغرقاً بالماء . والمسافة كلها بين أسوار « كومبين» والمعسكرفى«مارنى» لم تكن تتجاوز ثلاثة أرباع الميل

وفى الواقع لم تكن جان تقصد بهجومها سوى مناوشة العدو واستطلاع مراكزه . يدلك على هذا أنها خرجت بالقوة عصرا أى قرب أفول النهار . فلو كانت تريد حرباً جدية لاتخذت لها عدتها ودبرت لها ما استطاعت من قوة ومن رباط الخيل . كما جرت به عادتها فى كل حرب شنت غارتها . . . أما خروجها فى ٥٠٠ مقاتل كما فعلت فلا يمكن أن يعدو الرغبة فى مناوشة العدو ومباغتته لالقاء الرعب فى معسكره . . .

وليس معنى ما تقدم أن جان لم تدبر هجومها تدبيرا محكما . كعادتها فى تدبير كل هجوم ! كلا ! فقد عنيت بكل شىء . ولم تغادر كبيرة أو صغيرة إلا وضعتها فى نصابها قبل أن تأمر القوة بالتحرك إلى الأمام .

والأمر الوحيد الذى لم تستطع تدبيره وما كان يمكن أن تستطيعه هو اتقاء ما خبأه القدر لها فى ثنايا ذلك الهجوم ، فقد كانت ساعة الخطر قد شارفت ، وآذنت دقتها الأخيرة الحاسمة . ولكن جان لم تكن تعلم الغيب ، ولم تدّع علمه فى يوم من الأيام ، وقد تركتها « الأصوات » فى حيرة من أمر الساعة الحاسمة ! فلم يكن غريباً أن تكون فى حملتها هذه قادمة على ما تكره وهى لا تدرى من أمره شيئاً .

أقول « وهى لا تدرى من أمره شيئاً » مع أنه جاء فى الأثر المروى عنها أنها عند ما انتهت من إعداد الحملة ولم يبق لها إلا أن تأذن بالمسير ، ذهبت جان إلى الكنيسة للصلاة كعادتها قبيل كل هجوم ، وبعد أن فرغت من صلاتها التفتت إلى من حولها وقالت لهم :

أيها الأصدقاء ! أنبئكم أنى فى هذه المرة سأكون فريسة الخيانة ، وسأباع للعدو ، مقابل دراهم معدودات ، وبعد ذلك أسلم للموت . ! فصلوا من أجلى فلن أستطيع بعد اليوم أن أخدم مليكى ووطنى ... »

روى هذه النبوءة عنها اثنان من العجائز في سنة ١٤٩٨ وكانا فى التسعين من عمرهما .. أى أنهما كانا فى سنة ١٤٣٠ حوالى العشرين من عمرهما .. وقد رجح بعض المؤرخين صحة روايتهما وكان ترجيحهم مبنيا على سابق علم جان بوقوعها المنتظر فى الأسر كما أخبرتها « أصواتها » فى « ميلون Melun »

وقد أبى « أناتول فرانس Anatole France » أن يصدق رواية العجائز واعتبرها من مخترعات العصر وخيالات الاصدقاء . وما عرف عن جان من البساطة والبعد عن الأدعاء يجعل قول « أناتول فرانس » أقرب إلى الصدق . وأرجح لدى العقل .

وفى العصر خرجت جان ومعها حاشيتها على رأس القوة تبغى

« مارنى » واستعد « دى فلافى » داخل المـــدينة وجهز المدافع على الأسوار لـكى تحمى القوة في حالة التقهقر .

عبرت جان الجسر وقوتها إلى الضفة المقابلة ، وسلكت الطريق الموصلة إلى العدو . وسرعان ما باغتوه فى مأمنه ، وفاجؤه فى معسكره وكان وجود جان مع القوة موقعاً الرعب فى قلوب الاعداء ، ففروا مذعورين وتركوا معسكرهم خائفين مدحورين ، فلما رأى فرسان جان ما حل بالعدو من الذعر ، انصرفوا إلى النهب والسلب،مدفوعين بعامل الطمع في الغنيمة . وفاتهم متابعة العدو ، أو الأسراع بالعودة قبل أن تدركهم قوات العدو العديدة التى لاقبل لهم بها . . وهو عين ماحدث. اذ بينما هم لأسلابهم يجمعون ، ظهر فارسان على المرتفعات المجاورة ، ورأوا فرسان جان وما كانوا يفعلون في معسكر « مارنى » !! فطيروا الأنباء فى الحال إلى القوات الأخرى فى «كليروا» و «فنت» و« كودون» بما حدث في «مارنى» فهرعت جميعاً إلى ميدان القتال . وقصدت القوة الانجليزية من « فنت » إلى رأس الجسر الموصل إلى « كومبين » لـكى تقطع خط الرجعة على جان وجنودها

و بعد قليل كانت قوة جان قد أصبحت محصورة بين قوات العدو التى جاءت على عجل لانقاذ اخوانهم فى « مارنى » ولمـا رأى القوم من فرسان جان قوات العدو تقترب منهم وبدا لهم ما أضاعوه من الوقت الثمين فى جمع الغنائم صاح بهم صائحهم « Sauve qui peut »

« النجاة ! النجاة ! من استطاع النجاة فلينج بنفسه » وهنا تنبهوا للخطر المحدق بهم وارتدوا مذعورين وفى غير نظام ، وسرعان ما اشتبك البرجنديون معهم وقاتلوهم حتى رأس الجسر ، حيث اختلط الحابل بالنابل ، والعدو بالصديق فلم يستطع « دى فلافى » استعمال مدافع الأسوار ولكنه استطاع بمساعدة القوارب التى كانت مهيأة على ضفة النهر من تمكين أغلبية القوة من العودة إلى المدينة

ولكن أين جان دارك . . ! ؟ كانت تحمى مؤخرة جيشها المتقهقر وترد عنه عادية البرجنديين ، وأظهرت فى تلك الساعة الحرجة من البسالة وضروب الشجاعة ما أثار إعجاب العدو قبل الصديق . . .

ولكن ماذا تنفع البسالة والشجاعة أمام تكاثر قوات البرجنديين وتخاذل قواتها وفرارها نحو المدينه . . .

ورأى اتباع جان القريبين منها الخطر الداهم ، فناشدوها أن تعود إلى « كومبين » قبل فوات الفرصة ولما لم تستمع لهم واشتد خوف الرفاق عليها تقدموا وأمسكوا بزمام جوادها وأداروه إلى الخلف نحو « كومبين » وهنا صاحت بهم جان صيحتها المشهورة . . .

« هيا إلى الامام ! فهم لنا ! » « Allez en avant ! Ils sont à nous ! »

وهنا سر من أسرار عظمة جان دارك ! أنها لم تكن تعرف معنى الهزيمة والتردد . . وكل ما كانت تعرفه أن من يريد النصر يجب أن

يحارب لكى ينتصر . . ! ! أما التقهقر فلم يكن فى يوم من الأيام سبيلا للنصر ! ولذلك لم تكن تعرفه أو تنصح به مهما كانت الظروف ومهما كانت الأحوال . . !

وفى ذلك الوقت كان الانجليز قد وصلوا من « فنت » إلى رأس الجسر . وكان « دى فلافى » قد أمر برفعه خوفا على المدينة أن تسقط فى أيدى العدو المتكاثر . أما جان فلم تنفع معها محاولة رفاقها فى ردها إلى الخلف . . بل ظلت تجاهد العدو وتصيح بأفراد القوة داعية إلى التقدم والدفاع . . ولكن ذهبت صيحاتها أدراج الرياح . . . واحتاط بها العدو من كل جانب يصيح « Rendez vous ! سلمى نفسك . ! ! » فلم يفقدها حرج الموقف ما عرف عنها من اتزان مصحوب بسرعة الخاطر إذ ردت على القوم قائلة :—

« J'ai juré et baillé ma fois a autre que vous et je lui en tiendrai mon sermont »

« لقد أقسمت أن أرعى عهدا غير عهدكم ولن أحنث في يمينى اذن أبدا . . . ! » وقصدت جان أنها عاهدت الله أن تؤدى رسالتها فلن تخلف ما عاهدت الله عليه مهما كانت الظروف والأحوال . ولكنها لم تكد تتم عبارتها حتى بادرها من أتباع « جين دى لوكسبرج » Jean de lumbuorg أحد الاشراف البرجنديين جندى أسمه « ليونل دى وندوم Lyonnel de Vendôme وجذبها من فوق جوادها

والقى بها على الأرض وبذلك أصبحت له أسـيرة . ثم القى القبض على من كان حولها من الاتباع الملازمين وكانوا « دولون » D' Aulon خادمها الأمين ، وأخيه «بوتون» Pothon و «بيير دارك» شقيق جان .

وكانت تقاليد الأسر تقضى بأن تـكون جان « أسيرة جين دى لوكسمبرج » الذى كان الجندى الآسر تابعا له .

وبمجرد وقوعها فى الأسر جردت من سلاحها وسيقت إلى المعسكر فى « مارنى »

وفى مساء اليوم الذى أسرت فيه ، جاء دوق برجندية إلى المعسكر لـكى يرى الفتاة التى دوخته ودوخت حلفاءه من الانجليز فى السياسة وفى الحرب ، وكان لظهورها النتائج الخطيرة التى مر بك ذكرها . . . !

وقد طار القوم فرحاً بأسرها وأذاعوه في كل مكان . وسارت بذكره الركبان . وأمر الانجليز بدق النواقيس ابتهاجا فى كل الـكنائس والبلدان . وصدق « جون لاموند John Lamond » فى تصوير شعور الانجليز وما شملهم من الفرح بأسرها حيث قال :—

«Joan of Arc, a prisoner! England could breathe again!»

« جان دارك أسيرة ! اذن فلتتنفس انجلترا الصعداء . . . ! »

وأخيراً وقعت جان فى الأسر . . ؟ ! وصدقت النبوءة التى تلقتها على

لسان القديسين فى « ميلون » ! ، ووقعت فى الأسر قبل عيد القديس يوحنا المعمدان ... !

ولله در تلك الفتاة فقد قابلت أسرها بهدوء وطمأنينة يليقان بنبيل جهادها وصدق أيمانها . وكانت عند حسن اعتقاد « أصواتها » فيها ، فلم تجزع لما أصابها على الرغم من علمها بالخطر المحقق الذى استهدفت له . وصبرت جان على مصابها كما يصبر أولو العزم ذوو النفوس الأبية التى خلقت لمغالبة الزمن ، وقهر الأيام .

هذا ما كان من أمر جان ... وماذا كان من أمر « دى فلافى » وجنوده الذين ارتدوا اليه فى « كومبين ؟ »

إن موقف « دى فلافى » من أسر جان كان ولا يزال محفوفا بالشكوك والريب ! وقد جاهر بعض المؤرخين باتهامه بالخيانة العظمى لجان ! وذلك لانه رفع الجسر ولم ينتظر حتى تعود ... ويرجح هؤلاء المؤرخون تهمتهم بظواهر وعلل تدخلها فى باب المعقول ... يقولون أن « دى فلافى » لم يستعمل المدافع كما كان واجباً عليه أن يفعل ! ثم أنه كان واجباً عليه أن يخرج بكل ما لديه من قوة لانقاذ الموقف ولا سيما وأنه كان يرقبه وهو يتحرج من لحظة إلى أخرى متطلعاً اليه من فوق أسوار المدينة ، وتحت حماية المدافع فتركه الحالة تستفحل من غير أن يعمل شيئاً لانقاذ الموقف ومبادرته

باغلاق الجسر قبل عبور جان ، أمران لا يأتيان عفوا ومن غير تدبير خفى ...!؟

وساعد على ترجيح فكرة الاتهام ان « دى فلافى » كان من أنصار « لاتريموای » عدو جان اللدود . وليت الأمر وقف عند هذا الحد ! فان رئيس الأساقفة عدوها الثاني كان معه فى المدينة عند قدومها كما سبقت الاشارة ...

تلك حجج وشبهات فريق الاتهام وأنصاره . .

أما الفريق الآخر من المؤرخين فقد استبعد التهمة ، وقال أنه ينقصها الدليل المادى ، وأن ماظهر به « دى فلافى » من التقصير كان رغم أنفه ، لأنه لم يكن يستطيع درءاً لكل ما حدث ، لأن حامية المدينة لم تكن تنيف على ٥٠٠ مقاتل ، بينما كان الجيش المحاصر عدة آلاف ، فكان خرقاً وعبثاً أن ينتظر منه المجازفة بالفئة القليلة التى يحمى بها المدينة من خلف الأسوار ، لأن ذلك يكون منه بمثابة تسليم الحامية كالخراف للجزار ، وتسليم المدينة للعدو . فهو فى إغلاق الجسر وعدم الخروج للانقاذ جد معذور . .

وقد دافع « اندرو لانج Andrew Lang » عن دى فلافى بقوله :—

« ... ان تهمة الخيانة التى وجهت إلى « دى فلافى » لا أساس لها من الصحة ، إذ لم يكن فى استطاعته مساعدة الفتاة بارسال قوة من حامية المدينة لمهاجمة العدو . ولم يكن فى إمكانه ترك الجسر مفتوحاً

ليواجه هجوم ٥٠٠٠ مقاتل من الانجليز! إن واجبه الأول كان فى حماية المدينة وقد حماها فعلا بهمة ونجاح . . . »

وكل ما يصح لنا ملاحظته على حجج الفريقين أن « دى فلافى » لا يمكن أن يجد مبرراً فيما بدا عليه من عدم الاهتمام كلية بأمر جان دارك بعد وقوعها فى الأسر . . . ومما يزيد فى سوء الظن أن رئيس الأساقفة ، كتب فى ذلك الوقت إلى أهل « ريمس » عن أسر جان يقول . . . « لم تكن جان تصغى للنصيحة الخالصة بل كانت تتبع هواها فى كبرياء وعظمة . وكانت فوق ذلك تحب الثياب الفاخرة . . ! ؟ »

كتب رئيس الاساقفة هذا الكتاب وهو فى « كومبين » ، وكتبه بعد وقوع جان فى الأسر ، ولهجة الكتاب وعبارته تدلان دلالة واضحة على شعور ذلك الرئيس نحو الأسيرة ، وقد تدل من ناحية أخرى على شعور « دى فلافى » الذى كان بطبيعة الحال ملازماً له فى تلك المدة . . . أما قيمة ما جاء فى الكتاب من حيث صدقه أو بهتانه ، فحسب القارىء أن يعلم أن كاتبه كان من ألد خصوم جان فى سريرته . . . وأن رأيه فيها وليد الخصومة والبغضاء ، وما كان وليد الخصومة والبغضاء ، كان هو والافتراء سواء بسواء

وقد يود القارىء أن يعرف رأى جان نفسها عن وقوعها فى الأسر . . . سئلت وهى تحاكم فيما بعد عن كيفية وقوعها فى الأسر فقالت . . . « مررت على الجسر وقصدت ورفاقى مهاجمة أتباع « جين

دى لوكسمبرج» أعوان البرجنديين ، وتمكنت من زحزحتهم إلى الوراء مرتين ، وفى المرة الثالثة زحزحتهم إلى منتصف الطريق . وفى أثناء ذلك تمكن الانجليز من قطع خط الرجعة على ، وقد تمكن رفاقى من العودة ، وعند محاولتى التراجع إلى حقول بيكارديا وقعت فى الأسر ، ولم يكن بينى وبين كومبين سوى النهر . . . ! »

ولم تنس « كومبين » إلى يومنا هذا وقوع جان فى الأسر بسببها وفى حدودها ، وأن آخر حرب قامت بها فى سبيل الوطن ، حدثت في السهل المجاور لها عند الضفة المقابلة من نهر «واز Oise» ولجان تمثال عظيم فى ساحة المدينة ، وقد نقش على قاعدته عبارتها المشهورة التى قالتها وهى قادمة لانقاذها ، ولا تزال بعض قباب الجسر الذى كان قائماً فى مدة جان باقية . كما لا يزال الشارع الذى سارت فيه تقصد العدو موسوما باسمها . وقد علقت المدينة لوحتين تذكاريتين أحداهما فى المكان الذى يرجح أنه موقع البيت الذى نزلت فيه وهى فى « كومبين » والأخرى في المكان الذى أسرت فيه عبر النهر .

وفى سنة ١٩٢٩ لما احتفلت فرنسا قاطبة بذكرى مرور ٥٠٠ عام على ظهور جان دارك ، اشتركت « كومبين » اشتراكا فخما ومثلت نصيبها التاريخى فيه .

جان دارك فى السجن

لعل القارىء يذكر أن أخوف ما كانت تخافه جان ، عندما تلقت الانذار بقرب وقوعها فى الأسر، كان تصورها أنها ستصبح يومئذ فريسة لمحاكمات طويلة ورهينة سجن مقيم . . .

وقد صدق حدسها ، ولم يخب ظنها ، وكان وقوعها فى الأسر بدءاً لمحنة طويلة وقاسية ذاقت فيها العذاب ألواناً ، وشربت كأس الظلم حتى الثمالة . . . وهى بعد الفتاة الباسلة الطهور . . .

حقا لقد ابتليت جان وطال بلاؤها ، واختبرت وطال اختبارها، ولم يكتف الظالمون فى ابتلائها وفى اختبارها بكل ماهو متعارف من أدوات العذاب ومعدات التعذيب، بل قضى الله ولاراد لقضائه أن تمتحن فى دعواها بأن تصهر فى النار صهراً ! ؟ فصهرت وخرجت من كل ما ابتليت به ثابتة اليقين . صادقة الايمان . سليمة العقيدة . طاهرة الوجدان

وإليك قصة ما جرى لها بعد وقوعها فى الأسر و إليك على صحة الرأى المتقدم الدليل والبرهان .

نقلت جان من المكان الذى أسرت فيه بالقرب من رأس الجسر المؤدى إلى « كومبين » ، إلى المعسكر العام فى « مارنى » أسيرة حرب

« لجين دى لوكسمبرج » . وهناك بقيت عدة أيام، وقيل أن «جين» كان ينتظر أن يتقدم إليه « شارل السابع » ملك فرنسا بالفدية فيها، ولكنه لم يفعل . . ! أى والله، لم يتقدم بالفدية ولم يحاول أية محاولة تدل على رغبته فى تخليص جان من الأسر . . ! ؟

أيمكن أن يسفَّ نكران الجميل إلى هذا الحد . وما جزاء سنمار الذى يضرب بجزائه المثل إلى جانب هذا الجزاء !!؟ . هذه فتاة ترد إلى ملك عرشه بمجهودها وحده ، وتستخلص ملكه من الضياع والدمار ، وتنقذ أمتها من عار الهزيمة وذل الانكسار ، وتجلس ذلك الملك على عرش آبائه وأجداده بعد يأسه وتشريده ، وتعيد إلى هذه الأمة كرامتها وترفع المهانة عنها ... ثم تدور الدائرة وتقع الفتاة أسيرة وهى تجاهد في سبيل إتمام غرضها . . فلا يتحرك الملك لانقاذها . ولا يدفع المال قلّ أو كثر افتداء لها . . ! ؟ أليس هذا أمعن فى النذالة من جزاء سنمار... ؟ أليس مَثلُ هذا الملك في الجحود ونكران المعروف أحق بالتخليد وأحرى بضرب الأمثال ... ؟

كتب إليه « جاك جيلو Jacques Gelu » رئيس أساقفة « إمبرون Embrun » وكان معلمه فى صباه، يطلب منه ألا يدخر وسعاً وأن يسلك كل سبيل فى إنقاذ الفتاة ونبهه إلى ما يلحقه من العار إذا هو توانى أو تقاعس عن انقاذها، ولكن نصيحته ذهبت أدراج الرياح ...!! وكان هذا

الرئيس هو رجل الدين الوحيد الذى تحركت فى قلبه عوامل الشفقة وسعى سعيه لدى الملك وكان سعيه مشكورا و إن كان الملك قد رده خائباً .

ونُسب إلى « لاتريموای » أنه كان بدسه السبب فيما أظهره الملك من النذالة ، ولكن الجرم أكبر من أن يلتمس فيه العذر بدس الدساسين أو مكر الماكرين . أن فضل جان على الملك من الوضوح والبروز بحيث لا يمكن أن تغض منه وقيعة مهما حبكت ، أو تطمسه بغضاء مهما اشتدت . انها كانت من الملك نذالة صرفة يجب أن تبقى وصمتها لاحقة به إلى الأبد . . .

ولا يظن القارىء ، أن حنق الأمراء وحفيظتهم على جان ربما كانا يمنعان قبول فداءها بالمال مهما عظم ! كلا ! إن تقاليد ذلك الزمن ، وما جرى عليه العرف ، وما سنته قوانين الحروب من السنن ، كانت تقضى بتسليم الأسير إلى قومه متى دفعوا الفدية المقررة عليه . ولم يكن لسنة الفدية و تقاليدها استثناء ، يتساوى فى ذلك الأمير والحقير ، كل له قدر معلوم من المال . فاذا ما أسر وجب فك إساره ، إذا تقدم بفديته واحد من أهله . وتاريخ ذلك العصر يفيض بالأمثلة فما كان يمكن أن ترفض فدية جان . . وقد افتدى الفرنسيون « دوق دالنسون » صديق جان المشهور لما أسر فى موقعة « فرنى » عام ١٤٢٤ وافتدى الانجليز

لورد « تالبوت » قائدهم العام لما أسرته جان فى موقعة « بتاى » . فلو أن شارل السابع تقدم بالفدية لجين دى لوكسمبرج ، لما وجد هذا مفراً من قبولها وفك إسارها . . وخصوصاً وقد صادف أسر جان وقت أزمة طاحنة لديه فقد كان معسراً محتاجاً للمال . .

فمن أى النواحى واجهت موقف الملك ، وبأى مقياس من مقاييس المروءة فى كل زمان ومكان ، في القرون الوسطى ، أو فى الزمن الحاضر ، قسته تجد « نذالته » بارزة وتجد فقدانه للكرامة مجسماً . .

ولما وجد « جين لوكسمبرج » انتظاره عبثاً . أرسل جان إلى قلعة « بوليو Beaulieu إحدى قلاعه الحصينة ، وكانت تبعد نحو ٢٠ ميلا عن شمال « كومبين » ولحق بها خادمها « دولون » ، الذى كان قد أسر معها وقد نقل إليها أنه سمع بأن أهل كومبين سيقتلون جميعاً عندما تسقط المدينة فى أيدى العدو ..!! وهنا قاطعته جان قائلة : « لاتخف فلن يصيبهم أدنى مكروه . لأن كل مدينة انضمت إلى الملك لن تعود قط للعدو ، مادام أهلها يستبسلون فى الدفاع عنها ... »

ولما جاء الانجليز نبأ أسر جان طربوا له وأعلنوه فى كل مكان وقال قائلهم « أن أسرها ـ تلك الشيطانة ـ يساوى أسر جيش كامل...! » وأمر دوق « بدفورد » بأن تقام الصلاة فى الكنائس كما سبقت الاشارة ، وشرع لفوره يدبر أمر الحصول عليها ، والانتقام منها .

وجاءت أول خطوة فى هـذا السـبيل من ناحية علمـاء الدين فى السربون ، أذ أرسلوا إلى « جين » يدعونه إلى تسليم الأسيرة الكافرة ، لـكى يحاسبوها على ما اقترفت من ذنوب وآثام «ضد الـكنيسة !» وأشار هؤلاء السادة الأجلاء إلى مافى تسليمها من خدمة لله ، ولـكنيسته ، يستحق فاعلهـا ثواباً عند الله عظيما وأجراً فى الآخرة كبيرا ، ولـكن « جين » لم يكن من الذين يعبؤن كثيراً بثواب الآخرة ويفضلونه على أجر العاجلة . ولذلك رفض طلب العلمـاء ولبث ينتظر من « يرسو عليه المزاد » من الراغبين فى الغنيمة . . !

وكان « جين » يعامل أسيرته معاملة تتفق ومركزها الحربى ، فلم يضيق عليها الخناق كثيراً ، وكانت جان فى ذلك قد بلغت من العمر ثمان عشرة سنة وخمسة شهور ، وهى سن لايكترث صاحبها بالخطر الذى يعترض طريق حياته عند ما يكون لديه حافز قوى يدفعه لتحقيق آماله . . . وهذه فتاة أورليان ! وبتاى ! وريمس ! رهينة الحبس فى القلعة . . . ! فهل تلام اذا هى فكرت في الخلاص مما هى فيه بأية طريقة من الطرق؟ أو التمست النجاة بأى سبب ؟ فى رأيى أنه كان يكون غريباً جداً لو أن جان رضيت بالسجن أو اطمأنت اليه . . ولهذا لم يكن مدهشاً أنهـا فى يوم من أيام وجودها فى «بوليو» ، مكرت بالسجان وأدخلته فى غرفتها ثم أقفلت عليه الباب إقفالا محكما ، ثم اتجهت فى هدوء وطمأنينة نحو

الباب الخارجى تبغى الخروج من القلعة . ولدى الباب عرفها الحارس فحال دون خروجها وردها إلى السجن . . ! أرأيت بساطة أو سمعت عن سذاجة كتلك التى بدت من جان وهى تحاول الهرب ...!؟ ولكن هذه السذاجة وتلك البساطة هما فى الواقع صراحة وشجاعة صادرتان عن ثقة بالنفس وإيمان وطيد . . .

وكان لهذه المحاولة من جانب جان أثرها ، فقد نقلت بعدها إلى قلعة «بوريفوار Beaurevoir» حيث يسكن جين وأسرته ، وقد نقلها اليها لكى يطمئن قلبه على غنيمته ، ولكى يبعدها عن كل خطر ، سواء جاء هذا الخطر من جهتها ، أو من جهة من يحاول انقاذها ، اذا كان هناك من يفكر فى مثل تلك المحاولة . . .

وكان نقلها الى «بوريفوار» فى أول أغسطس ١٤٣٠ وبذلك تكون قد مكثت فى «بوليو» من آخر مايو إلى آخر يوليو من نفس تلك السنة .

وفى «بوريفوار» سجنت فى أعلى حجرة فى برج القلعة وكانت ترتفع عن الأرض نحو ٦٠ قدماً وكان للحجرة نافذة تطل على الخلاء المجاور . . .

وسرعان ما توطدت العلاقات الودية بين أهل بيت «جين» وبين جان دارك فقد كن يترددن عليها من وقت لآخر ويعطفن عليها عطفاً كبيراً . . وكانت الأسرة مكونة من دوقة عجوز ، هى عمة

«جين» ومن زوجه ، وكريمته من زوجه الأولى ، وحاولت الدوقة أن تحملها على العودة إلى التزيي بزى النساء ولكن جان أبت وبينت لها الأسباب التى حملتها على ذلك الزى .

وفى أثناء وجود جان فى «بوريفوار» ، بدأ الانجليز يساومون فى شراء جان ، فكانت الدوقة تلح على جين أن يرفض بيعها ، وأن يرحم شبابها ، وأن يرقب فيها وجه الله تعالى ، ولكن إلحاحها كان بطبيعة الحال يقع على أذن صماء لأن حب المال والحاجة اليه يعمى ويصم . .

وكان الذى جاء إلى « بوريفوار » يساوم فى جان بالنيابة عن الانجليز هو « بيير كوشون » ، أسقف بوفيه الذى طرده الأهلون من مدينتهم عند اقتراب جان منها بسبب ميوله الانجليزية كما مر بك . . فكان منها جد موتور ، لأن طرده كان معناه حرمانه من إيرادات الأسقفية ، فوق مافيه من امتهان وزراية بشخصه ، ولن نطيل الكلام عن «كوشون» لأن القارىء سيعرف وسيسمع عنه الشىء الكثير في مستقبل حوادث هذه القصة .

نجح « كوشون » فى مفاوضات الشراء وتقرر أن يدفع ثمناً لجان ١٠٫٠٠٠ من الجنيهات ، وهو مقدار الفدية التى كانت تدفع فى الأمراء والقواد والعظماء ... وحاول «كوشون» أن يكون الدفع مؤجلا فأصر جين على أن يكون الدفع فوراً . . !

ولما كانت خزانة الانجليز فى ذلك الوقت خاوية بسبب الحرب التى امتدت طوال الثمانين عاماً الأخيرة كلفوا «كوشون» ، أن يعقد عقداً ابتدائياً مع جين يوقعه الطرفان ، ويحدد فيه الثمن على أن يكون تسليم الأسيرة عند الدفع .. !

وشرع الانجليز يلتمسون المال اللازم للفدية ، ومن عجيب أمر هؤلاء القوم أنهم لم يتجهوا فى بحثهم عن المال إلى جمعه من انجلترا ، بل قر رأيهم على أن يجمعوه من طريق فرض ضريبة إضافية على أهل نورمندية ، إحدى مقاطعاتهم فى فرنسا فكأنهم أرادوا أن يشتروا خصيمتهم الفرنسية ، من شريف فرنسى ، وبواسطة مفاوض فرنسى وبمال فرنسى !!

وفرض الانجليز على نورمندية إتاوة قدرها ٨٠٠٠٠ جنيه ، ابتزوها منها قهرا . وارهقوا الناس فى دفعها ارهاقا شديداً أثار حقد النورمنديين على الانجليز ذلك الحقد الذى ظل كامنا حتى انفجر آخر الأمر فى ثورة عامة ، ساعدت على طرد الانجليز نهائياً من تلك المقاطعة ، بل من فرنسا كلها ...

وعلمت جان بأن بيعها للانجليز قد تم ولم يبق على تسليمها لهم إلا ان يدفعوا الثمن .. ! فقلقت من جراء ذلك قلقا كبيراً ، وقدرت ماهى ملاقية بسبب هذا البيع . وكانت المسكينة قد علمت فى ذلك الوقت

أيضاً أن الخطر يحيق بكومبين وأهلها ، وان إشاعة ذبحهم جميعاً عند سقوط المدينة ، قد وجدت لها مصدقين كثيرين ... فأصبحت كالريشة فى مهب الريح ، لا تستقر على حال من القلق .

وفى هذه الحالة اتجهت جان نحو « أصواتها » تلتمس منها طريقاً للنجاة مما كانت فيه من هم وكرب ... ولما جاءتها « الأصوات » التمست منها أن تأذن لها ! نعم ان تأذن لها في القاء نفسها من النافذة إلى الخلاء المجاور لكى تذهب إلى كومبين تنجدها من الخطر المحدق بها ...

وكانت النافذة التى تود أن تقفز منها تعلو ٦٠ قدما عن الارض ... !!!

وردت « الأصوات » على جان تمنعها من محاولة القفز ، وتطمئنها على أهل « كومبين » ، وقالت لها « ان الله سيكون معك ومعهم .. »

ولما انصرف القديسون عنها لم تكن فكرة القفز قد فارقتها . بل ظلت تفكر تفكيراً عميقاً فى الخلاص مما هى فيه بأية وسيلة . ولو كان فى هذه الوسيلة موت محقق ... وأخذت وسيلة القفز تتمثل لديها خير الوسائل للخلاص فأن أصابها منها الموت ، كان عزاؤها ان الموت بالقفز خير على كل من حال من الموت الذى يعده لها الانجليز ... !

وهنا موضع للتساول . أين شجاعة جان المعنوية ! أين رباطة

جأشها ! وصادق ايمانها ! وصبرها ومصابرتها ! أهكذا ترضى بأن تلقى بنفسها إلى التهلكة ! أهكذا تستجير من الرمضاء بالنار ! انها لكبيرة ومن جان تصبح كبيرة الكبائر . . . !

كل هذه أسئلة قد تتبادر إلى الذهن عند بحث هذا الموقف من جان ، ولكن يجب أن نلاحظ أيضاً عند تقدير حالتها فى هذا الظرف ، انها فتاة لم تكن قد جاوزت التاسعة عشرة من عمرها بعد ، وأنه قد مضى عليها رهن السجن أربعة شهور لم تصل اليها فيها كلمة عزاء أو مجاملة من مليكها الذى كانت تحبه وتقدسه ، ولا من واحد من أولئك الذين شاطروها مجد النصر وساهموا فخاره فى ميادين القتال . . . ! علينا أن نقدر كل هذا قبل أن نلاحظ بشىء من الدهشة ما أصابها من قلق لم يرفعه عنها أمر القديسين ، ولا ذكريات أيامها السابقة ، خصوصاً وان هذا القلق لم يكن مصدره الرغبة فى الحياة لمجرد انها الحياة بل لأنها الحياة التى يمكن أن تنفع بها الآخرين من مواطنيها .

وأخيراً غلبتها على أمرها فكرة القفز فقفزت . . . ! حيث الخلاء المنبسط الذى يفضى بها إلى كومبين .

وقعت جان مغشياً عليها ، ولما أفاقت من غشيتها لم تجد نفسها فى طريق « كومبين » كما أرادت ، بل وجدت نفسها فى حجرتها من البرج حيث كانت قبل القفز . . ! نقلها الحراس طبعاً اليها وتولى المختصون علاجها .

ومن الغريب المدهش أن جان أفاقت من أثر السقوط بسرعة

مدهشة ، وفى أيام قلائل ، كانت على أتم ما تكون صحة وعافية . أما كيف أنها لم تمت من سقطتها ، من هذا العلو الهائل فكان موضعا للدهشة والحيرة !!! الأمر الذى جعل بعض المؤرخين يرجح انها لابد قد استعملت حبلا فى هبوطها ! ولكن الواقع الذى لاشك فيه انها قفزت قفزا غير مستعينة بحبل أو بغيره .. وبعد ان عادت جان إلى حجرتها استغفرت « أصواتها » عن خطئها فى القفز ، ومخالفة النصح فغفرت لها ذنبها ، وفرحت جان بهذا الغفران فرحاً شديداً .

أما « جين دى لوكسمبرج » فقد استشاط غضباً لما علم بما حدث ، ومن ثم اشتد فى معاملتها ، وضيق عليها الخناق ، وأقام عليها الحراس ، فى الليل والنهار لانه خشى ألا تسلم الجرة فى كل مرة فتضيع عليه العشرة الآلاف التى كان ينتظرها بفروغ صبر ...

لما اشتد قلقها على مصيرها بعد تلك المحاولات المتكرره نقلها إلى « أراس Arras »حوالى آخر سبتمبر ، وذلك لكى يبعدها عن مواطن الخطر التى يمكن ان تتعرض لها .

وفى « أراس » رسم لها أحد المصورين صورة قالت هى عنها «أنها تشبهها تماما» وللأسف الشديد لم يعثر لهذه الصورة الوحيدة لجان دارك على أثر ... (١)

كل مايرى لجان دارك من الصور والتماثيل هو من مبتكرات الخيال فى القرون المختلفة وليس منها واحدة ماخوذة عن الاصل

وفى نوفمبر كان قد تم جمع الاتاوة التى فرضت على نورمنديه وحمل « كوشون » عشرة آلاف منها إلى جين واستلم منه الأسيرة وهكذا انتقلت جان دارك إلى ملكية الانجليز . . .

ومن « أراس » نقلها الانجليز إلى « دروجى » Drugy ومنها إلى « كروتوى » Crotoy الواقعة بالقرب من مصب نهر « سوم Somme » وهنا رأت جان البحر لأول ولآخر مرة فى حياتها . وفى «كروتوى» زارت جان بعض السيدات من أسرة «أبيفيل» D, Abbeville الشهيرة وأخذن يواسينها . ويخففن عنها همومها ، وكذلك ظهر لها في تلك المدينة « القديس ميخائيل » مهدئا من روعها يدعوها إلى التجلد والصبر .

و بعد ذلك نقلت جان إلى مدينة «إى Eu» ومنها إلى ديب « Dieppe » فى طريقها إلى «روان» مقرها الأخير وتم ذلك حوالى منتصف ديسمبر سنة ١٤٣٠ .

وفى « روان » أنزلت جان فى قلعة تسمى « فيليب أوغسطس » أكبر القلاع فى المدينة . وهى القلعة التى نزل فيها أيضاً هنرى السادس ملك انجلترا الطفل ، وكان « بدفورد » الوصى على الملك قدجاء به اليها تمهيداً لتتويجه ملكا على فرنسا معارضاً بذلك ما عملته جان من تتويج « شارل السابع » ملكا عليها فى المكان الذى توج فيـه آباؤه وأجداده من قبل أى فى « ريمس »

ومن غريب ماروى فى تاريخ جان أن « أصواتها » كانت قد نبأتها قبل حادث القفز ، بأنها سوف ترى ملك انجلترا الأمر الذى أدهشها وحيرها ، لأنها لم تر السبيل إلى رؤية ملك بينها و بينه مسافات شاسعة وهى فوق ذلك لاتحبه و تبغض رؤياه . . ! ولكن ها هى ذى النبوءة تصدق ، وها هى ذى جان تنزل فى نفس القلعة التى ينزل فيها الملك الذى لم تكن تتصور كيف يمكن أن تراه ! ولعلها رأته من نافذة السجن الذى زجّت فيه ، وهو يخرج و يعود كل يوم بين خدمه ورجال بطانته.

واختيرت « روان » سجناً لجان لأنها كانت مقر السلطة الانجليزية فيها الجند وفيها العدة والعتاد ، و فيها مظاهر الهيل والهيلمان . . . وكان أهل المدينة من الفرنسيين وقد خضعوا للسلطة الأجنبية ثمانين عاماً أو تزيد فقدوا فيها مظاهرهم القومية كلها عدا لغة الكلام . . . !

وكان حاكم « روان » اسمه « إرل ورك Earl of Warwick » وكان من رجال العسكرية الذين تتمثل فيهم الغطرسة والكبرياء ومن ثمة كان من خصوم جان الألداء ، فلم يكد يتسلمها بصفته الحاكم الموكول اليه بحكم وظيفته أمر حراستها حتى سلكها فى سلسلة غليظة ، وكبلها بالأغلال ، ثم ألقاها في حجرة مظلمة وسلط على حراستها خمسة من أشداء الرجال يقومون على حراستها ليل نهار . . .

ومن يوم مجئ جان إلى « روان » ابتدأت معاملتها بالقسوة المتناهية ،

وانصب عليها العذاب أشكالا وألواناً وقاست المسكينة الأمرّين، ولولا لطف الله بها ، وما أمدها به من صبر وجلد وشدّ أزرها من إيمان وعقيدة ، لكانت لاقت حتفها حتماً من هول ما تعرضت له من عذاب .

ولكى تنفى كل شبهة فى المبالغة أنقل للقارئ بعض مارواه « جون لامند » وهو انجليزى عما لاقته جان من العذاب فى سجنها بروان .. قال : —

« وحبسوها فى قفص من الحديد ، وكبلوها بالأغلال ، وطوقوها « بالسلاسل فى رقبتها وفى وسطها .

« مسكينة جان ! ترى ماذا كان شعور بطلة أورليان وريمس وهى « مكبلة فى القفص الحديدى ! ليس فى تاريخ البشر كله مثيل لهذه « الوحشية . . . لولا صدق إيمان تلك الفتاة لفاضت روحها حتما تشكو « لبارئها الظلم الصارخ . . .

« ولم تطل مدة بقاء جان فى القفص الحديدى ، واكتفوا فيما بعد « بأن ربطوها بسلسلة حديدية فى كتلة خشبية وعينوا لحراستها حرساً « مؤلفاً من خمسة من الجند الأشداء الشاكى السلاح وقف اثنان منهما « على باب الحجرة ووقف الثلاثة الآخرون معها فى الداخل ، وعلى « هذا النحو استمرت الحراسة ليل نهار .

« وفى وضع الرجال لحراستها على النحو المتقدم إمتهان لكرامة

« تلك الفتـاة الباسلة لا يقدم عليه ذو مروءة من الرجال ! ! خمسة من
« الجند الغلاظ يوجهون اليهـا ألفاظهم القاسية ، وعباراتهم المخجلة ،
« وهى أمامهم مطروحة ترسف فى أغلالها . . . ! تلك قسوة فوق طاقة
« البشر احتمالها وخصوصاً وأن هـذه الحراسـة لم تدم أسبوعا أو
« أسبوعين بل دامت ماينيف على خمسةشهور . . ! »

هذه هى شهادة الأهل فيما قاسته جان دارك على أيدى الانجليز . . !

ومن العجيب أن هؤلاء القوم حرموها من حق كانت تعترف لها به قوانين العصر وتقاليده . . حرموها من أن تسجن فى سجن نسائى . أو فى سجن دينى ، حيث يقوم بالحراسة النساء . حرموها من كل حق مشروع كان لهـا ، وذلك إمعاناً فى النكاية ومبالغة في النكال .

ولبثت جان في السجن على هـذا النحو ريثما يبت فى أمرها . . هذا منتهى قسوة الانسان بأخيه الانسان !

محاكمة جان دارك

وتقررت محاكمة جان دارك أمام محكمة التفتيش ..!! هكذا أراد الانجليز أصحاب الحق الأول فى التصرف فى شأن السجينة بحكم الشراء . . ! ومحكمة التفتيش كما تعلم محكمة دينية كانت تؤلف من رجال الدين خاصة لمحاكمة السحرة على ما أتوه من السحر ، والملحدين الخارجين على الكنيسة على ما اقترفوه من مخالفات دينية وجرائم كنيسية .

وأى ذنب وأى إثم ارتكبته جان من تلك الذنوب والآثام حتى تحاكم أمام محكمة التفتيش ..؟ هل كانت ساحرة ..؟ وأى سحر أتت ..؟ هل كانت ملحدة ؟ وهل خرجت فى قول من أقوالها أو عمل من أعمالها عن الحدود التى رسمتها المسيحية فى بساطتها الأولى لأبنائها . . . !

ولكن هكذا أراد الانجليز ومشايعوهم من رجال الكنيسة . اعتبروها ساحرة وملحدة ، وما داموا قد اعتبروها كذلك ، فقد وجبت محاكمتها على ما اقترفت ..!! وما اقترفت فى الواقع شيئا ، ولكن هذه كانت مشيئة السلطة الانجليزية أو قل السياسة الانجليزية ... ومتى شاءت السياسة الانجليزية شيئاً فى بلد كانت فيه صاحبة النفوذ الأول فالويل لمن وقف في سبيلها أو اعترض مآربها . . !!

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

ولكن كيف برهن هؤلاء القوم على ماأسندوه من تهمة السحر مثلا اليها . . . ؟ إليك برهانهم :

خرجت تلك الفتاة القروية من بين الحقول والمراعى ساذجة جاهلة ، وجاءت فأوقعت الرعب فى قلوبهم ، واكتسحت قواتهم أمامها ، فولوا مذعورين وهم فى كرب شديد ، وأخذت اكبر قوادهم فى ذلك العصر « لورد تالبوت » أسيراً ! ومحت من الأذهان ذكرى « كرسى » و « بواتييه » ، و « اجنكورت » ... وانتزعت منهم راية النصر ! وغلبت من لم يغلبوا ومكنت من اعتادوا الهزيمة والقهر من السيطرة والنصر ..!! فهل من تفعل كل هذا تكون فتاة فى حالتها الطبيعية تصدر فى أعمالها عن إيمان وعقيدة . . ؟ إنها لابد ساحرة يجب تطهير الدنيا منها ومن سحرها ..!!

تلك كانت حجة الانجليز فى زمن جان دارك ! وتلك كانت العقلية التى صدرت عنها تهمة السحر التى وجهت لها !

والالحاد والكفر ؟ كيف يمكن أن تتهم بهما فتاة كجان ؟ ان الكنيسة فى « بواتيه » قد شهدت على لسان الهيئة التى تألفت تحت رياسة « رئيس الأساقفة » . . « بأن جان دارك مؤمنة صادقة الايمان ، وكاثوليكية سليمة العقيدة ، ولا شىء فى شخصها أو لفظها ينافى الدين » ، وقد أفتى حينئذ إثنان من جهابذة العلماء كان أحدهما عميد جامعة باريس . « .. بأنه لاجناح عليها فى ارتداء زى الرجال ، لأنها تقوم بعمل الرجال ، والعدل

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

يقضى أن تتزيا بزيهم مادامت تعمل عملهم ...»

فمن أين جاء الانجليز بتهمتى الالحاد والخروج على أصول الدين!

هم هكذا أرادوا! وبهذه جرت مشيئتهم ...!

والواقع ان السياسة الانجليزية ...! اخترعت التهم اختراعاً!! على أمل تحقيق أغراضها منها ... أراد ساسة الانجليز أن يحصلوا فى ميدان السياسة على مافاتهم فى ميادين القتال. وأرادوا أن يستروا الهزيمة الحربية بأساليبهم السياسية.

كانت جان دارك القوة الحقيقية الوحيدة التى حالت دون سيطرتهم على فرنسا وضربت نفوذهم فيها ضربة حاسمة قاضية، وذلك بانتصارها عليهم فى ميادين القتال، وميادين السياسة، إذ قضت ضربتها فى الأولى على الوهم الذى تملك الفرنسيين وجعلهم يفرون فرار النعاج كلما التقوا بالانجليز فى ملحمة، وقضت فى الثانية على ما دبروه فى معاهدة (تروى) بنقل حقوق وراثة العرش الفرنسى إلى مليكهم، وذلك بتنصيبها ملكا شرعيا متوجا تتويجاً قانونياً على عرش الفرنسيين يجتمعون حوله ويستظلون برايته وسلطانه.

لهذا السبب اتجه القوم إلى فكرة «تزييف» جان دارك. اتجهوا إلى مهاجمتها فى مصدر قوتها وسر نفوذها وذلك باتهامها فى عقيدتها وصدق أيمانها ... فلو استطاعوا إثبات تهمة السحر وتهمتى الالحاد

والكفر على جان بوساطة حكم شرعى ، لأنهار الأساس الذى قامت عليه قداستها، وانهارت تبعا لذلك عقيدة الشعب فيها . كما تنهار شرعية التاج الذى وضعته فوق رأس مليكها ..!

إلى هذا الغرض كان يرمى الانجليز باتهام جان بالسحر والالحاد .. ومن السخف الفاضح، أن نفهم كما أراد البعض أن يفهم ، انهم قصدوا بمحاكمتها وجه العدل ورعاية الكنيسة !!! ما لهذا فرحوا باسرها وما لهذا تكبدوا ما تكبدوا فى شرائها ...!

وزيادة فى السبك والتمويه على النفوس وتضليل العقول دبر القوم أن يكون الفرنسيون أنفسهم القائمون بمحاكمة جان والحكم عليها ...! وأن يقفوا هم خلف الستار يرقبون الحركات ويوجهون التيارات ، لكى يضمنوا سير المحاكمة فى الطريق التى رسموها لها ، ولكى يصلوا إلى الغاية التى يرمون اليها منها

ولم يجد الانجليز صعوبة ما فى إيجاد الفرنسيين الصالحين لمحاكمة جان وفق مايشتهون ...! ففى ذلك الوقت كان قد مضى عليهم مسيطرين على فرنسا زهاء ٨٠ عاماً ، كانوا فيها أصحاب الحول والطول ، بيدهم « سيف المعز وذهبه » ! وكانت مناصب الدولة والكنيسة رهن إشارتهم، يحصل عليها الذين يراءونهم و يتملقون سلطتهم .

كان فى ذلك الوقت منصب (رئيس أساقفة) كنيسة «روان» خاليا

فلوّح به القوم لمن يتقدم لقبول رياسة المحكمة . .!! وسرعان ماتقدم لهم الكثيرون ممن يطمعون فى أن يكونوا أساقفة ومن أساقفة يطمعون فى أن يكونوا رؤساء أساقفة !!

وأخيرا وقع اختيار الانجليز على «بيير كوشون» ! الوسيط المعروف لتولى رياسة المحكمة . وجاء اختيارهم له بعد درس وتفكير ، واقتناع لايتطرق اليه أدنى شك فى صدق ولاء الرجل لهم ، والعمل على مرضاتهم، ولقد وجدوه لائقا للمهمة من كافة الوجوه ! أولها : انه كان يحقد على المتهمة و يبغضها لانه بسببها فقد كرسيه فى «بوفيه» كما تقدم لك ! ثانيها : أنهم جربوه في الوساطة بينهم و بين «جين» آسرها فأدى مهمته على خير مايرام ! وثالثها : وهو أهمها انه رجل مطامع تخلبه بروقها . .! فقد كرسيه فى بوفيه، فهو اذن أشد الناس طمعا في كرسى روان . . ! لهذه الأسباب ولغيرها كان « كوشون » رجلهم المنشود وطلبتهم المبتغاه . . ! ؟

وتظاهر « كوشون » عند قبوله للرياسة بأنه محمول عليها حملا ، وذلك لأن جان وقعت في الأسر فى مكان يدخل ضمن منطقته الدينية . . ! ! وهى الحجة ذاتها التى برر بها قيامه بدور الوسيط فى شرائها.

وعكف « كوشون » على اختبار الأعضاء الذين يؤلفون معه المحكمة ، فاختارهم بطبيعة الحال من المعروفين بميولهم الانجليزية ، ومن

المشهورين برجعيتهم ، التى لا يجد التسامح إليها سبيلا ، فيما يتصورونه مخالفاً لقوانين الكنيسة وتقاليدها .

وتم تأليف المحكمة من عشرة أعضاء من كبار العلماء فى جامعة السربون ، واثنين وعشرين رئيساً من رؤساء الكنائس فى منطقة روان ، وانضم اليهم جماعة من الرهبان والقسس من مختلف الدرجات الكنسية ، وقام بأعمال النيابة العمومية « ليمتر Le Maitre » وكيل النائب العام فى منطقة روان . واختير أحد القسس واسمه « منشون Manchon» رئيساً للكتاب الذين يقومون بكتابة المحاضر أثناء الجلسات وكذلك عين أحدهم وإسمه « ماسيو Massieu » حاجباً للمحكمة .

وفى الحق ، كانت المحكمة من الناحية الشكلية مستكملة الشروط القانونية إلا فيما يتعلق بتعيين محام للدفاع عنها ! فمع أنه كان من حقوق المتهمة أن تختار لها مدافعا لأنها كانت قاصراً لم تبلغ سن الرشد فان السلطة أبت عليها هذا الحق . وتركتها وحدها تدافع عن نفسها أمام تلك الهيئة المتقدمة .

ومن الانصاف للانجليز أن نذكر لهم حادثاً وقع منهم قبيل البدء فى المحاكمة . . . ذلك أن وفداً من قبلهم كان « ورك » أحد أعضائه ومنه كان أيضاً « جين دى لوكسمبرج » المعروف . دخلوا على جان السجن وعرضوا عليها اطلاق سراحها بشرط « أن تعود إلى قريتها

وألا ترفع السيف فى وجه انجلترا أبداً..!! » . نعم عرضوا عليها الحرية مقيدة بهذا الشرط . . ! ولما سمعت جان ما عرضه القوم ، ظنت بادئ ذى بدء أنهم جاءوا يسخرون منها ، ويضحكون عليها ، وهى لديهم مكبلة فى أغلالها . . . ! فأطرقت برأسها ملياً . . فلاحظ الوفد عليها شكها فى جدية العرض ، فعادوا يؤكدون و يعلنون أنهم فيما عرضوه عليها الجادون . . ! عند ذلك رفعت جان رأسها وهزت أغلالها قائلة : « ... إنى أعرف جيداً أن الانجليز يرغبون فى موتى ، اعتقاداً منهم أن موتى يعطيهم فرنسا ! ولكنى أنذرهم أنهم مطرودون منها لا محالة ولو زادوا مائة الف من الجند فوق ماهم فيها الآن . . . ! » فلم تكد تنتهى من عبارتها الحماسية المتقدمة حتى هاج أحد أعضاء الوفد من الانجليز واستل سيفه غاضباً وهم بضربها على أم ناصيتها ، ولكن « ورك » أسرع ومنعه من فعلته التى لو كانت نفذت ، للحق الانجليز منها وصمة عار دامغة لا يمحوها الدهر . . . وخرج الوفد من لدن الفتاة مطأطئ الرأس بين غاضب ومعجب وقلق لمصيرها . . . !

ولله در جان ! لقد فضلت السجن على مادعوها اليه من حرية مقيدة بعدم الجهاد فى سبيل الوطن . ورفضت الحرية بعد أن كان قد مضى عليها فى السجن شهور عدة كانت في خلالها ترسف فى الأغلال ، وتضيق ذرعاً بافعال الحراس وأقوالهم . . . ورفضت باباء

وشمم ، بل رفضت وتوعدت خصومها بالويل والثبور . . .

أى شمم كان شممك يا جان ! وأية بطولة كانت بطولتك ! فان صفحات التاريخ لا تحمل مثيلا لها فى غير صحيفتك . . إنك فى موقفك وفى ظروفك قد تحديت شأو البطولة والأباء ، فى تاريخ الانسانية جمعاء ...!! ولا عجب أن نطق أحد الانجليز أمام تلك البطولة بقوله وهو حيران آسف « ما أشجعها فتاة ! ليتها كانت انجليزية ! »

ولا ريب أن القارىء يوافقنى أن الشعوب جميعاً لا ذلك الانجليزى وحده كانت لتتمنى أن تكون جان إحدى فتياتها . .

وفى ٣ يناير سنة ١٤٣١ تسلم « كوشون » بصفته رئيس المحكمة جان من السلطة الانجليزية واشترطت عليه تلك السلطة أن يردها اليها إذا ثبتت لدى المحكمة براءتها !! وكان الشرط غريباً فى بابه ، شاذاً في نوعه ، لأن البراءة معناها أو يجب أن تكون معناها الحرية ، وخصوصاً وهم لم يتهموها بغير تلك التهم الدينيـة . فلم يكن من حسن النية بعد إعلانها بالتهمة وتحديدها لها أن يحرص القوم على استردادها إلا إذا كانوا يبيتون لها تهماً جديدة . . وجان لم ترتكب أية مخالفة لقوانين الحرب وتقاليدها يصح أن تكون موضعاً لاتهامها فلم تكن عاصية ولا خارجة على السلطات فى كل ما عملته . إذ كانت تشغل منصباً شرعياً قلده إياها ملك البلاد الشرعى . . فهى من هذه الناحية بريئة من كل

مخالفة . . فكيف إذن ترد للسلطة إذا ظهرت براءتها ! إن التفسير الوحيد لهذا الشرط الغريب هو أنهم كانوا فى قرارة نفوسهم يشعرون بفساد التهم التى وجهوها للفتاة وأنهم رغم ما اتخذوه من احتياطات فى اختيار الرئيس والأعضاء كانون لايؤمنون بأية شائبة تشوبها ولذلك خشوا أن تظهر براءتها رغم أنوفهم ، وأنوف صنائعهم . . وقد فسر الانجليز وقتئذ شرطهم الذى ألزموه رئيس المحكمة بانهم كانوا أصحاب الحق الأول فى الفتاة ! بريئة كانت أو مذنبة لأنهم اشتروها بأموالهم ! والسخف فى هذا باد واضح لايحتاج إلى تفنيد . . .

وقبل أن نشير إلى ماجرى فى محاكمة جان يحسن أن نلفت نظر القارىء إلى بعض مظاهر الشذوذ التى لازمت المحاكمة من أولها إلى آخرها . وأولى تلك المظاهر كان حرمان المتهمة من محام يدافع عنها كما أسلفنا . وكان الشذوذ فى ذلك بارزاً واضحاً لايسيغه العقل المنزه عن الهوى . فقد تألفت المحكمة من كبار العلماء المتنطسين فى اللاهوت وفطاحل الفقهاء فى العلوم العقلية والمباحث الجدلية . والمتهمة قروية أمية ، ليس لها من أهبة سوى عقيدة سليمة وقريحة وقادة وذهن حاضر وهذه كلها كانت هبات فطرية امتازت بها بالسليقة . فالموازنة بين هيئة المحكمة وما اجتمع لها من علم وخبرة ووسيلة وبين المتهمة عزلاء من كل معونة ، تبرز للقارىء أول وجوه الظلم الفاضح الذى لازم المحاكمة

إذا أضيف وهذا إلى بقية المظاهر من تصميم القوم على أن تجرى المحاكمة بين سمعهم و بصرهم فى مدينة روان الجامعة لكل مظاهر نفوذهم ، ومن التحايل على إيقاع الفتاة في شراكهم بطرق ملتوية تأباها الانسانية كما تأباها الشرائع السماوية والوضعية ، مما سنذكر طرفا منه فى خلال بيان إجراءات المحاكمة ؛ ومن إرهاقها بالسلاسل والاغلال وعدم خلعها عنها حتى وهى فى حرم المحكمة تسمع وتجيب سائليها ، فان ذلك جميعا يجسم أمامك مقدار الغبن الفاحش الذى كان نصيبها من الأول الى الآخر .

وأغرب مما تقدم أن هيئة المحكمة بدأت المحاكمة وهى مقتنعة بصحة التهم التى وجهت للمتهمة ، وكانت مهمة الأعضاء ورئيسهم ليست منحصرة فى تعرف وجه الحق والعدل فيها كما كانت تقضى أوليات العدالة ، بل كانت كلها منصرفة إلى محاولة إثبات تلك التهم ... بالتعسف والتعنت فى تفسير أعمال الفتاة وأقوالها ، و إثارة الشبهات والشكوك الدينية حول تصرفاتها . وقد تكبدو وهم الأعلام فى مادتهم ، مشقات جمة من كد الذهن وإعنات الخاطر ، لكى يدينوها بأقوال وتفسيرات لها ، تكون مخالفة الأصول الشرعية . فخابوا جميعاً ، وصمدت لهم جان وخرجت من المعركة فى « شرعة الحق والانصاف » فائزة منتصرة واضطروا أخيراً أن يحكموا بادانتها ولكن بادانتها تجبراً واقتداراً .

وظلماً وعدواناً، ولا تقل فى واضح تعسفها عن الأساس الذى قام عليه الاتهام أصلا .

و إلى القارىء وصف ماجرى فى المحاكمة . وسيرى من هذا الوصف المحاولات الجامحة التى قصد بها إثبات التهم على جان .

وقبل أن تبدأ المحاكمة أوفد « كوشون » رسولا إلى دومريمى يستطلع الرأى عن نشأة جان الأولى ، وأمره أن يستقصى ، و ينقب ، لعله يهتدى إلى ما يعزز الاتهام . . ، ! وكان إيفاد مثل هذا الرسول فى المحاكمات الدينية من الواجبات التى يفرضها القانون . وكما كان يفرض تضمين نتيجة بحث الرسول محضر الجلسة ويكون جزءاً لا يتجزأ منه . وذهب الرسول يبحث ويستقصى ، و بعد انتهائه عاد يقرر فى صراحة أنه وجد سلوكها مثالا يحتذى فى الصلاح والتقوى وأنه « يتمنى أن تكون أخته من أمه وأبيه على ما كانت عليه جان سمعة وسلوكا »

اطلع « كوشون » على نتيجة التقصى ، وكان واجباً عليه كما قلت أن يضمنه صدر المحضر ، ولكنه عمد إلى عدم إدراجه ، وحرص على إخفائه . ولم يجرؤ انسان أن يسأل عن هذا النقص فى المحضر ، مما يدلك على ما كان مصلتا فوق الرؤوس من « سيف المعز أو ذهبه »

ولم تبدأ المحاكمة فى أول أمرها فى شكل جلسات علنية . بل بدأت فى شكل زيارات خاصة للفتاة فى سجنها . كان يقوم بها « كوشون »

وأعضاء المحكمة . وكان الغرض من تلك الزيارات مناقشة المتهمة فى كل صغيرة أو كبيرة مرت عليها فى أدوار حياتها المختلفة . وكان هم «كوشون» الأول أن يجد من زلات لسان الفتاة مايدينها به ، وما يقوم أساساً للتهم الموجهة اليها . وقد بلغ به حرصه فى هذا الباب أن ارتكب كبيرة من الكبائر التى تتنافى مع القانون ومع أبسط مبادىء الخلق الكريم ! ذلك أنه اختار من بين رجاله واحداً عرف بالمكر والخديعة والقدرة على التخفى وتقليد اللهجات المختلفة إسمه « نيقولا لواز يلبير Nicolas L'oiseleur » وأرسله اليها فى السجن فى زى صانع أحذية أصله من اللورين موطن جان . وأخذ « الصانع » الموهوم الذى ساقه سوء طالعه إلى السجن يتحدث إلى جان عن «ملك فرنسا» ويورد نتفا من أخباره ويصيغها في عبارات ودية . كل ذلك تمويهاً عليها لكى يكسب ثقتها ، وقد اطمأنت جان إلى الرجل وبادلته الحديث ، وانتقلا من موضوع إلى موضوع ، حتى شمل الحديث كثيراً مما جرى لها ومنها من الحوادث ..! وبينما كان «الصانع» وجان يتجاذبان أطراف الحديث على النحو المتقدم كان «كوشون» ومعه فريق من الكتاب يسمعون فى الحجرة المجاورة ، ومن ثقب أعد خصيصاً لذلك ، كل مايجرى بين الفتاة ونيقولا ، ويدونونه فى المحضر !! على أمل أن يجرى لسانها ، في حديث كهذا يأتى عفواً ومن غير تحرز ، بعبارات تمس من قريب أو من

بعيد مبادىء الكنيسة الكاثوليكية وقواعدها المقررة . ولكن جان البريئة ، و إن كانت قد خدعت فى حقيقة الصانع ، إلا أن حديثها معه دل على أن سرها وعلنها مصدرهما واحد وهو الايمان الصادق بالله و بصدق أصواتها وقدسية رسالتها .

ودامت المناقشات الخاصة بين جان وقضاتها أسابيع عدة ، وكان المحور الذى تدور حوله هو معرفة المصدر الذى كانت تصدر عنه « أصوات » جان . وهل كان مصدرها من القديسين أو كان من وسواس الشيطان الرجيم . . ! هم يريدونها على الاعتراف بأنها كانت « أصواتاً » شيطانية ، وجان تصمم وتقرر أنها كانت أصواتاً قدسية . ولم يكن لدى القضاة أدنى شك في أنها كانت تسمع أصواتاً ، ولم يكن سماعها موضعاً للتحقيق ، إنما كان التحقيق كله منصباً على المصدر . ومن الغريب أن من الأدلة — إن صح يوماً من الأيام أن تقول على السخف واللغو الفارغ أدلة — أن القضاة وعلى رأسهم « كوشون » كانوا على يقين من « شيطانية » الأصوات أتدرى لماذا . . . ؟ ! لأنها كانت السبب فى هزيمة الانجليز ؟ ! وما كان يمكن للانجليز أن ينهزموا لولا أن « الأصوات » كانت شيطانية خبيثة . . . ! !

وكانت إجابات جان دائماً واضحة سديدة مفحمة لا تعرف التلعثم أو التردد ، حين ثبتت ثبات الطود على أن « أصواتها » كانت من

عند الله وأنه سبحانه وتعالى أراد ولا راد لمشيئته أن يعود الانجليز الى بلادهم « التى أعطاهم إياها » وأن يتركوا فرنسا لأهلها

وأخيراً قر الرأى على أن تبدأ المحاكمة فى جلسات علنية كنص القانون . وفى يوم الأربعاء ٢١ فبراير سنة ١٤٣١ عقدت أول جلسة علنية فى معبد القلعة ...

وبدأت الجلسة فى تمام الساعة الثامنة صباحا ... وهنـا أترك القول لشاهد عيان (١) تمكن من أن يعمل كمساعد « لمنشون » رئيس الكتاب يصف الجلسة وما جرى فيها ... قال : « وفى الصباح الباكر « كنت مع منشون فى طريقنا إلى مكان الجلسة . وبالقرب من القلعة « وجدنا الجمهور محتشداً يتزاحم على الباب . ولم يبق موضع لقدم ، « لا فى قاعة الجلسة ولا فى الطريق المؤدية اليها . وقد وقف فريق « من الجند . يمنع دخول غير المختصين من رجال المحكمة

« ولما اكتمل العدد استوى « كوشون » فى كرسى الرياسه وكانت « منصة عالية وجلس الأعضاء أمامه صفا صفا ، وكانوا جميعاً رئيساً « وأعضـاء في ثيابهم الكهنوتيه . وفى جانب المحكمه أقيمت منصة « وضع عليها مقعد خشبي من غير سند وكان هو المقعد الذى « خصص لجلوس المتهمة

---

(١) هو لويس دى كسنت غلام جان وقد سبقت الاشارة اليه .

« ولما وقع بصرى على هيئة المحكمة وتبينت من فيها من العلماء
« البارزين ، ذوى الخبرة والاضطلاع بالجدل الدينى والفقه الشرعى
« وتذكرت أن جان تقف أمام هذه « الهيئة » الموقرة من غير معين ،
« مدافعة من عقيدتها وشرفها وحياتها ، وهى عزلاء مجردة من كل
« سلاح إلا سلاح الحق واليقين . قلت فى نفسى ، كيف تستطيع تلك
« الفتاة القروية ان تجد لها مخرجا فى هذا العراك غير المتكافىء !؟ وشملنى
« الحزن وبلغ اليأس منى الصميم . ولكن عدت وتذكرت موقفاً
« كهذا وقفته جان فى « بواتييه » حيث ناظرت فيه علماء كهؤلاء
« العلماء فقها وجدلا ، وحيث انتصرت فى النضال عليهم نصراً مبيناً ،
« فسرّت عنى ذكرى بواتييه بعض ما كنت أقاسيه من الهم والغم .

« وإنى لغارق في تأملاتى ، سابح فى ذكرياتى ، واذا الرئيس ينادى
« هاتوا المتهمة ! . وهنا ساد صمت عميق ! وحبس الناس أنفاسهم
« وانصتوا كأن على رؤوسهم الطير ، واتجهت الوجوه جميعاً نحو باب
« القاعة . ودام الحال كذلك بضع دقائق ... ثم أخذنا نسمع صوتاً
« بعيداً كصوت رنين السلاسل ، كان فى أوله مبهما غير واضح . ولكنه
« كان يقترب منا ، وكلما اقترب ، ازددنا يقينا انها جرجرة السلاسل
« تلك التى نسمع صليلها . . . وأخيراً ظهرت جان فى باب القاعة ،
« وعند ظهورها تملكت الحضور رعشة ، وأخذتهم رعدة وانحبست

«أنفاسهم عند ما رأوها تخطر خطرات وئيدة من ثقل ما تحمل من
«سلاسل ،ومن أثر التعب المضنى الذى لحقها من طول عذابها . وكانت
« ترتدى ثوباً كأثواب الرجال أسود قاتما يحاكى الليل البهيم فى
« حلكته . وفى طريقها إلى المقعد ، انعكس عليها شعاع النافذة فبدا
«وجهها على ضوئه كقطعة من الثلج الناصع ، وكانت لرؤيته هزة
«عنيفة سرت بين الحضور ، وانخلعت لها قلوبهم أسى وحزنا . . .

« وعلى المقعد المخصص لها جلست جان، بعد أن جمعت سلاسلها
«بين رجليها . . . وهنا غلبت أحد الجندمن الانجليز الحماسة فانتفض
«قائماً وأدى التحية العسكرية لها . ..! فابتسمت له وردّت تحيته بمثلها. .
«فضج المكان بعلامات الاستحسان من النظارة مما دعا الرئيس إلى
« أن ينبه إلى مراعاة النظام

«ثم أعلن الرئيس افتتاح الجلسة . وأمامه ورقة حصر فيها ما جمعه فى
« اثناء المقابلات السابقة من أدلة الاتهام . وكانت مدهشة بما احتوته .
« وما احتوت إلا أراجيف وأضاليل اعتبرها تهماً موجهة إلى جان ،
«و كانت كلها عبارة عما نسبته الاشاعات التى روجها الخصوم ضدها .. ليس
«فيها تهمة واحدة تنهض على أساس صحيح من أقوال جان أو أفعالها . .
« وبعد إعلان افتتاح الجلسة دعاها « كوشون » لأن تركع وتقسم
«اليمين القانونية على أن تقول الحق فى كل ما يوجه اليها من الأسئلة .

« فاجابت وهى هادئة مطمئنة : « كلا ياسيدى لن أقسم كما تريد لأنى
« لست أدرى ما ستسألنى عنه ! وقد تسألنى عن أشياء مما حرم على أن
« أبوح بها ..! » . فلم تكد تنتهى من ردها حتى كان ضجيج المحكمة يدوى
« فى المكان . وكان « كوشون » أشد الجميع غضباً وحنقاً ، لأنه لم يكن
« يتوقع أن ترفض المتهمة أن تقسم اليمين وهى أساسية فى الدلالة على
« شرعية الاجراءات أو بطلانها . . ولذلك صاح بها غاضباً . . . « باسم
« الله أطلب منك أن تنفذى الاجراءات على وجهها الصحيح ، وأن
« تضعى يدك على الانجيل وتقسمى على أن تقولى الحق في كل مايوجه
« اليك من الأسئلة » . وأتبع هذا ضربة عنيفة غاضبة على المنضدة .

« وفى هذه الأثناء كانت جان هادئة لم تحركها الضجة التى أثارها
« ردها الأول . وعندما انتهى « كوشون » من طلبه الثاني التفتت اليه
« وهى متمالكة لكل حواسها وقالت له : « فى كل مايخص أبى وأمى
« وعقيدتى وما قمت به من الأعمال فى سبيل فرنسا تجدني على تمام
« الاستعداد للأجابة . ولكن فى كل ما يخص ما تلقيته من وحى
« فقد أمِرت ألا أبوح به إلا لمليكى . . » ولم تكد تصل إلى هذا الحد
« من الاجابة حتى ثارت ثائرة القوم مرة أخرى أشد من الأولى ، وحدث
« هرج ومرج سادا المكان كله . ولكن ذلك لم يمنعها أن تتم ردها
« قائلة : « ولن أبوح لكم بهذه الأشياء ولو فصلتم رأسى عن جسدى . ! »

«وكانت عبارتها الأخيرة سبباً فى اشتداد هياج المحكمة حتى أن
«الكثيرين من الأعضاء وقفوا فى أمكنتهم صاخبين، وصاروا يهدرون
« كالأبل، ويلوحون بأيديهم في وجه الفتاة . وهى لا تكاد تفقه لهم قولا
«من شدة ما اشتمل القاعة من ثورة وتفزز . . ومما غاظهم وزاد في
«ثوراتهم ماراوه من عدم اكتراثها لغضبهم وصياحهم. وأخيراً أرغمتهم
«جان على الانصات بقولها لهم : « مهلا يا سادة . تكلموا واحداً
«واحداً حتى تمكنونى من الرد عليكم جميعاً . . . »

واستمرت المناقشة محتدمة من أجل اليمين بين المحكمة من جانب وجان من الجانب الآخر ثلاث ساعات كاملة لم يستطيعوا فيها زحزحتها قيد أنملة عن موقفها . . ! ولما أعيتهم الحيلة، وكان قد أدركهم التعب من شدة ما انتابهم من انفعالات وتهيج، والفتاة باقية على رأيها مستمسكة بهدوئها وسكينتها، اضطروا إلى الاكتفاء بأن تقسم كما شاءت هى أن تقسم . . !؟ ولدى هذا الانتصار المعنوى الباهر من جانب الفتاة قام الجندى الذى حياها عند قدومها وحياها مرة أخرى فى حماسة شديدة . وأردف تحيته قائلا : « أقسم بالله لو كانت هذه الفتاة انجليزية لما بقيت فى سجنها ثانية واحدة . . . ! »

لو كانت هذه الفتاة انجليزية ....!؟ ترى ماذا كان وقع هذه الكلمات الصادرة من الاعماق على من كان حاضرا من الفرنسيين فى الجلسة ؟ ؟ . لا شىء ! ولكن هل كانوا فرنسيين حقاً ؟ انهم كانوا أشباه الرجال ولا

رجال ... ولذلك مرت كلمات الجندى فوق رءوسهم ، لم تثر منهم نخوة ولم تحرك همة .

وأدت جان القسم كما أرادت . وبدأ « كوشون » يسألها الأسئله المعتادة عن ميلادها وعمرها وأسرتها . ولما سألها عن نصيبها من التعليم قالت : « تعلمت صلاتى وأخذت عقيدتى عن أمى ، بل منها تعلمت كل ما أعلم ... ! »

وبعدعدة أسئلة اعتيادية ختم الجلسه بتحذيرها من محاولة الهرب ، لأنها إن حاولته حقت عليها تهمة الزندقة ... ! ولم تشأ جان ان تترك تحذيره من غير رد فقالت له : « انى لست مقيدة بهذا المنع ، وإذا أتيح لى الهرب فلن أتأخر عنه ، لأنى لم أعد ، ولن أعد أحداً بتجنب الفرصة إذا سنحت لى ... !

وقبل أن تغادر مكانها عائدة إلى السجن التفتت الى الرئيس شاكية له ثقل أغلالها والتمست رفعها عنها ، إذ لا داعى لها وهى فى حراسة قوية وفى سجن مظلم . ولكن « كوشون » أبى ان يجيبها إلى ما طلبت ، وذكرها بانها قد حاولت الفرار من سجنها مرتين ، ولم تشأ جان ان تكرر الطلب ، بل اكتفت بترديد قولها : « حقا لقد حاولت الفرار ولا زلت أحاوله .. ! » وأردفت قولها فى صوت خافت بعبارة مؤثرة هى :

« أليس الفرار حقا لكل سجين ! ؟ » ثم سارت تجر اغلالها عائدة الى السجن بين صمت عميق وتأثر باد من الجميع ..

وفى اليوم التالى عقدت الجلسة فى حجرة أخرى من حجر القلعة لأن المعبد دل على انه لا يتسع لكل الراغبين في الحضور فقد كان أعضاء المحكمة من قضاة وقضاة محلفين لا يقل عن ٦٢ شخصا ، عدا الجمع الغفير من النظارة الذين كانوا يتسابقون الى الحضور

و بعد اجراء المراسم المعتادة أعلن الرئيس افتتاح الجلسة ...

وكان أول سؤال وجهه للفتاة . أن طلب منها أن تعود فتقسم اليمين كاملة من غير قيد ولا شرط ..! وكأنه أراد بهذا أن يمتحن صبر جان مؤملا أن يجد من مللها أو إشفاقها من طول العراك ليناوقبولا فى إجابته إلى طلبه ، لأنه لم يكن مطمئنا تمام الاطمئنان لصحة اجراءاته إذا بقيت جان مصرة على يمينها المقيدة . ولكن جان لم تكن تعرف التردد والنكوص على الاعقاب فلم تكد تسمع ما طلبه خاصا باليمين حتى أجابت فى هدوئها المعروف ... « سيدى ! لقد أقسمت بالأمس ، وفى قسم الأمس الكفاية » فألح الرئيس وكرر إلحاحه . وعاوده غضبه وانفعاله . ولكن جان لم تزد على تكريرها عبارتها المتقدمة . ولما استمر يلح و يلحف قالت له فى تأثر : إنكم حقاً لترهقوننى . !! وأخيراً يئس منها « كوشون » وتركها غاضبا لأحد زملائه المسمى

« بو بير Beaupere » وكان بو بير هذا من أعلام عصره المعروفين بقوة العارضة ، وله طريقة ما كرة فى الجدل ، يأخذ مناظره بالنعومة الظاهرة فى صوغ سؤاله تارة ، ويأخذه بالحيلة والخب تارة أخرى . فلما تولى توجيه الأسئلة لجان ابتدرها فى نعومة ظاهرة بقوله : « ان الاشكال بيننا وبينك ياجان هين عليك انهاؤه ، لأنه ينحصر فى إجابتك بالحق والصراحة برا بقسمك على كل ما نسألك عنه . » أرأيت كيف حشر « بو بير » عبارة « برا بقسمك » فى حواره مع الفتاة ! يريد بذلك ان تجيب « بالحق والصراحة » على « كل مانسألك عنه » ! وهل هى حقاً أقسمت على ان تجيب على كل ما تسأل عنه ؟ ألم تجعل حداً فاصلا بين ما تبوح به وبين مالا تبوح به ؟ ولكن « نعومة » السائل لم تغنه من الحق شيئاً ، لأن جان كانت حذرة يقظى يدلك على هذا إجابتها على قوله المتقدم إجابة سريعة موفقة حيث قالت : .. « كلا ! فقد تسألنى عن أشياء محظور علىّ ان أبوح بها ! » وبهذا الرد الحاسم اصطدم « بو بير » بأول فشل له مع جان . ولذلك بادر باللف والدوران ، وشرع يهاجمها بأسئلة ظاهرها برىء ومعظمها تفه ، وذلك لكى يصل إلى غرضه من ناحية أخرى . سألها عما إذا كانت تعرف شغل الابرة والتدبير المنزلى ، فكان لها على هذا رد مشهور عنها إذ قالت له ... « نعم تعلمت الغزل والنسيج والتطريز وإني من هذه الناحية لست بأقل من أية امرأة فى

روان ! » فمضى يسألها « وهل كان لك عمل أخر ! غير أشغال المنزل ؟.»
« نعم كنت أساعد والدتى وعند ما أفرغ من العمل معها أذهب للرعى بالغنم والماشية » وهنا حاول فى كثير من الخداع أن يسألها عن أشياء تمس من بعيد المحظورات التى منعت من الخوض فيها ، فكانت تجيبه فى رفق « انتقل إلى ما هو من شأنك أن تسأل عنه » وبهذا الرد أفسدت عليه كل حيلة وأقفلت فى وجهه كل باب ، ولم يتمكن أن يصل إلى سؤالها فى « محظوراتها » بالرغم من كل ما سلكه من سبل او التجأ اليه من حيلة :

وانتقل « بوبير » فجأة يسألها صراحة فى موضوع « أصواتها » قائلا :—

— متى بدأت تسمعين الأصوات ؟

— بدأت أسمعها لأول مرة لما بلغت الثالثة عشرة من عمرى . سمعت صوتاً ينادينى بقوله « كونى ابنة طيبة و كنت حينئذاك فى حديقة المنزل وكان الوقت ظهرا وفى زمن الصيف »

— هل كنت صائمة ؟

— نعم كنت صائمة .

— ومن أى جهة جاء الصوت ؟

— جاء من ناحية اليمين ومن جهة الكنيسة .

— هل جاء مصحوبا بنور ساطع ؟

— نعم كان ساطعا ، و بعد ذلك كنت أسمع الصوت عاليا

— وما صفة هذا الصوت ؟

— كان صوتا كريما . واعتقد أنه يهبط من السماء . وفى ثالث مرة سمعته تبينت أنه صوت مَلَك كريم .

— أكنت تفهمينه ؟

— بسهولة تامة ، أنه كان فصيحا واضحاً .

ولما وجد « بوبير » انها تجيبه ، ظن أنها اطمأنت إليه فحام حول « محظوراتها » وسألها :

— وعلى أية صورة من الصور كان الملك يظهر لك ؟

هنا بدلا من أن تسمعه الأجابه على سؤاله حملقت فيه بشكل دل على سوء ظنها بالسائل و اكتفت بان قالت له :

— لن أقول لك شيئاً عن هذا .

فلم « يتحرج بوبير » من هذا الرد وكظم غيظه واستأنف استجوابه لها

— وهل كان الصوت يعاودك كثيراً ؟

— مرتين أو ثلاثة فى الأسبوع الواحد . وفى كل مرة كان يقول لى « غادرى قريتك واذهبى إلى فرنسا ».

— وهل كان والدك على علم بسفرك ؟

— كلا ! لأن الصوت كان يلح على فى الذهاب إلى فرنسا فلم أستطع البقاء أكثر مما بقيت

— وماذا قال لك الصوت غير ما تقدم ؟

— قال أنى سأرفع الحصار عن أورليان

— أهذا كل ما قال ؟

— وقال أيضاً بأن أذهب إلى فوكوليروأن روبرت دى بودريكور سوف يعطينى حرسا يذهب معى إلى فرنسا . ثم أخذت تسرد قصتها مع « روبرت دى بودريكور » وماجرى لها فى «فوكولير» إلى ان قامت قاصدة « شنون »

أيدرى القارىء السر فى مناقشة جان فى شأن أصواتها على النحو المتقدم ؟ السر هو ان « بوبير » كان يأمل ان يجد فى إجابتها منفذا للتأويل السيىء عن صلتها بالشياطين ، ومن ثمّ يثبت عليها السحر ! هذا ما كان يرمى اليه بجولاتها المتكررة فى موضوع «الأصوات» ، ولكن جان كانت حريصة يقظة خيبت ظنه بردودها البريئة ، وبايقافه عند حده ، وعدم السماع له بالخوض فى الشئون التى حرمت عليها الأصوات ان تبوح بها لأحد

ولما يئس السائل من باب الأصوات . انتقل يناقشها فى باب ثيابها

ومخالفة جنسها فى التزيى بزى الرجال . وشرع يسألها عنها ولسان حاله يقول « إن خبت فى الأولى فلن أخيب في الثانية ! » قال

— أى رداء كنت تلبسين ؟

— كنت أرتدى ثوبا من ثياب الرجال وسيفا أخذته من « دى بودر يكور » ولم يكن معى سلاح غيره .

— ومن الذى نصحك بان تلبسى ثوب الرجال ؟

سؤال خبيث ..! فلو أنها قالت بان الذى نصحها به هو « صوتها » لكان قد فاز ببغيته منها من أقرب طريق . وذلك لأن الصوت الذى ينصح النساء بارتداء ثياب الرجال لا يمكن أن يكون صوتا قدسيا ، ولان الأصوات المقدسة لا تنصح بما يخالف أصول الكنيسة وتقاليدها ، اذن يكون الصوت الناصح بالمخالفة صوتا شيطانيا ، ومتى كان كذلك ثبت من أقوالها أنها كانت متصلة بالشياطين ، وانها ساحرة تخدم أغراضا سفلية ... الى هذا رمى « بوبير » بسؤاله . ولكن جان أدركت فى الحال قصده . نخيبت أمله وذلك بأن قالت له إنها ترفض الأجابه على السؤال . ولكنه عاد وكرر السؤال . فكررت هى الرفض أيضاً . فهددها بقوله « إني آمرك أن تجيبي السؤال » . فكان كل جوابها على هذا التهديد ... « انتقل إلى موضوع آخر ! »

هل أدركت أيها القارىء الآن حكمة جان فى رفضها أن تقسم

على قول الحق عن كل ما تسائل عنه ؟ لو كانت أقسمت على الانجيل بان تقول الحق لكانت اضطرت في مثل الحالة المتقدمة أو ما يشابهها أن تبوح بسر أصواتها جميعاً ، أو كانت ترفض أن تبوح بالسر فتقع فى محظور الحنث بيمينها . والحنث باليمين جريمة لا تغتفر . أى أنها كانت تقع بين نارين ، نار البوح بالسر الذى أؤتمنت عليه ، ونار الحنث باليمين على كتابها المقدس . هذا هو السر في تشددها فى مسألة اليمين . ولذلك لما كانت حيال الأسئلة الخاصة أو المحرجة تكتفى بالرد على سائلها بقولها « انتقل الى موضوع آخر » لم يكن فى مقدوره أن يعتبر ردها عجزاً عن الاجابة وأن يعتبر عجزها اقراراً له بما يريد ، وذلك لعلمه بتحفظها فى مسألة القسم . . .

وانتقل « بوبير » طوعاً لاشارتها الى موضوع آخر وعاد يسألها عن حوارها مع « دى بودريكور » وما شيعها به ، وغير ذلك من الموضوعات المختلفة . الا أنه لم يلبث حتى عاد الى موضوع الزى ففهمته الضرورة التى قضت عليها بالتزي بزى الرجال ولكنه لم يكتف بتفسيرها وفاجأها بالسؤال الآتى

— وهل الصوت هو الذى نصحك بهذا الزى ؟

فاجابته ببساطة « اعتقد دائماً أن الصوت كان ينصحنى نصائح طيبة . . ! »

وبذلك استيقن أن ليس فى استطاعته زحزحتها من مكانها فى موضوع الزى واضطر إلى تغيير الموضوع ، وشرع يسألها فى موضوع مقابلتها للملك فى « شنون » ثم عاد فجأة الى موضوع « الأصوات » وابتدرها هذه المرة قائلا

— ألا تزالين تسمعين الأصوات حتى الآن ؟

— أسمعها كل يوم

— وماذا تطلبين منها ؟

— لا اطلب منها جزاء ولا شكورا . فكل ما ابتغيه هو رضاها عنى

— هل كانت الأصوات تريدك دائماً على ان تكونى مع الجيش ؟

— فى «سنت دنس St. Denis» امرتنى الأصوات بالتخلف ، وكنت فعلا أود البقاء حيث كنت ، ولكنى لم أترك حرة فى اختيارى . ولما كنت فى ذلك الوقت جريحة لم أستطع مقاومة الفرسان الذين حملونى على السير معهم بالقوة .

— ومتى كنت قد جرحت ؟

— جرحت فى أثناء الهجوم على باريس

وهنا نوجه نظر القارئ إلى الكيفية التى خدع بها « بوبير » جان فى الأسئلة التالية حتى أوقعها فى المحظور ، ثم إلى الكيفية التى تخلصت بها جان من ورطتها الظاهرة . سألها بعد اجابتها الأخيرة قائلا :

— وهل كان جرحك فى يوم عيد ؟

وهنا بدت عليها علائم الحيرة ولكنها قالت

— نعم كان اليوم يوم عيد

— والآن نبئيني يا جان ، هل تعتقدين فى صواب إعلان الهجوم والحرب فى يوم من الأيام المقدسة ؟

أرأيت ؟ كيف يمكن « لقديسة » أو لأى مؤمن يصدر فى أعماله عن خالص الايمان أن يحارب أخاه فى الدين فى يوم عيد من الأعياد المقدسة ؟؟ إلى هذا الشرك ساق « بوبير » جان دارك ، وقد احست هى بالفخ المنصوب لما سألها عما إذا كان جرحها قد حدث فى يوم عيد . وكان احساسها بهذا الفخ هو الذى ارتبكت له قليلا عند الاجابة . وهاهو بسؤاله الأخير يضعها أمام الأمر الواقع ، بل يضعها فى احرج المراكز و يطلب منها الاجابة . والاجابة سلباً كانت أم إيجاباً تجعلها تعترف بشذوذ مركزها إزاء الكنيسة وتعاليمها . ولذلك لم يكد يفرغ « بوبير » من إلقاء سؤاله الأخير حتى ساد القاعة صمت رهيب ، واشرأبت الاعناق نحو جان تلهفاً على سماع اجابتها التى ستكون فاصلة وقاطعة فى اثبات التهمة عليها ، إذ ظن الجميع أن الرمية قد اصابت المحز ، ولا مفر للمتهمة من الاعتراف بالجرم . . . جرى هذا ، ولكن جان بعد مظهر الارتباك البسيط الذى تولاها عند مفاجاتها بالسؤال ، عادت الى

هدوئها الطبيعى ، ولم تكترث لما كان يجرى حولها بل فاجأت الجميع بردها الخالد « Passez outre ! » أى « انتقل إلى موضوع آخر » وبهذا الرد القصير الحاسم خرجت جان من المأزق. وإن كانت بردها قد حيرت سائليها كما حيرت سامعيها وجعلتهم يغلون كالقدر، ويتميزون من الغيظ ، لأنها فوّتت عليهم فرصة نادرة وضيعت عليهم غنيمة ظنوها باردة . والقارىء بالطبع يعلم أن جان لم تخرج بردها القصير السالف عن الحدود التى رسمتها لنفسها فى صيغة قسمها التى أعلنتها للمحكمة وأرغمتها بعد التى واللتيا على قبولها منها

وبهذا الانتصار لجان انفضّت الجلسة الثانية بعد أن دامت ماينيف على أربع ساعات .

وقررت المحكمة أن تعقد جلستين فى اليوم الواحد . واحدة فى الصباح وأخرى فى المساء . ولك أن تتصور أيها القارىء هيئة مؤلفة من ٦٠ عالماً وفقيهاً تعقد جلستين فى اليوم لكى تستجوب فتاة قروية أمية . وروى عن هذه الهيئة الموقرة أن أعضاءها كانوا يتناوبون العمل بحيث تكون مناقشة الفتاة مستمرة طوال الجلسة . أما الفتاة فكأنها كانت من حديد تجيب وتدفع عن نفسها فى بسالة مدهشة ويقظة غريبة ، من غير أن تستريح لحظة واحدة فى الجلستين صباح مساء .
وقد يدهش القارىء إذا علم أن تلك الفتاة التى تألبت عليها قوات

الخصوم على اختلافها كانت دائماً تجد من القوة وحضور البديهة ما كان يمكنها من ردودها الكثيرة التى أصبحت بحق مضرب الأمثال فى الشجاعة المعنوية والجرأة فى الحق أمام الباطل مهما تكاثرت مظاهر قوته .. وقد شهد لها « منشون » رئيس الكتاب - وكان من العاطفين عليها - بقوله ... « وكانت دائماً تجيب قضاتها فى حكمة مدهشة ومتانة ظاهرة ، وكانت لها ذاكرة عجيبة . فكثيراً ما كانت تصحح للقضاة وتحيلهم فى ردودها إلى ما سبقت الاجابة عليه من أسئلتهم وتقول لهم ارجعوا إلى المسجل أى « إلىّ » وشهد أحد القضاة بقوله : « سألوها أسئلة عويصة ، ولكنها كانت تتخلص منها بمهارة فائقة . وكثيراً ما كان السائلون يغيرون منحى الأسئلة فجأة وينتقلون بها بين شتى المواضيع لكى يحملوها على التناقض فى الردود .. وقد أرهقوها بالاستجوابات الطويلة التى كانت تستغرق ساعتين وأحياناً ثلاثاً يخرج بعدها القضاة أنفسهم متعبين مرهقين .. وكانت الشباك التى تنصب لها مما يصعب على أحذق الناس أن يجد لنفسه منها مخرجاً .. وبالرغم من كل هذا كانت ردود الفتاة غاية فى الحكمة والتعقل حتى أنى بقيت نحو ثلاثة أسابيع أعتقد أن إجابتها إنما كانت وحياً يوحى اليها . »

وكان ذلك هو الحق أجراه الله على لسان أحد الذين جلسوا فى مجلس القضاء . والفضل ما شهدت به الأعداء .

وفى يوم ٢٤ فبراير سنة ١٤٣١ عادت الجلسة للانعقاد . وبعد افتتاحها كان أول هم الرئيس كعادته أن يطلب من الفتاة أن تقسم اليمين كاملة من غير قيد أو شرط . وهنا شعرت جان أنه يجب أن تضع حداً لهذا الالحاح المتكرر فى أمر سبق البت فيه ، فكان ردها على طلب الرئيس شديداً قوياً ، قالته وهى على خلاف عادتها مغيظة محنقة يكاد يتطاير من عينيها الشرر قالت : « احذر ياسيدى مما تطلب ، أنت يا من تجلس منى مجلس القاضى . انك تحمل نفسك مسئولية بالغة ، انك تخرج عن الحد . . . ! ؟ »

بهذه القوة قذفت جان بردها على طلب القسم الكامل فى وجه القاضى ! بهذه القوة رفعت عقيرتها وبعد مكثها فى السجن ما يربى على ثمانية أشهر قضت أكثر من نصفها وهى فى الحديد مصفدة .

ارغى « كوشون » وأزبد ، وحق له أن يرغى وأن يزبد من جرأة الفتاة . ولم يتمالك من انذارها « بالاعدام » عاجلا إن هى لم تذعن له فى الحال

وكان « كوشون » في تهديده جد مخطىء . لأن الفتاة التى تجابهه بقولها المتقدم ليست بالتى تخشى وعيداً وتخاف تهديداً ، لأنها لم تتركه يتم قوله حتى ابتدرته مسرعة . « اعلم يا سيدى انك وسائر رجال الكنيسة فى « روان » وفى باريس لاتستطيعون إدانتى ظلماً وعدواناً ولو كان بعضكم لبعض ظهيرا ..! » وعلى أثر إجابتها سادت المكان ، ضجة هائلة

كان بعضها سخط أعضاء المحكمة والبعض الآخر تصفيق النظارة استحساناً لموقف جان .

وكانت جان لما ألقت ردها واقفة. وبمجرد إتمامه جلست فى مكانها . وبعد هدوء الضجة حاول « كوشون » أن يعود للالحاح فى مسألة القسم فاكتفت جان بعبارتها « Passez outre »

وفى هذه المرة لم ينتقل الرئيس إلى موضوع آخر بل عرض عليها حلا وسطاً وهو « أن تقسم على أن تقول الحق فى كل ما يدون فى محضر الجلسة » وتأملت جان فى الصيغة المعروضة عليها فلم تجد فيها بعد تقليبها على وجوهها المختلفة ما يمنعها من قبولها » وبقبولها انتهى إشكال طال أمده بينها و بين قضاتها . .

وبعد انتهاء « كوشون » إلى هذا الحل المؤقت فى مسألة اليمين - ونقول المؤقت قصداً لسبب يتضح لك فيما سيجىء - تخلى من مكان السائل وسلم زمام المناقشة لزميله اللبق المشهور « بوبير » الذى بدأ كعادته يحوم حول « الأصوات » لعله يجد من ردودها ما يعينه على قصده فى إثبات شيطانية، أصواتها ففشل من هذه الناحية كما فشل أول مرة ، ولكن لفت نظره أن جان ختمت ردها على آخر سؤال له بقولها « انها لم تكن تستطيع أن تعمل شيئاً لو لم تكن متمتعة بنعمة الله . » فسألها فجأة « وهل انت متمتعة بنعمة الله ؟ »

سؤال محرج جداً كما يعلم اخواننا الكاثوليك . . وفى السؤال فوق إحراجه خبث وقسوة كان من نتيجتها أن أحد القضاة لم يتمالك أن يقول « هذا سؤال مروع ، والمتهمة غير مكلفة بالاجابة عليه . . . ! » ولكن « كوشون » أسكت القاضى المعترض فى عنف وقال « على المتهمة أن تجيب على السؤال » .

وفى هذه الآونة كانت « درجة الغليان » فى قاعة الجلسة قد بلغت أقصى حد .. والحرج فى السؤال أن العقيدة الكاثوليكية لا تبيح للمتدين أن يقول عن نفسه أنه متمتع بنعمة الله . فليس فى مستطاعه أن يعرف ذلك لنفسه . تقول جان أنها لو لم تكن متمتعة بنعمة الله لما استطاعت أن تفعل شيئاً . وسؤال « بوبير » فى ذلك كان يلزمها إما أن تجيب بلا أو نعم . فان قالت «لا» اعترفت على نفسها بحرمانها من نعمة الله وصارت باعترافها خارجة وملحدة ، وإن قالت « نعم » خانت العقيدة الكاثوليكية التى لا تبيح للشخص أن يعرف لنفسه ذلك . ومتى خالفت العقيدة فى شىء كانت ملحدة الخ . هذا هو المأزق أو الشرك الذى وصلت جان اليه . . . ! ؟

ولكن قريحة جان لم تخنها هذه المرة . وكانت كدأبها وقادة حاضرة جعلتها تظهر فى وسط الزوبعة التى تلت السؤال المتقدم هادئة مطمئنة . ولما عاد إلى الجلسة سكونها ردت جان على سؤال « بوبير »

ردها الخالد الذى تراه بحق بارزاً بين سطور كل كتاب كتب عنها ..

قالت جان ... « إذا كنت غير متمتعة بنعمة الله فانى أسأله تعالى أن يمتعنى بها ، أما إذا كنت متمتعة بها فانى أرجوه تعالى أن يديمها على . ! »

وعند الانتهاء من ردها المحكم ساد القاعة صمت ، ولكنه صمت الدهشة والاعجاب بذلك الرد الحكيم الذى أخرجها من مأزق يضل فى الخروج منه أعظم الناس تفكيراً وفى ظروف خير من ظروف جان .

وبهذه الهزيمة الساحقة «لبوبير» ختمت الجلسة بعد توجيه بضعة أسئلة تفهة عن أيام طفولتها وعن زيها ..

وفى يوم الاثنين ٢٧ فبراير عقدت الجلسة الرابعة وبين دهشة الجميع استهلها « كوشون » بطلب القسم الكامل من المتهمة . لهذا السبب وصفنا قبول جان للحل الذى عرضه كوشون فى الجلسة السابقة بالحل المؤقت . ولكن جان لم تدعه يطيل إلحاحه ، إذ فاجأته فى حزم وعزم بقولها « يجب أن تقنع بما أقسمت عليه ! » فاضطر أن يجاريها ، وشرع يسألها عن القديسين الذين كانوا يخاطبونها ، وكيف ميزت بينهم وعرفت الواحد من الآخر ، وعما إذا كانوا قد جاءوا اليها باجسادهم أم بارواحهم وكانت جان تجيب على الأسئلة فى حدود مارسمته لنفسها ، ومارسمه لها القديسون . ولما سئمت الأسئلة المتشابهة طلبت من المحكمة أن ترجع إلى « ملف » قضية « بواتيه » فان فيه ما يغنيهم عن

التكرار الممل إلى درجة السخف . ولكن أحداً لم يجبها إلى ما طلبت ، مع ما كان فى طلبها من الوجاهة وتوفير الوقت لهم ولها ، وذلك لأن الرجوع إلى محاضر بواتيه كان فيه خزى لهم . إذ انتهت مناقشات بواتيه إلى ما فيه مصلحة جان . . ومصلحة جان كانت آخر ما تبحث عنه محكمة روان . وفوق هذا وذاك فان محكمة بواتيه كانت برياسة « رئيس الأساقفة » أما روان فكان يرأسها أسقف وللفرق بين المنصبين قيمته من الوجهة القانونية فكان يلزمهم الخضوع للقرارات السابقة . وبعد التغاضى عن طلبها الرجوع إلى بواتيه شرع « بوبير » يكرر سؤالها فى موضوع ثيابها ، ومنه إلى موضوع رؤياها ، وكان أهم ما سألها عنه الادلاء ببيان عن « بشراها » التى حملت الملك على تصديقها عند ما قابلته على انفراد فى أول مرة فى « شنون » ، وقد أبت جان أن تبين عنها شيئاً وأدخلت البوح بذلك فى دائرة « محظوراتها »

وبعد أسئلة عديدة ارفضت الجلسة الرابعة من غير انتهاء إلى نتيجة .

ولم يكن فشل القضاة المتكرر مع جان بموجب ليأسهم منها . فقد كان رجال الدين في القرون الوسطى لا تضنيهم المناقشات الجدلية مهما طالت . ولم يكونوا بالذين يسهل إقناعهم بالحق مهما كان واضحاً جلياً ما دام بنفوسهم مرض . ثم هم كانوا من جهة أخرى غير مرهقين لتناوبهم الحوار وتعاونهم على المناقشة وتبادلهم الراحة .

وفى يوم الخميس أول مارس ١٤٣١ عقدت الجلسة الخامسة ، وكان القضاة قد أعدوا موضوعا للمناقشة حسبوه مزلة للفتاة ومزلقا تتردى فيه ، وذلك أنه كان فى الوقت الذى تحاكم فيه ، يتنازع كرسى البابوية إثنان أحدهما كان مقره روما والثانى فى إحدى مدن فرنسا الجنوبية ، فرأى القضاة أن ينصبوا الأحبولة لها هذه المرة حول موضوع البابوين ومن منهما أحق بالمنصب من غيره .

ولما أرهفت الآذان واستعدت للسماع سألها القاضى :

— أى البابوين أصدق ؟

فردت جان وكأنها ألهمت الاجابة إلهاماً

— وهل يوجد اثنان . . !؟

وبهذا الرد الحاسم القاطع أفحمت السائل وأوقعته فى أشد الحيرة والارتباك ، إذ ألقت عليه عبء المسئولية بعد أن ظن أنه ألقاه عليها . وبعد إن كانت « لا » أو « نعم » مؤدية إلى وقوعها فى خطأ كنسى عظيم ، اصبحت المسئولية فى الاجابة بأيهما واقعة على السائل ، أى انها ردت سهمه إلى نحره ، وردته فى سرعة وبداهة جعلت احد القضاة ينطق عفواً عند ما سمع جوابها « تلك ضربة قاضية ! »

ولما زال أثر الصدمة أخذ القاضى السائل يناقشها فى أمور

أخرى وظهر أنه لم ييأس تماماً من موضوع البابوين ، فعـاد يكرر عليهـا السؤال في المعنى المتقدم ولـكنه تلقى منها رداً صريحاً وباتاً إذ قالت . . « إن الواجب يقضى علينـا أن ندين بالطاعة للبـابا الذى يجلس فى كرسى روما . . . ! » وبهذا الرد حقت على السائل كلمة الفشل ولم يجدِ الهيئة موضوع البابوين فتيلا . .

وأسرع السـائل بالانتقال إلى موضوع آخر ، وأخـذ يسألها عن الرسائل التى بعثت بها إلى الانجليز عندما وصلت إلى أورليان ، وكيف أملت على الكاتب ما جاء فيها ، وعن قصدها ببعض العبارات الواردة بها . وصار يلح عليها بالسؤال تلو السؤال حتى أثارها وأهاجها وجعلها تقول له : « ليكن فى علمك أنه قبل مضى سبع سنوات ستصيب الانجليز مصيبة اكبر وأعظم أثراً من مصيبتهم فى أورليان ! وسيغادرون فرنسا بقضهم وقضيضهم بعدها بقليل . . ! » وبهذه النبوءة أثارت جان دهشة الجميع لأنهم كانوا موقنين بأن نبوءاتها تتحقق . . ! وكان كل اختلافهم معها محصوراً فى مصدر إلهامها كما تقدم لك بيانه .

وقد تابع السائل مناقشته لهـا بعد أن هدأت العاصفة التى أثارتها بنبوءتها المتقدمة :

— ومن أين تعلمين بأن الأمور ستجرى كما تصفين ؟

— أعرفها عن طريق الوحى ، وأنا واثقة من وقوعها ، كما أنا واثقة من جلوسك أمامى .. !

ومن الغريب أن النبوءة قد تحققت فعلا فى سنة ١٤٣٦ أى بعد خمس سنوات من النبوءة وقبل انقضاء سبع منها سقطت باريس فى أيدى الفرنسيين وبسقوطها تقلص أو قل أخذ النفوذ الانجليزى يتقلص بسرعة من فرنسا وأصبح وشيك الزوال .

وبعد ذلك أخذ القاضى يناقشها مناقشة غريبة فى موضوع « الأصوات » قائلا :

— بأى اللغات كانت « الأصوات » تخاطبك ؟

— بالفرنسية .

— والقديسة مرغريت أيضاً ؟

— ولم لا يكون ذلك وهى تؤيدنا ولا تؤيد الانجليز ؟

ومن النفاق المر أن أعضاء المحكمة استاءوا من تمثيل جان للقديسين فى صورة من يأنف الكلام باللغة الانجليزية ! واعتبروا ذلك منها كما دلت عليه صحيفة الاتهام (التى سنوردها لك بعد) والتى اشتملت على التهم التى زعموا ثبوتها عليها

وبعد ذلك سألها عن « الشجرة » التى كانت تلعب مع أطفال

القرية تحت ظلالها والتى قامت حولها خرافاتهم ، كما تقدم لك بيانه . سألها عن الأشاعات والاعتقادات التى دارت حول الشجرة ، وعما إذا كانت هى قد شاركت الأطفال الآخرين في اعتقاداتهم ، محاولا فى كل هذا أن يثبت بأن ما كانت تسمعه من « أصوات » وما كانت تراه من أشباح ، إن هو إلا أصوات تلك الجنينات وأشباحها ، ولكن محاولته فشلت ، كما فشلت محاولات غيره من قبل ، ولم يستطع أن ينتهى إلى نتيجة من هذه الناحية أيضاً .

ولعل القارئ يلاحظ أحيانا ان قضاة جان كانوا يعرفون دقائق حياتها من طفولتها إلى وقت وقوعها في الأسر . وليس فى هذا الأمر غرابة إذا تذكرنا حادث « نيقولا » أحد القضاة الذى تمكن من خديعتها فى السجن فى زى صانع الأحذية فقد عرف منها كل التفاصيل (١) وقد وعاها معه « كوشون » ورجاله من ثقب فى الجدار أعد خصيصا لذلك . وهذا وحده التفسير الوحيد المعقول ، عن المصدر الذى استقى منه القضاة معلوماتهم المفصلة عن دقائق حيــاة جان . وفى الواقع أن جان لم تكن تتكتم شيئاً من حقائق حياتهـا ، فقد كانت كلها

---

(١) وفى احدى الروايات ان « نيقولا » اعلن شخصيته لجان وبصفته الدينية حملها على ان « تعترف » ومع ان الاعتراف يجب ان يبقى سرا الا انه اعلنه للمحكمه !

معلومة، ولم تحتفظ إلا ببعض « الأسرار » التى حرمت « الأصوات» عليها اباحتها ...

ولعله من المدهشات التى لفتت نظر القارىء أيضاً ، مابدا من عجز القضاة عن إيقاع جان فى نقائض أو مخالفات دينية ، بالرغم من معرفتهم لكل تلك التفاصيل عنها ، ولهذا الاعتبار قيمته فى تقدير التاريخ لجان دارك ..! ومن رأى بعض المؤرخين انه لو لم يكن لها من الفضل سوى ما أظهرته من الثبات والنبوغ فى ساحة المحكمة لكفى لذلك فضلا يخلد أسمها فى التاريخ .

وانتقل القاضى إلى سؤال جان فى موضوع « الأصوات » ثانية ولكن بطريقة مبتكرة وفى منحى جديد :—

— هل أخبرتك « الاصوات» بأنك ستخرجين من السجن ؟

— لست أدرى متى يطلق سراحى ، ولكننى واثقة من أن بعض الذين يودون موتى سيموتون قبلى ..!

وكان من المضحك للغاية أنها لم تكد تتم جوابها حتى أخذ القضاة يتبادلون النظرات ويتهامسون فى قلق وانزعاج ، من أثر النبوءه الجديدة . واستمر القاضى يسأل :

— هل حددت «الاصوات» موعداً معينا لخروجك من السجن ؟

— سلنى بعد ثلاثة أشهر أنبئك الخبر اليقين . ! ؟

وقصدت جان بردها أنها ستخرج من السجن بعد ثلاثة أشهر ! ولقد صدقت في هذه النبوءة وكان صدقها حرفيا ، فقد قالت قولها هذا فى جلسة يوم الخميس أول مارس ولسوف يكون خروج جان من السجن فى ٣٠ مايو . . ! ولكن إلى أين . . ! ؟ ستعلمن نبأ ذلك بعد حين .

وقد ألح القضاة على جان أن تحدد فى هذه الجلسة ، وفى ما تلاها من الجلسات ، موعد خروجها من السجن بالضبط ! ولكنها أبت ، ولم تزد على ما قالته حرفا واحدا ، لأنه لم يسمح لها بأكثر من ذلك . ولكن القاضى أخذ يلح ويتلهف على معرفة الوقت بالتحديد ، وصممت هى على أنه غير مسموح لها ان تقول أكثر مما قالت .

وكانت « عقلية » أولئك القضاة غريبة . . يحاكمون الفتاة من أجل اتهامها بالسحر والالحاد والاتصال بالأرواح الخبيثة . وهم يصدقون الاتصال . ويصدقون «بالأصوات» . ولكنهم يحاولون بعد التصديق أن ينسبوا ذلك إلى « روح شيطانية » ومن هنا جاء الحاحهم عليها لمعرفة موعد خروجها من السجن وكأنهم كانوا يخشون خروجها منه رغم أنوفهم ، ولذلك رغبوا فى معرفة تاريخ الخروج لكى يحتاطوا له ويأخذوا له العدة

ثم انتهت الجلسة بعد محاورات بسيطة فى شأن ثياب القديسين

وعن «بشراها» للملك التى جاءته بها فى «شنون» وانتهت بالفشل المطبق كغيرها من سابقاتها .

وفى يوم السبت ٣ مارس سنه ١٤٣١ عقد الجلسة السادسة وكانت جلسة شديدة الجلبة كثيرة الزوابع ... دخل القضاة الجلسة ووجوههم عابسة عبوسة المصمم على شىء حاسم . وظهر بعد افتتاح الجلسة أنهم دخلوا وهم متواصون بالوصول إلى نهاية قاطعة مع الفتاة فى تلك الجلسة . ودل على ذلك التصميم السابق والنية المبيتة انهيالهم على الفتاة بالاسئلة من كل جانب ، وأمطارها وابلا منها حتى اضطروها مرارا إلى أن ترجوهم فى أن يسألوها واحدا واحدا بدلا من بلبلتهم مرة واحدة . ودل عليه أيضاً أنهم عادوا يطالبونها فى شدة وقوة بأن تقسم اليمين كاملة من غير أدنى تحفظ ، و بدا عليهم مايكنونه من الامتعاض لخضوعهم لها فى مسألة اليمين فى الجلسات السابقة ..!؟

ولم تحفل جان من إجماع القوم على مناقشتها ولم تذعن لهم فى مسألة القسم وبقيت مصرة على ما ارتضته من قول الحق فى كل ما يدون من أقوالها فى المحضر . ولم تتزحزح قيد أنملة عن موقفها ، غير آبهة لاصرارهم ، وتجهمهم ، واضطرتهم مرة أخرى إلى الاكتفاء بما تم عليه الاتفاق فى شأن القسم . وانتقلوا بعد ذلك يسألونها عن ثياب القديسين وعن شعر رأسهم ، وشكل قوامهم . ثم عن زيّها وأسبابه

وبعد ذلك ناقشوها في مسألة «علَمها». وكانوا قد جمعوا حوله عدة خرافات نسبوها اليها وإليه، أخذت تبددها بصراحتها المعهودة وحسن بيانها. ولكن سؤالا عن العلَمَ أهاجها لما بدا عليه من السخف والغثاثه، فردت عليه فى انفعال وحدة وإليك السؤال والجواب:

— ألم تقولى لجنودك ان كل علم يشبه علمك يكون التوفيق حليفه؟

— كل ما قلته لهم هو: «اصرعوا الانجليز واسحقوهم! وهذا عين ما كنت أفعله بهم أنَّى وجدتهم..!»

فلما سمع القضاة الرد هاجوا وماجوا وقاموا في أما كنهم يصخبون ويضجون. كأن السماء انطبقت على الأرض! أو كأنهم خافوا إن سكتوا على هـذا التعريض باصحاب السلطة الفعلية أن تأخذهم أخذ عزيز مقتدر على ما فرطوا فيه من السماح للفتاة بهذه الجرأة فى قلعتهم وعقر دراهم!؟ حدث هـــذا من القضاة وهم فرنسيون! يحاكمون فرنسية! ولكنهم كانوا فى الواقع فرنسيين قالبا وانجليز قلبا!؟

أما جان فقد قالت ردها ثم قعدت فى مكانها، ولم تلبث ان استردت هدوءها وعادت اليها طمأنينتها غير عابئة بالضجة التى وقعت إثر إجابتها. وبعد أن استنفد القضـاة هياجهم، وعادت اليهم سكينتهم. استأنفوا المناقشة ودارت هذه المرة حول ما كانت تلاقيه من التفاف الشعب حولها، والصلوات التى كانت تقام تكريما لها، وتقبيل الناس ليديها وقدميها وأطراف ثيابها، واعتقاد الشعب فى صدق رسالتها.

وردت جان على كل هذه المسائل بانها لم تأمر الناس بشيء منها ، وأنها لم تكن تدرى ما اذا كان الشعب يعتقد أو لا يعتقد فى رسالتها ، وان اعتقاد الشعب فيها أو إنكاره لا يؤثر فى صدق الرسالة ، وأن تعلق الناس بها والتفافهم حولها أنى سارت دليل على اخلاص لها لم تكن لتستطيع دفعه لو شاءت ، وان ذلك الاخلاص طبيعى لأنها بذلت في سبيلهم قصارى ما يستطيع مخلوق بذله . . .

وسألوها عن طفل « لانى » فاجابتهم تلك الاجابة البريئة التى أشرنا اليها فيما سبق ثم سألوها عن محاولتها الهرب من قلعة «بوريفوار» وجرت بينها و بينهم المناقشة التالية

— لماذا قفزت من قلعة بوريفوار ليلا وحاولت الهرب !

— كنت أود ان أذهب لمساعدة « كومبين » .

— ألم تصرحى أنك كنت تفضلين الموت على التسليم للانجليز ؟

— نعم قلت أنى أفضل ان يقبضنى الله اليه على ان أسلم للانجليز !

وقصدت الهيئة الموقرة أن تثبت عليها محاولة الانتحار . والانتحار جريمة . كما قصدت ان تثبت عليها فى مسألة العلم السحر . ولكنها على ما رأيت فشلت ، وأعجزها ان تثبت من أقوالها شيئاً . وختمت هذه الجلسة العاصفة بالخيبة للقضاة والنصر لجان .

المحاكمة السرية

كان للفشل المتكرر الذى منيت به هيئة المحكمة فى جلساتها السابقة في حوارها العلنى مع الفتاة أثره فى نواح مختلفة . كان له أثره فى الرأى العام ، الذى بدأ يشعر بشىء من العطف عليها متأثراً في ذلك بما كانت تبديه من الصبر والجلد مع الصراحة ونبالة القصد والخلق ، وبما كانت تظهره من حدة الذكاء وقوة العارضة . وكانت أخبار الجلسات تنتشر بين الناس بسرعة البرق ، وتصبح حديث مجتمعاتهم وتبيت موضوع سمرهم . . . وكان له أثره فى بعض القضاة أنفسهم الذين أخذت ضمائرهم تستيقظ بعد طول السبات ، وأخذوا يشعرون بفداحة ما هم قادمون عليه من ظلم فاضح وخسران مبين . فجعلوا يظهرون شيئاً من الميل وحسن الاعتقاد فى أقوال الفتاة التى خلبتهم ببساطتها وطهارتها ، وسدت أمامهم منافذ الريبة التى ولدتها لديهم الروح الرجعية المسيطرة على نفوسهم ، وعززها سلطان القوة الغاصبة بما لوحت به من أطماع ومناصب .

شعر « كوشون » بان الأرض بدأت تميد من تحت قدميه . وأن مجهوده فى الاتهام قد يصيبه العقم فتضيع عليه آماله ومطامعه ، فاسرع يدبر للحالة الطارئة ما ينجيه من عواقبها ، وأخذ يفكر تفكيراً عميقاً ،

فى تدارك الخطب قبل أن يستفحل فاستقر رأيه على خطة جديدة لاتمام المحاكمة . . .

والخطة الجديدة التى استقر عليها رأيه ، هى إبطال علانية الجلسات وجعلها سرية ! ورمى بالسرية الى التخلص من التأثير الذى بدأت تحدثه شجاعة الفتاة فى الرأى العام . ومنع انتشار اخبار مواقفها الجريئة فى الحق مع القضاة . ولكى يتخلص من بعض القضاة الذين بدت عليهم بوادر من الميل نحو الفتاة ، تظاهر بان مايلاقيه القضاة من المحاكمة وامتداد الجلسات من التعب اصبح يقلقه ! و يقض مضجعه ! ولهذا السبب وحده ! رأى ان يعفى من الحضور عدداً كبيراً منهم مكتفياً بالسير فى القضية فى المدة الباقية لها بالعدد القليل منهم .

وتنفيذاً للخطة المتقدمة استبقى «كوشون» معه من وثق بهم من القضاة ، وعرف فيهم الصلابة فى الضلال والتبرم بالفتاة والنقمة عليها وسرح العدد الأكبر منهم يذهب وشأنه ثم عقد مجلسا صغيراً من خلاصة الموثوق بهم واخذ يغربل معهم محاضر الجلسات السابقة . . فما وجد فيها فى مصلحة الحق ومصلحة الفتاة تغاضى عنه وتجاهله ! وما كان فى ظاهره مسحة من الشك ابرزه وجسمه وجعل منه مادة اعدها اساساً للمناقشة فى الجلسات القادمة . . . ! التى حرص على أن يظهرها وكأنها رجع ما انقطع من الجلسات السابقة .

وفى العاشر من شهر مارس ١٤٣١ بدأت المحاكمة السرية . ولما سيقت جان امام المحكمة كانت تبدو عليها امارات التعب وانحطاط القوى بشكل ظاهر وكانت قلقة يغشاها نوع من الذهول . . وكانت أبسط مبادىء الشفقة الانسانية تقضى على المحكمة ، وقد لاحظت عليها تلك الحال السيئة ، أن تعفيها من الاستجواب وعنت المناقشة حتى تسترد شيئاً من عافيتها . وهذا ما كان يقضى به ايضاً منطق الحوادث التى تظاهر « كوشون » بانها هى التى حملته على مراعاة حالة القضاة الصحية وماحل بهم من تعب ، وجعلته يسرح أكثرهم لكى يستريحوا وهذه المتهمة التى استهدفت طول هذه المدة لهجمات الجميع وهى فى أسوأ حال وأشد عذاب ، قد أصبحت وقواها مما قاسته خائرة . وبان ضعفها وبرز هزالها ، ألم تكن تستحق أيضاً أن ينالها نصيب من عدل القاضى فتأخذ قسطها من الراحة حتى تستجم وتستجمع قواها وتستعد للنضال من جديد ؟ ولكن أنى لأمثال « كوشون » من عباد السلطة أن يرعوا عدلا ، أو يفرقوا بين حلال وحرام بين . وقد سجل له التاريخ أنه فرح بما بدا على المتهمة من مرض وسقام ، واستغل ما كانت فيه من آلام ، وانهال هو وأعضاؤه عليها بالسؤال في أثر السؤال حتى وقعت فى شىء من التناقض فيما يتعلق « ببشراها » للملك .

وفى اليوم التالى جروها الى مكان المحاكمة وكانت لا تزال مريضة

منهكة ، وأمطروها وابلا من الأسئلة فكانت من شدة ما تعانيه ،تسرد أشياء من غير وعى لم تكن لتقولها لو أنها كانت فى حالتها الطبيعية .

وفى اليوم الثالث للمحاكمة السرية كانت جان أحسن حالا من ذى قبل ، و بدا عليها كأنها استردت شيئاً من عافيتها فانها عادت تجيب على الأسئلة فى مقدرة وذكاء عليهما طابع ما تعودت ارساله في وجه قاضيها من دمغ الحجة ومتانة المساجلة . سألها القاضى :

— هل تعلمين ما إذا كانت القديستان «كترين» و «مرغريت» يكرهان الانجليز ؟

— اعلم انهما يحبان من يحبهم الله و يكرهان من يكرههم !

— وهل يكره الله الانجليز؟

— لا أعرف شيئا عن حب الله أو كرهه لهم . ولكن أومن بان الله سينصر الفرنسيين عليهم ، وأنهم سوف يجلون عن فرنسا ولن يبقى لهم فيها غير موتاهم !

— وهل كان الله فى جانب الانجليز لما كان النصر حليفهم فى بادىء الامر ؟

— لست ادرى ما إذا كان الله يكره الفرنسيين فى ذلك الوقت ولكنى أعرف أن هزيمتهم كانت عقاباً لهم على ما فرطوا فى حق بلادهم .

ثم انتقل القاضي يسألها في موضوعات شتى الى أن سألها عن العَلَم قائلا

— هل أنت التى ساعدت العلم على أن يكون أداة للنصر أم العلم الذى ساعدك على كسب المعركة ؟

— سواء أكان العلم أم كنت أنا فالنصر جاء من عند الله .

— ولكن هل كان جل اعتمادك فى النصر على نفسك ام على علمك؟

— لا على نفسى ولا على علمى انما كان اعتمادى على الله وحده ! !

— ولماذا كان علمك هو العلم الوحيد الذى رفرف فوق رأس الملك اثناء التتويج؟

وهنا يجب ان تنصت لجوابها الخالد .

— لقد خاض عَلَمى كروب الحرب ، فحق له أن يلقى الفخار

Il avait éte à la peine, C' etait bien raison qu'il fut à l'honneur

وفى بقية هذه الجلسة والجلسة التالية كرروا عليها الأسئلة عن ثيابها وعن رغبتها فى الفرار من السجن ورأيها فى مشروعية الفرار . وفى خلاصها من السجن وكيف ومتى يكون ولكنهم رغم كل طريق معوج سلكوه لم يستطيعوا ان يجدوا من الفاظها ما يعينهم على اثبات التهمة ثبوتاً قاطعاً . وفشلوا معها فشلا ذريعاً . الأمر الذى احنقهم

وأثار حفيظتهم . وأخيراً حددوا جلسة ختامية فاصلة فى يوم ١٧ مارس سنة ١٤٣١ .

وفى اليوم المحدد اجتمعت المحكمة وكانت قد أعدت فخاً دينياً للفتاة وأعدته بمهارة فائقة ، وذلك أنهم دبروا مباغتة المتهمة بالسؤال الآتى :

— هل تقرين بان أقوالك وأفعالك ، طيبة كانت أم خبيثة ، خاضعة لحكم الكنيسة عليها ؟

لو أجابت « بنعم » وضعت كل أقوالها وأفعالها تحت تصرف هؤلاء القوم الذين لا يرقبون فى الله إلاّ ولا ذمة . ولو أجابت « بلا » أصبحت وهى طائعة مختارة ترفض الاذعان لحكم الكنيسة ، ومعنى هذا فى نظر الكاثوليكية هو الالحاد بعينه !

ولم يفت جان غرض القوم من السؤال . وفهمت مافيه من خبيثة ، وردت عليهم وهى حريصة تقول : « إنها تحب الكنيسة ، وإنها تؤيد العقيدة المسيحية بكل ماتملك ؛ ولكن ما قامت به من أعمال هو نتيجة لما كان يوحى اليها به فيجب أن يترك الحكم عليه لله وحده الذى أمر بالقيام به ! » .

فتحير السائل من الجواب ولكنه أصر على أن تعلن إذعانها من

غير قيد ولا شرط لحكم الكنيسة على أعمالها وأقوالها ، شأنها فى ذلك شأن كل مسيحية ومسيحى . فاجابت على اصراره بقولها « انى أفوض أمرى لله وحده » ثم التفتت لى السائل وحملقت فيه قائلة « لماذا تخلق إشكالا من غير داع ؟ » ولكنه استمر على إصراره فى إعلان إذعانها واستمرت هى على رفضها ولما أعياه الأمر انتقل يسألها فى معادة سبق أن سئلت فيها مراراً ولما عيل صبرها طلبت من المحكمة أن ترفع أمرها للبابا . فوقع هذا الطلب المفاجىء من المحكمة وقع الصاعقة لأن المحكمة لم تكن تملك فى الواقع أن ترفض طلب الاستئناف إلى البابا فى مثل تلك القضية واذا كانت القضية قد عرضت على البابا لكانت نظرته من غير تحيز لأحد طرفى الخصومة وكانت براءة الفتاة محققة . وكان « كوشون » يدرك هذا كله ويقدره ويقدر ما فيه من ضياع لآماله ولذلك بادر بسرعة مدهشة إلى تغيير موضوع المناقشة وختم الجلسة مسرعاً . . وأمر بمضاعفة العناية بحراسة الفتاة وبث العيون والأرصاد حولها حتى لا يتصل بها مخلوق يمكن ان يتسرب بوساطته خبر طلب الفتاة للاستئناف لدى البابا . لأن فى تسربه مفسدة لكل مادبر وتعطيلا للقضاء عليها . .

وبين هذا الفشل المخجل انتهت المحاكمة السرية . كما انتهت أختها العلنية من قبل

توجيه الاتهام لجان دارك

لعل القارىء قد لحظ فى الفصلين السابقين ان قضاة جان لم يوجهوا اليها تهمة معينة . لا فى الجلسات العلنية ولا فى الجلسات السرية . واكتفوا بترديد المآخذ التى لاكتها السنة الخصوم ونسوا ان مواجهة المتهم بتهمته من أوليات القضاء العادل ، ومما تقضى به اجراءاته . ومن هذا يتبين مقدار ما وقع على الفتاة من ظلم حين كان قضاتها يسألونها في الموضوع تلو الموضوع ، ويسألونها أسئلة عامة غير محدودة ، وهى لاتدرى مايراد بها او منها إلا بمقدار ما كانت تستنبطه بقريحتها . . . جرى كل هذا عمداً من قضاتها على أمل إيقاعها فى التناقض ، مثلهم فى هذا كمثل الصياد ينصب الشراك للصيد في كل منطقة لعل القنيصة تتردى فى هذه او تلك عفوا ومصادفة . . .

وحدث فى اثناء المحاكمة ان مر بمدينة « روان » محام معروف من أهل نورمنديه اسمه « لوبير Lohier »فانتهز « كوشون » فرصة وجوده بالمدينة وأطلعه على ملف القضية وسأله رأيه فيه . وكان « لوبير » رجلا صادقا شجاع الرأى نزيها . . . لا يغريه « ذهب المعز ولايرهبه « سيفه » . فلما اطلع على الملف التفت إلى « كوشون » وقال له فى وقار وشجاعة إن الاجراءات التى اتخذت فى القضية كلها

باطلة . ! وأبدى له الأسباب الآتية لبطلانها : (١) ان المحاكمة كانت سرية فى الغالب ولم تكن حرية المناقشة فيها متوافرة (٢) إن المحاكمة مست شرف ملك فرنسا ولم يدع للحضور أمامها للدفاع عن نفسه ، أو تعيين من يتولى ذلك بالنيابة عنه (٣) إن المتهمة لم تعلن بتهمتها بادىء ذى بدء (٤) أن المتهمة اضطرت للدفاع عن نفسها من غير معاونة شرعية وهى صغيرة السن والتهمة الموجهة اليها خطيرة .

ولما سمع « كوشون » بانتقادات « لوبير » استشاط غضبا بالرغم من أنه هو الذى طلب منه رأيه ! وكأنه لم يكن يتوقع منه كل هذه الجرأة والصراحه ! وبلغ من حنقه عليه أنه أقسم أن يغرقه فى النهر على « وقاحته » الزائدة . الأمر الذى اضطر « لوبير » إلى التعجيل بالهرب إلى رومية فرارا مما عساه ينزل به من مقت «كوشون» وغضبه

وانصرف «كوشون» وجماعته الى دراسة المحضر لكى يستنبطوا التهم منه . وأنفقوا . فى ذلك تسعة أيام كاملة خرجوا بعدها بست وستين تهمة أدانوا فيها الفتاة . . ! أما كيف استنبطوا هذا العدد العديد من التهم ، وقد مر بك طرف من إجابات الفتاة فى المسائل المهمة ، فقد كان ولا يزال سرا من أسرار « مهنة » أمثال « كوشون » وأعوانه .

وفي ٢٧ مارس جمع « كوشون » ستة من القضاة وأخذوا فى دراسة الموقف وتداولوا فى الأمر وأخيرا استقر رأيهم على مواجهة

الفتاة بالتهم المتقدمة وان تواجه بها تهمة تهمة ، و يطلب منها جواب صريح على كل تهمة واذا رفضت كان الرفض دليل ثبوت التهمة عليها . ويظهر من هذا القرار ان انتقادات « لو بير » لم تذهب عبثا ...

ولما عادت جان أمام المحكمة افتتح « كوشون » الجلسة بخطبة قصيرة وجه فيها القول لجان وجاء فيها ان المحكمة مؤلفة من رجال أتقياء !! تفيض قلوبهم بالرحمة والحنان عليها ! ! وانهم لا يرغبون فى الحاق الأذى بها ! ! ! بل كل ما يرغبون فيه هو هدايتها إلى طريق الحق والخلاص ! !

وكان نفاق « كوشون » فى خطابه واضحا ، و ياليته وقف فيه عند هذا الحد ، بل زاده بما هو أدهى وأمر ، وذلك باعلانه انه مستعد للسماح لها بمحام يدافع عنها !! ولكن على شرط ان تختاره من بين الأعضاء الذين يؤلفون معه المحكمة !! وكان هذا منه نهاية النفاق واللؤم ، لأنه لم يكن قد مضى على سخطه على « لو يير » لمجرد انتقاده الاجراءات ومن بينها عدم اختيار مدافع عنها إلا وقت قصير جداً . هذا يدل من طريق غير مباشر على مبلغ تأثير انتقادات « لو يير » عليه لأنه إذ قد بدأ يحتاط لها واحدا بعد الآخر وان كان الاحتياط يجىء فى طريق ملتوية تتفق وأغراضه السافلة .

سمعت جان خطابه واقتراحه عليها وفهمت منه أنه يريدها

على أن تستنجد بأشد الناس اهتماما بالكيد لها . أى كمن يطلب من الشاة أن تستنجد بالذئب ، فرفضت عرضه رفضا باتا ، فأسرع بتدوين الرفض اثباتا لانصافه ! ! وتدليلا على عدله ! و بعد ذلك طلب منها ان تجيب على كل تهمة توجه اليها ، وحذرها عاقبة رفض الاجابة أو مجرد التمهل أكثر من مدة معينة ، وإلا حقت عليها كلمته

وتولى «توماس كورسل Thomas de Courcelles» قراءة التهم لجان وأخد يتلوها عليها واحدة فواحدة .وهى تعقب على كل تهمة بانكارها تارة أو تكتفى بالاشارة إلى ردودها السابقة . واحتوت التهم كل ضروب الضلال التى يمكن أن تخترعها مخيلة رجل دينى مغرض . وإليك أمثلة منها : اتهموها بأنها كانت ساحرة ومدعية للنبوة . ومتصلة بالأرواح الشريرة . ومتجرة بالسحر . وكافرة . وعابدة أصنام . ومرتدة عن دينها . تعبث باسم الله وملائكته وأوليائه . موقظة للفتن . عابثة بالأمن . محرضة على القتل وسفك الدماء . متبذلة بارتدائها ثياب الرجال . تحترف الجندية . ضالة مضللة للملوك والشعوب . مغتصبة للالقاب القدسية . داعية الجماهير لتقديسها و تمجيد شخصها . عارضة يديها وثيابها لتقبيل الناس الخ . الخ .

تلك صنوف من التهم التى أبدعتها مخيلة « كوشون » وجماعته وأخذوا يقذفون بها فى وجه الفتاة ، وهى تهم كما رأيت تتلخص في

تزييف كل حقيقة من حقائق حياتها ، ومسخ كل فعل من أفعالها ، والباس كل حق لها لباس الباطل ..

وكانت التعليلات التى عللوا بها تلك التهم ، ودللوا بها عليها غريبة شاذة لا يسيغها عقل إلا عقلهم ولا يقبلها ضمير إلا إن كان على غرار ضمائرهم . فقد عللوا اتهامها بالاتصال بالأرواح الشريرة بأنها كانت تلعب مع الأطفال تحت « شجرة الجنيات » وهى طفلة !! وعللوا عبثها بالأمن وإيقاظ الفتن بانها دفعت الناس الى القيام في وجه الانجليز ! وكم كان عجيبا اتهامها بالسعى لتمجيد نفسها كانما كانت هى التى تقسر الجماهير على الالتفاف حولها عقب الانتصارات التى تمت على يديها . وهكذا عكسوا الحقائق والمرئيات الى أضدادها شأن المغرضين . والغرض يعمى ويصم ...

واليك بعض الأمثلة من الحوار المدهش الذى جرى بين جان وبين القاضى عند مواجهتها بالتهم المتقدمة .

وجهت اليها المحكمة اللوم من أجل تخليها عن عملها النسائى وقيامها بالحروب وهى من أخص أعمال الرجال . فلما سمعت اللوم بادرت لائمها بقولها « لا تخف ! ان فى الدنيا نساء كثيرات ليؤدين الأعمال النسوية » ولما قال لها القاضى متهكما برسالتها ... « يظهر لنا ان الرسالة التى تدعينها لنفسك وتقولين عنها أنها من عند الله لا شأن لها

إلا بالحض على الحروب وسفك الدماء » فكان جوابها « ان الحرب لم تكن هى الغرض الأول، فلقد حرصت على الدعوة الى السلم والمصالحة بادى ذى بدء فلما فشلت الدعوة السلمية جنحت مرغمة الى الحرب والقتال ، لانهاء مابيننا وبين العدو من إشكال . » وقرعتها المحكمة على محاربتها للبرجنديين وهم فرنسيون ، ولا يسعها ان تدعى أنهم كانوا كالانجليز، غاصبين لبلاد غير بلادهم ، فقتالها أياهم كان قتالا بين أبناء الوطن الواحد يخالف المسيحية فى تعاليمها . وعلى هذا التقريع أجابت جان أنها كانت دائماً تفرق فى المعاملة بين البرجنديين وبين الانجليز فى القول وفى العمل ، فالى البرجنديين كانت تبعث بالرسل وترسل بالكتب تحض دوق برجندية على عقد الصلح مع فرنسا والعمل على شد أزرها،فكان يأبى ألا أن ينضم الى العدو الغاصب.أما الانجليز فكان الصلح الوحيد الذى يمكن قبوله منهم هو جلاؤهم عن فرنسا والعودة الى بلادهم . لأنهم كانوا غاصبين ملكا لم يخلق لهم . . . وبالرغم من هذا فقد كنت دائماً أوثر ان أعرض عليهم السلم أولا فكانوا يستهزئون و يستكبرون . ثم ردّدت جان نبوءتها وكررتها بان الانجليز سوف يخرجون من فرنسا قبل مضى سبع سنوات . ولما أخذت المحكمة تتجنى عليها فى مسألة زيها قاطعتهم بقولها « افعلوا ما شئتم فلن أغير زيى ولو قطعتم رأسى ! »

وأخذت تنتقل بها المحكمة من تعسف الى تعسف ومن أعنات

إلى اعنات حتى وصلوا إلى اتهامها بالغطرسة والكبرياء لتسميتها باسم « القائد العام للجيش » وهنا لم تمهل المحكمة تمادى فى التجنى عليها وصدعت بقولها الحازم « . إن كنت القائد العام للجيش فذلك كان لسحق الانجليز وطردهم ... ! »

وانتهت الجلسة ولم تستطع المحكمة ان تلزم جان الحجة فى أمر من الأمور وباءت بالفشل . ولم تصل الى نتيجة معها . مما دعا « كوشون » الى ان ندب لجنة لغربلة التهم مرة أخرى وتخفيضها إلى أدنى حد ممكن . وقضت اللجنة الجديدة عدة أيام تتذاكر وتتشاور حتى نزلت بالتهم الى اثنتى عشر تهمة أو كما وصفها بعض المؤرخين اثنتى عشر أكذوبة .

وحدث فى أثناء بحث اللجنة الأخيرة أن ذهب « كوشون » ومعه قاضيان احدهما كان يدعى « ازامبار دى لا بيير Isambard de la Pierre» والثاني « مرتن لدفينو Martin l'Advenue » وطلب من جان أن تستغفر من ذنبها وتذعن للكنيسة فى كل أمورها . ولكنها أبت كل الاباء . وهنا أشار عليها « إزامبار » أحد القضاة المرافقين لكوشون ان ترفع استئنافا عن قضيتها أمام « مجمع بال » أحد المجامع الدينية المنعقدة فى ذلك الوقت . فوافقت جان على إشارته فى الحال ، لأنها كانت واثقة من عدالة أية محكمة ترفع اليها القضية غير هذه المحكمة التى تألفت فى ظل الغاصب و بين سمعه وبصره ، ولكن « كوشون » لم

يكد يسمع إشارة « ازامبار » حتى استشاط غضبا وقال له « اخرس ان هذا من عمل الشيطان » ! وما كان من عمل الشيطان إلا عمله هو واصراره على البغى والعدوان .

وأراد « منشون » أن يسجل طلب جان للاستئناف فى المحضر لأنه كان حقاً مشروعاً لها ولكن « كوشون » حال دون ذلك . وهنا صاحت جان فى وجهه « إنك ياسيدى حريص كل الحرص على تدوين كل ماتزعمه ضد مصلحتى ، أما ما كان فى مصلحتى حقاً فانك ترفض تدوينه !!! » وحقاً قالت جان لأنه لم يكن فى قضيتها قاضياً بالمعنى المفهوم من الكلمة، بل كان كما أراده خصومها المستترون « خصما وحكما » ومن هذا جاء حرصه على عدم رفع القضية إلى أية جهة من جهات الاختصاص الأخرى حتى لاتفلت الفريسة من يده فتضيع عليه الغنيمة

ومما زاد قسوة «كوشون» بشاعة أن تصرفه المتقدم وقع في وقت كانت فيه جان مريضة .

وفى أوائل ابريل تمت صياغة التهم الاثنتى عشر وتقرر إرسالها إلى « الجامعة » في باريس ، وفي مساء ٤ ابريل كانت نسخة التهم قد أعدت للارسال . وفى هذه الأثناء حدث من « منشون » ما يمكن أن يعتبر آية من آيات الشجاعة والصدق فى مثل تلك الظروف الشاذة . وذلك أنه جاء على النسخة المعدة للارسال إلى باريس ودوّن

على هامشها مايفيد أن كل مانسب إلى جان من الأقوال المقدمة كدليل على صحة التهم مخالف تماماً لما ورد من أقوالها فى المحضر . وفى يوم ٥ ابريل قام الرسول إلى باريس يحمل التهم . . .

وتتلخص هذه التهم فى أن جان خلافاً للعقيدة الكاثوليكية تؤكد أنها وجدت طريق « خلاصها » من غير طريق . الكنيسه ولذلك ترفض الاذعان لها . وتعلن أنها كانت تستمد الوحى فى كل ماعملته من الله ، كما وأنها هددت كل من لم يذعن لها . وهى تدعى أنها لم تذنب قط مع أنها ارتكبت الخطيئة بتزيها بزى الرجال وادعت بأن القديسين والقديسات لايتكلمون اللغة الانجليزية وأنهم من أنصار الفرنسيين فقط . هذه هى خلاصة أهم التهم التى استقر رأى رجال الدين فى « روان » على إلصاقها بالفتاة التى ساقها نكد الطالع للمحاكمة أمامهم .

وفى مساء اليوم الذى بعث فيه بالتهم إلى باريس شاع فى المدينة أن جان دارك مريضة مرض الموت . . وتحقق الانجليز من صدق الاشاعة فاستولى الذعر على قلوبهم خشية أن تموت موتاً طبيعياً ، وقبل أن تصدر الكنيسة حكمها عليها ، فتصبح فى نظر الشعب بطلة شهيدة وضحية مقدسة غالية . وتكون فى موتها على هذه الصورة أقوى منها وهى حية وذاك ما تحاشوه من أول الأمر . .

ومن المضحك المدهش معاً أن « ورك » لما سمع بمرضها خف إلى القلعة مهرولا ومستصحباً معه « كاردينال أف ونشستر » وطلبوا أن يلحق بهم بعض الأطباء . ولم يكن ذلك بطبيعة الحال شفقة عليها أو رحمة بل كان خوفا أن تفلت منهما الغنيمة . يدلك على هذا قول « ورك » للأطباء وهو بجوار سريرها وبين سمعها وبصرها يوصيهم بها « أذكركم بان تعنوا بالفتاة عناية فائقة ، لأن جلالة الملك غير مستعد لأن يسمح بموتها موتاً طبيعياً ، فقد كلفته ثمناً غالياً ، فهو لا يرضى لها إلا الموت حرقاً . فابذلوا جهدكم . وخذوا حذركم . واشفوها من المرض . . !! »
وقال « ورك » عبارته هذه فى لهجة عسكرية جافة . ولم يرحم شقاء الفتاة بمرضها . . ولم يأبه لما فى قوله ولهجته من زيادة فى ألمها . . ورضى أن يكون فظاً غليظ القلب فى وقت كانت الفتاة فيه تغالب الموت ويغالبها ، وتعالج سكراته بين اليأس والرجاء . ومن المؤلم المدهش أن تعلم أن مرض جان الأخير كان ناشئاً من أكل سمك أرسله اليها « كوشون » !! وهذا ما أجابت به الأطباء حين سألوها عما تعتقده السبب فى مرضها الأخير . وأكد فريق من المؤرخين أن « كوشون » قد تعمد قتلها بذلك السمك المسموم !

« كوشون » رجل الدين . ورئيس المحكمة التى تفصل فى القضية يدس السم للمتهمة !! ويل له ! ترى لماذا أراد موتها !؟ أهى وخزة من

وخزات الضمير دفعته لكى يختصر طريق الهول والعذاب الذى ينتظر الفتاة ؟ أم هى نزوة من نزوات النفس الأمارة بالسوء حملته على تلك الفعلة الشنعاء لكى يزداد زلفى عند سادته الانجليز ؟ . ولكن الانجليز كانوا يكرهون موتها موتاً طبيعياً ، كما دل على ذلك فزعهم عند علمهم بمرضها وخطورته . . لعله أراد بفعلته أن يخلص من المشاكل والزوابع التى أثارتها بمواقفها معه ومع قضاته . .

و بقيت جان مريضة نحو أسبوعين . ثم أخذت تتماثل للشفاء . ولما عرف « كوشون » أنها تماثلت ذهب اليها فى جمع من العلماء وأخذ ينصحها بالتوبة والعودة إلى الكنيسة . . فردت عليه جان شاكرة له نصحه ثم قالت أنها مشرفة على الموت بسبب ما انتابها من مرض . و كل ما ترجوه هو أن تموت مؤمنة صادقة .

وفى هذه اللحظة ظن « كوشون » أن المرض قد هدّ إرادتها وأنها قد تقبل ما كانت ترفض ، فتشجع وطلب منها أن تعلن إذعانها لكل ما تقضى به الكنيسة فى أمرها . . .

ولكن جان خيبت ظنه فى ضعفها . وقالت له رداً على طلبه : « ليس عندى ما أضيفه على ما سبق لى قوله وتكراره » . وعندما أحس بالخيبة انتقل إلى التهديد والوعيد وعلا صوته وارتفع ضجيجه . فتركته جان يصخب و يتوعد حتى هدأ وأصبح مستعداً لسماعها ثم

قالت له فى وضوح . . . « ليكن ما يكون ، فلن أفعل ولن أقول غير ما فعلت وقلت في جلسات المحكمة » .

وفي الثانى من شهر مايو ١٤٣١ عقد « كوشون » جلسة كاملة فى قاعة الجلسات بالقلعة حضرها ٦٢ قاضياً ، وكان المقصود من عقدها أن يعظ جان وعظاً دينياً على أمل أن ينجح فى اخضاعها للكنيسة عن طريق النصح والارشاد ، حيث قد فشلت معها كافة الوسائل الأخرى ويظهر أن حمل جان على إعلان خضوعها لأحكام الكنيسة أصبح أخيراً شغل « كوشون » الشاغل . لأن ذلك الخضوع كان يمكنه من التحكم فيها بما شاء وشاءت له أغراضه بطريقة مشروعة ... وقام الواعظ وأخذ يلقى عظته التى كانت عبارة عن شرح المطاعن التى كيلت لها من كل جانب ومقدارها بين كبائر الذنوب . وبعد أن أسهب الواعظ فى مطاعنه ومثالبه وبالغ فى ذكر الذنوب والآثام التى اقترفتها ، أراد أن يرى مبلغ تأثير وعظه وإرشاده ، فطلب منها أن تعلن إذعانها للكنيسة . وانتظر فى زهو واعجاب أن يسمع منها كلمة الخضوع التام والاذعان الكامل ، ولكنه سمع بدلا من هذا كلمات التصميم والأباء . فأخذته الحدة وصار يلح عليها ويكرر حتى ضايقها ، وأخيراً التفتت اليه غاضبة وقالت في حدة وحزم : « لن أغير حرفاً مما سبق لى بيانه ، ولو رأيت الجحيم أمامى لكررت قولى السابق » .. وكان لهذا

الجواب القاطع رنة إعجاب شملت الخصوم والأولياء . ولم يتمالك « منشون » من إظهار إعجابه بذلك الرد إذ كتب أمامه فى الهامش العبارة التالية « رد مجيد Superba Responsis

وبعد أن اصطدم الواعظ بهذا الرد الطاحن أخذ يحاورها فى الموضوعات التى تكرر سؤالها عنها حتى أصبحت حديثاً معاداً مملولا إلى أن انتهت الجلسة بين الخيبة والفشل .

وفى الحق لقد أصبح « كوشون » وعجزه عن التغلب على الفتاة مضغة الأفواه وحديث مجالس العامة وأندية الخاصة . وجعلوا منه مادة للسخرية ، وموضوعاً للتسلية . وساعد على ذلك أن الكثرة من الناس كانت تكرهه وتسخط عليه . وقد آلمته هذه الحالة وأدخلت عليه الهم والغم . وتسبب من ذلك أن صمم على اكراه الفتاة عنوة على الاعتراف بسلطان الكنيسة المطلق ، وكانت طريقته التى دبرها لحملها على ذلك هى أن يلقى فى قلبها الرعب ، وذلك بادخالها حجرة التعذيب التى تقوم فيها آلات الاعدام ومعدات التحريق ، حتى إذا مارأتها انخلع قلبها من الخوف والهلع فتخور قواها ، وتسلم أمرها .

وفي يوم ٩ مايو ١٤٣١ نقلت جان إلى القلعة التى كانت فيها « حجرة التعذيب » وجاء اليها فيها « كوشون » ووكيل النائب العام وستة من الأعضاء وحضر معهم الجلاد ، ولما دخلت جان الحجرة

كان هؤلاء القوم فيها فلما أن وقع بصرها على آلات التعذيب وعلى الرغم من تأكدها أن للمحكمة طبقاً لتقاليد الزمن أن تستعمل معها تلك الوسائل لـكى ترغمها على الاعتراف ، فانها نظرت اليهـا نظرة احتقار مصحوبة بزم الشفتين إزدراء وقلة مبالاة « وجلست جان فى مكان أعد لها فى وسط الآلات وقام بجوارها الجلاد مشمراً عن ساعده استعداداً للتنفيذ . ثم ألقى عليهـا وكيل النائب العـام ملخص الاتهام وقال « كوشون » فى لهجة الواثق من الظفر ، أن قد آن الأوان لـكى نأخذ من جان الحق ، والحق كله غير منقوص ، ثم التفت اليها وقال « ها هى آلات التعذيب قائمة . وها هم المنفـذون حاضرون . فاما أن تقولى كل شئ ، وإما سلمتك للعذاب . تكلمى ! »

وإليك فى غير تقديم أو تأخير ، أو زيادة ، أو نقصان رد جان الخالد فى وسط غرفة التعذيب على قول « كوشون » المتقدم :

« لن أقول لك أكثر مما قلت ، ولن أغير شيئاً منـه ولو مزقت جسمى إرباً إرباً ، واذا جعلنى الألم أنطق بما يخالف عقيدتى ، فلن أتأخر لحظة عن العدول عنه حالما ينتهى التعذيب . »

وجاء رد جان صـدمة قوية « لـكوشون » الذى بنى الأعالى والقصور على حيلته الجديدة . وعندما سمعه أخذ يتهامس مع من حوله ، ولعله كان يشاورهم فى تطبيق العـذاب فعلا ، ولـكن يظهر أن اكثرية

الحاضرين لم توافقه على التنفيذ، لأنهم جاءوا من مبدأ الأمر على أن تكون الجلسة لمجرد الايهام والتخويف . ولعلهم أيضاً خافوا أن تموت منهم فى سياق التعذيب فتصبح « ضحية مقدسة » ولا يستفيدون شيئاً . . ولعلهم أيضاً رأوا ما فى اعتراف يؤخذ قسراً مع انكاره بمجرد انتهاء التعذيب من سخف وهراء لايستأهل تعريض حياتها بعد مرضها الأخير إلى خطر محقق. وسواء أكان هذا أم ذاك فانها لم تعذب فعلا وأمر « كوشون » باعادتها الى سجنها فى القلعة الأولى . .

وانتهت الجلسة التى علق عليها « كوشون » جل آماله فى قهر الفتاة والتغلب عليها ، بخيبة تضم إلى خيباته السابقة . وهو بين السخط والغضب واضطرابه والقلق

وفى هذه الأثناء وصل الى « روان » مندوبون من « الجامعة » فى باريس يحملون ردها على الاثنى عشر تهمة التى كانت قد أرسلت اليها. وكان الرد يتلخص فى التأييد الكلى لجميع التهم .ومشفوع به كتاب شكر للرئيس « كوشون . . . ! »

وفى يوم ١٩ يناير عقدت جلسة حضرها خمسون قاضيا فى قصر الأسقفية للمشاورة فى مصير الفتاة . فاقترح البعض « تسليمها للدولة » أى للحكومة ومعنى ذلك انها أصبحت تستحق العقوبة المقررة لمثل التهم التى أيدتها الجامعة وهى الحرق بالنار. واقترح البعض الآخر

ان تنصح للمرة الأخيرة في جلسة كاملة قبل ان تسلم للدولة . فوافقت الهيئة بالأغلبية على الاقتراح الأخير .

وفى يوم ٢٣ مايو عقدت الجلسة فى القلعة وسيقت اليها جان ووقف « بيير موريس Pierre Maurice » من كبار رجال الدين فى روان ينصح جان بالتسليم واستنكار ما قدمت من ذنوب وما اقترفت من آثام . وختم خطابه بتهديده اياها انها إذا أصرت كانت كمن يلقى بنفسه الى الجحيم جسما وروحا . وجاء رد جان على الخطيب كسائر ردودها السابقة يفيض كرامة وشهامة إذ قالت : « لو كنت ساعة الحكم أنظر الجلاد يستعد لأشعال النار بل لو طرحت فى النار ذاتها أتلظى فى سعيرها ، فلن أتحول عن كلمة واحدة مما قلت فى المحكمة . هذا كان رأيى وعلى رأيى سابقى صامدة . . . »

عند هذا الرد ساد القاعة سكون غريب استمر بضع دقائق وقطعه « كوشون » بقوله للخطيب . ألديك شىء آخر تضيفه ؟ فأجاب « كلا يا سيدى » ثم التفت الى جان وسألها نفس السؤال فأجابت قائلة « لا شىء » .

وأعلن كوشون انتهاء المحاكمه ، كما أعلن ان الحكم يصدر فى صباح اليوم التالى ، ثم أمر باعادة المتهمة الى سجنها .

اعلان الحكم

وجاء الغد الذى تقرر أن يعلن فيه الحكم .. وكانت الليلة السابقة لصدور الحكم من أطول ليالى الدهر وأثقلها وطأة على «كوشون» ، قضاها كلها في التفكير والتدبير، أما التفكير ففيما كان قادماً عليه من ظلم لنفس بريئة فى سبيل مطامع خسيسة ، والظلم قد يكون أشد إيلاماً للظالم منه للمظلوم . أما التدبير فكان فى ابتكار الوسيلة التى يتقى بها مظنة الناس به ويحفظ بها فى الوقت ذاته مظاهر العدالة ، لكى يكون للحكم الذى يصدره أثره فى إقناع الناس بعدله وإنصافه ! ! وبات «كوشون» ليلته مهموماً إلى أن هداه تفكيره إلى طريقة طريفة في خبثها قد اعتقد أنها تنيله غرضه من فريسته وتحفظ له كرامته بين الناس . ذلك أنه اتفق هو و «كردينال ونشستر» رأس الكهنوت الانجليزى المعروف ، على أن يفاجئا الفتاة قبيل إعلان الحكم ، أى عندما يستولى عليها الذهول لرؤية معدات الاعدام على أتم أهبة ، والجلاد ماثل مشمر عن ساعديه ، ويطالباها بان تعلن فى الحال إذعانها للكنيسة .. ! وفى تلك الساعة الرهيبة والجمع الحاشد ينتظر متلهفاً صدور الحكم لابد أن تخضع جان ! لأنها تكون وقتئذ فضلا عن ذهولها خائرة القوى ، منحلة

الأعصاب ، يائسة من الحياة . فاذا ما أذعنت أصبح الحكم عليها مشروعاً بقبولها تصرف الكنيسة فى شأنها . وفى هذا القبول أيضاً أماناً من المخاوف التى طالما ساورت « كوشون » من أن يعده الشعب منفذاً ظالماً وصنيعة فى أيدى الأجنبى . فليس غير إذعانها أمام الشعب الحافل منقذاً لشرفه من الريبة التى كان يعتقد أنها تخامر الناس نحو تصرفاته مع الفتاة .

وكانت القوانين المعمول بها تقضى بأن المتهم فى تهمة دينية لايحكم باعدامه اذا هو أذعن ولو فى اللحظة الأخيرة . فكان المفروض ألا يحكم على جان بالاعدام اذا هى «اذعنت» كما كان يتوقع «كوشون» . ولكن لم يكن عبثا اطلاع «كاردينال» انجلترا على السر .. ! فقد اتفق هو و «كوشون» على الحرص على عدم إفلات الفتاة من الاعدام ..

ودبر الاثنان طريقة إبليسية أشد شناعة من تدبيرهم الأول يوم مفاجأة الفتاة بطلب الاذعان والخضوع وهى ترى الموت رأى العيان ماثلا لها فى أدوات التعذيب والتنكيل .. دبر القسيسان إذا هى أذعنت حكموا عليها بالسجن المؤبد كنص القانون . ولما كان السجن المؤبد وحده لايشفى غليل الانجليز ! دبرا لها أن يحملاها على أن تطرح زيها النسوى . وذلك بأن تسرق منها ملابسها النسوية التى تكون قد قبلت العودة اليها عند ما تزج فى السجن ، فلا تجد مناصا

من الرجوع إلى ارتداء ملابس الرجال . وهذه العودة تعد فى عرف الكنيسة «ردة» والردة عقابها كعقاب الجريمة ذاتها أى الاعدام حرقا.

أرأيت كيف قضى «كوشون» ليلته ؟ أفهمت ما اتفق عليه مع «كاردينال ونشستر» ؟ ولقد اتفق الاثنان على كتمان التدبير عن جميع رجال الدولة . لأن ما اتفقا عليه مؤامرة أو قل «جريمة» لا يمكن الافضاء بها لمخلوق. ولم يعرف المؤرخون هذا السر إلا بعد غربلة الحوادث غربلة دقيقة ، ودراسة « قضية رد الاعتبار » التى سيجيئك نبؤها بعد قليل، وتفهم الظروف والملابسات التى وقعت يوم الحكم و بعده.

وكيف قضت جان ليلة الحكم ؟ لم يتركها « كوشون » تنام ليلتها هادئة أو على مضض. لم يشأ أن يتركها تفكر لنفسها كما فكر هو لنفسه. بل شاء أن يسلط عليها خبثه بل قل دسه ولؤمه فى ليلتها الأخيرة تمهيدا لتدبيره وتحضيرا لايقاعها فى شركه . .

أرسل اليها « نيقولا » . وما أدراك ما « نيقولا » ؟ هو « صانع الأحذية» اللوريني ! الموالى للملك الكاره للغاصبين! ذاك الذى زارها فى السجن وخدعها حتى استدرجها للكلام فى ذكريات أيامها ووقائع حياتها .. ! أرسله هذه المرة فى زيه القسى ؟ وهى أحوج ما تكون إلى قسيس يواسيها ويشد أزرها فى ليلة ليس لها بعد . ودخل عليها « نيقولا » يعلن شدة كراهيته الانجليز و يلعن أيامهم وما جلبوه

وراءهم من خراب ودمار . . . ويصعد الحسرات على النسل الذى أهلكوه وعلى الحرث الذى أبادوه . . . وهكذا سار يتنقل من لعنة إلى لعنة ضارباً على النغمة التى تحبها جان . ثم تدرج من هذا الى وعظها فى نغمة مؤثرة فى شئون نفسها وخلاصها ووجوب احتفاظها بحياتها من أجل خير الوطن ! وخير مليكها ! ثم استطرد معها الى الحديث فى شأن إذعانها للكنيسة وتسليم أمرها لها ، مبينا لها ألا حرج عليها فى الاذعان ، وأنه لا يكلفها شيئا ، بينما هو يحفظ لها حياتها . وانطلق يصور لها الاذعان فى صور خلابة ويهون عليها أمره فى عبارات منمقة . واستمر الخبيث يضرب على هذه النغمة ساعات طويلة . لأنه كان يرمى إلى غرضين سافلين : أولهما : حملها على السهر حتى لا تهنأ بسنة من النوم ولا تأخذ قسطا من الراحة لكى تصبح وهى مضعضعة الحواس منهوكة القوى أقرب ما تكون إلى الاذعان للمفاجأة التى أعدها لها « كوشون » وثانيهما : تهيئة نفسها بالوعظ والارشاد لقبول ما يعرض عليها فى الغد .

ولو تذكر القارىء أن جان كانت قد براها المرض وحطمها عذاب السجن لأدرك تماماً مقدار ما أثر فيها حوار « نيقولا » معها في تلك الليلة السوداء !

وباتت « روان » ليلة الحكم على أحر من الجمر تنتظر ما يتمخض عنه الصباح من حوادث جسام . وكان قد تقرر أن يكون إعلان الحكم في

فناء كنيسة « سنت أون St ouen » ولذلك كانت الحركة حولها قائمة على ساق وقدم ، فالعمال مكبون على إعداد مكان الجلسة ومنصة الاعدام ، والأهلون يتزاحمون و يسابق بعضهم البعض بالمناكب فى لهفة ، الى المكان الذى يدنيه من المنصة ويجعله اقرب الى مشاهدة ما سيحدث

وفى الصباح كنت تجد في الفناء ثلاث منصات : الأولى والثانية متقاربتان وتفصلهما فرجة غير متسعة . أما الثالثة فقد أقيمت على بعد ٢٠ خطوة من المنصتين السابقتين . وأعدت المنصة الأولى لجلوس النظارة من رجال الدين ورجال القانون . أما الثانية فقد فرشت بأفخر الأثاث والرياش . ونصبت فوقها مظلة تحجب عن المستظلين أطوار الجو من قيظ أو مطر . وتعالى من بين المقاعد المصفوفة مقعدان كانا أفخر المقاعد زينة وأثاثاً ، كما كانا أرفعها مقاماً ، وخصصت تلك المنصة لجلوس هيئة المحكمة وخصص الكرسيان الرفيعان لجلوس « كوشون » و « كاردينال أف ونشستر » وكان الكاردينال كما تعلم من أمراء البيت المالك فى انجلترا .

اما المنصة البعيدة فكانت هرمية الشكل بنيت من الحجر واقيمت فى اعلاها سارية من الخشب . وتلك كانت منصة الاعدام . وقد جهزت بكل ما يلزم من وقود ومواد للحريق . إذ جمع حولها

أكوام الخشب ووقف بجوار قاعدتها ثلاثة من ذوى القمصان الحمراء. هم الجلاد ومساعدوه. وكانت أمامهم أدوات إشعال النار وهى عبارة عن جذوة مشتعلة وحولها الفحم. وعلى مسافة قدمين منها أعد الجلاد مدخراً من الوقود والحطب.

وكانت الجنود الانجليزية تحرس المنصات الثلاث وتحيط بها فى شكل نصف دائرة. ومن خلف الجند تراصت الجماهير فى تزاحم شديد كما ملأت الناس الطرقات، وسدت المنافذ وتعلقت بالنوافذ وانتشرت على السطوح المطلة على المكان وبالطرقات المؤدية اليه.

وفى الميعاد المحدد غصت المنصتان بمن خصصت لهم ولم تبق إلا منصة الاعدام فى انتظار فريستها.

وأخيراً سمعت جرجرة السلاسل. فأنصت القوم جميعهم وعلقوا أنفاسهم وأمسكوا قلوبهم بأيديهم.. لأنهم أحسوا بقدوم جان... وبعد قليل دخلت المسكينة وكانت تسير فى خطى اشبه بخطوات الطفل عند أول محاولة المشى. فقد أنساها طول السجن وثقل الأغلال مشيها المعتاد.. وقد هد من قوتها، وبرى من جسمها، المرض والجهد المتواصل فى أيام المحاكمة السالفة. فهى من الاعياء والسهر أقرب الى الموتى منها إلى الأحياء. ومن الغريب وفوق الغريب أن «نيقولا» كان ملازماً لها حتى دخولها، يهمس فى أذنها ويلقنها ما كان يريدها

عليه . كأنه لم يكفه حوار الليل كله ونقاشه . أو كأنه خشى أن يظن به سادته تقصيراً فى أداء ما كلف به .

صعدت جان على المنصة المعدة لها وكانت ذاهلة عما حولها . وقعدت مطبقة العينين ، ويداها مستقرتان فى حجرها ، وبدا عليها كأنها لاتدرى شيئاً عما كان يجرى حولها . وكأنها قعدت تستريح من مجهود مضنٍ أو تفكير فى أمر ذى بال .. وبينما هى على هذه الحال من الغموض والابهام كانت عيون الجميع اليها شاخصة محدقة .

وافتتح «كوشون» الجلسة . وكان قد تقرر أن تبدأ بعظة دينية يلقيها أحد الوعاظ على الفتاة ! واختير لهذه المهمة واعظ مشهور اسمه «وليم إرارد W· Erard » ولما قام لكى يلقى عظته رفعت جان رأسها متثاقلة وألقت عليه نظرة خاطفة ثم عادت على عجل إلى سيرتها الأولى

وأخذ « إرارد » يلقى عظته. وكان قد بناها على الاثنتى عشرة تهمة المعروفة . وصار يهدر كالجمل فى حملاته على الفتاة المسكينة وهى مطرقة لا تأبه له ولا لما يقول ، إلى أن وصل إلى وصف ملك فرنسا بالالحاد . وهنا انتفضت جان واقفة ثائرة متحمسة ترد على الواعظ تهمته التى وجهها « لمليكها المحبوب» ، وتعلن فى قوة ووضوح أن ملك فرنسا من أصدق الناس إيماناً وأرسخهم عقيدة !!! وكان لهبة جان أثرها فى الحال إذ لم تكد تنتهى من ردها حتى ضج المكان بتصفيق

النظارة المتفرجين لا إعجاباً منهم بصدق إيمان الملك بل إعجاباً بموقف الفتاة التى تألبت جميع القوى على النيل منها . وحنق «إرارد» واغتاظ من تصفيق الجمهور وتهليله فضرب الأرض بقدميه وصاح فى وجه الحارس طالباً منه أن يلزمها الصمت .

وفى غير قليل من الوقت تغلب الواعظ على ما استولى عليه من ارتباك وحيرة ، وشرع يستأنف وعظه ويدلى ببيانه ، إلى أن ظن أن الفرصة قد سنحت لمفاجأة الفتاة بما دبر لها من قبل وهو مطالبتها بالخضوع والتسليم فطالبها بذلك فى لهجة الواثق من نزولها على رغبته وإجابته إلى طلبته .

ولكن جان التى ظنوها قد « نضجت » للمفاجأة . خيبت ظن الجميع . لأنها لم تكد تسمع الطلب حتى بادرت قائلة : « قد أجبت المحكمة على مثل هذا الطلب من قبل . . وقد طلبت منها أن ترفع أمرى الى البابا فله وحده فى الأرض كما لله فى السماء أرفع ظلامتى وأشكو بثى . »

وكانت مفاجأة جان أقوى تأثيرا وأشد ابتعاثا للدهشة ومدعاة للارتباك بين قضاتها والنظارة من الجمهور ، من مفاجأة المحكمة لها على لسان الواعظ بطلب خضوعها واذعانها تلك المفاجأة التى أعدوا لها العدة ومكروا لها ما مكروا . بالليل وبالنهار

والذى هزّ المحكمة وغير المحكمة فى رد جان انها طلبت رفع

الأمر للبابا . لأن القانون كان يقضى فى مثل تلك الأحوال برفع الأمر اليه فى الحال متى طلبته المتهمة وارتضته ، وكما انه يقضى بتعطيل اختصاص القضاة بالحكم بمجرد صدور هذا الطلب من المتهمة . ولهذا السبب بادر « إيرارد » بتغيير الموضوع . وانطلق يعظ و يلح فى الوعظ . حتى يصرف الناس عن الالتفات الى مافى طلب الفتاة من قوة شرعية واجبة الاحترام .

وبعد جولات الواعظ معها هنا وهناك ، عاد يطالبها بان تعلن استنكارها لكل قول قالته أو فعل فعلته واعتبره قضاتها مخالفا للدين ! ولكنها فاجأته مرة أخرى بجوابها المربك : « اني أفوض أمرى لله وللبابا » وحقاً كان الجواب مربكا لأن البابا الذى تفوض أمرها له هو رئيس الكنيسة الأعلى التى يتهمونها بمخالفة أصولها . فان كان ما يشغل بالهم و يقلقهم هو مخالفتها للكنيسة ، فها هى ترضى حكم رب الكنيسة . وما كان لأحدهم كبيرا كان أو صغيرا أن يدعى ان شخصه فوق شخص البابا ، وأن حكمه أحق بالاتباع من حكمه . لهذا كان التجاؤها الى البابا رئيس الجميع مربكا لهم ، ومظهرا لفساد نيتهم ، وكاشفا عن خبيئة نفوسهم . لأنه أظهر حقيقة أغراضهم ودخيلة مرادهم ، الا وهو الحكم عليها لمجرد خدمة غايات الانجليز منها ، وقضاء لمصالحهم الشخصية من طريق خدمة تلك الغايات ! !

ولكن هيئة المحكمة لم تكن لتستطيع ترك طلب جان الخاص

برفع الأمر للبابا مع تكراره من غير جواب . ولذلك باغتوها هذه المرة بقولهم ـ وكان قولهم زورا وبهتانا ـ ان البابا بعيد ، ولا داعى لرفع الأمر اليه ، لأنهم وهم خلفاؤه يمثلون كنيسته . و ينوبون عنه فى تنفيذ سلطته . وتلك كانت سفسطة منهم فارغة .

وفى هذا الوقت بدأ الجمهور ـ وبالطبع كانت ميوله انجليزية ، وضد الفتاة ـ يتململ من طول انتظاره فهم جاءوا ليسمعوا الحكم و يشاهدوا تنفيذه على طريقة ذلك الزمن . وكان القيظ فى ذلك اليوم محرقا لافحا ، والزحام آخذا بخناقهم . وأحست المحكمة بروح التذمر تدب بين الجماهير من المطاولة والمناقشة فى غير جدوى . فأوعزت إلى « إرارد » أن يحسم أمره مع الفتاة . فما كان منه ألا ان صاح بها : « إما الردة حالا واما حرقك حالا . . . ! ! ؟ »

فوقعت كلمات « إرارد » على جان وقوع الصاعقة . ونفذت كلمة الحرق الى أعماقها وتفتحت عيناها على ما حولها من معدات الحريق وبجوارها عين الجلاد تتقد شرا . فصارت تلهث و تلفظ ألفاظا متقطعة لا يربطها معنى . وتتلفت يمنة ويسرة محدقة فى كل شىء و كأن عينيها قد تضاعف اتساعهما مرارا . وأخذت المسكينة تنتفض كالعصفور بلله القطر . وتقدم الى جان رجال الدين أفرادا وجماعات يطلبون منها أن توقع الورقه التى كان « إرارد » يطلب توقيعها منها وكان إرارد أوقل

« كوشون » قد أعد ورقة من قبل فيها اعلان للردة لكى توقعه الفتاة .
وأخذت أفراد من الجماهير تصيح فى وجهها : « وقعى ! وقعى ! انجى بنفسك ! لاتلق بها الى التهلكة ! » وتصاعدت الصيحات من كل جانب تدعوها للتوقيع ، حتى القضاة أنفسهم توسلوا اليها ان تشفق على نفسها بان تعلن اذعانها ، حتى لا تضطرهم اضطرارا الى تسليمها للجلاد !!!
وفى هذه الاثناء قام الرئيس ، واخذ يتلو حكم الاعدام وبدأ يتلوه متباطئا متمهلا كأنه يعطيها فرصة . او كأنه يعطى صيحات الجميع وقتا تفعل فعلها فى تلك النفسية الجبارة التى صمدت فى نضالها ، وثبتت أمام النوازل ، التى تدك الراسيات من الجبال دكا . وهنا سمعت جان صوتا يتصاعد قائلا « لماذا تؤثرين الموت على الحياة . . . اين أصواتك الآن » ، وها هو الموت يمد يده اليك . الا تعتقدين انها خدعتك . . . ! ؟ »

وفى هده اللحظة ركعت جان او قل خرت من الأعياء ساجدة ثم قالت فى خفوت ورعشة « أعلن خضوعى » ! ! !

أعلن خضوعى ! بهاتين الكلمتين نطقت جان . وهاتان هما الكلمتان اللتان كانت تطلبهما الكنيسة ، واللتان من أجلهما تكبدت الفتاة ماتكبدت من مشقات وأهوال تشيب من هولها الولدان . وفى هاتين الكلمتين طلبة السياسة الانجليزية وضالة الساسه من الانجليز

أخذوهما من المسكينة بالخب والخديعة لما أعيتهم معها طرق الصراحة والرجولة . . . وأخذوهما منها وهى بين الحياة والموت مريضة منهوكة مخدوعة .

ومما يدل على مقدار ما هزة القوم من الظفر والغبطة بما نطقت به الفتاة ، أنهم سارعوا الى تلقينها الصيغة التى عليها ان تقولها . وشرع « ماسيو » الحاجب فى الحال يردد ألفاظ الصيغة وهى ترددها خلفه في غير وعى أو فهم لما تردد وسرعان ما تقدم لها أحد كاتمى السر من الانجليز وأمسك بيدها وأجراها بالقلم على الورقة وكتب بها اسمها توقيعا كأنما كانوا يحسون بما فى عملهم من الزور والبهتان ، او قل البطش والطغيان . فعمدوا الى حملها على التوقيع لكى يخدعوا أنفسهم بالاطمئنان الى صحة الاجراءات !

اذن وقعت جان الصيغة وأعلنت عدولها عن الكفر الى الأيمان ! واعترفت بما ارتكبت من ذنوب وآثام ؟! واستغفرت عما قامت به من عمل الشيطان ! ؟ واذن حقت على كل ما عملته فى سبيل وطنها كلمة الكنيسة أو قل كلمة الغاصب لأن الكنيسة والغاصب فى أمرها سيان ؟ !

ولاحظ انجليزى ما جرى ، ولاحظ حالة جان وهى تردد فى غير وعى ، وتوقع فى غير احساس بما تفعل ، وتبتسم ذاهلة فى كل الانحاء

فقال موجها قوله لرئيس المحكمة « ان هذا العدول غير صحيح . انه مهزلة وعبث ... ! »

فاسكته الرئيس فى الحال « أنك مخطىء ، وانى أعرف واجبى نحو هذه المرأة .. ! » وكان خضوع جان يقضى الا يحكم عليها بالاعدام ، كما أسلفنا ورأى « كوشون » حفظا للمظاهر أن يعفيها من الحكم بالاعدام ، وان كان متفقا مع الكاردينال على مايوصلها اليه لامحالة فيما بعد وان يكتفى بالحكم عليها بالسجن المؤبد . !

هنا ثارت ثائرة « ورك » وقام فى وجه « كوشون » صاخبا صائحا .. « مولاى الأسقف ! » انك بهذا الحكم تسىء خدمة جلالة الملك ، وتمكن الفتاة من الافلات من الموت ! »

وقد دل « ورك » بثورته هذه على أنه لم يكن عالما بالسر المتفق عليه بين « كوشون » والكاردينال أف ونشستر » ودل من ناحية أخرى على غلظته العسكرية بعدم تقديره للقيمة المعنوية لعدول جان ، من حيث أثرها وتأثيرها في السياسة التى كانت تجرى عليها انجلترا فى فرنسا فى ذلك الزمن . ولعله فهم أن الاعتراف فى ذاته كان للوصول إلى الاجهاز عليها . ولذلك فهم انه كان يجب ان تحرق بعد اعترافها بدون مراعاة لقانون أو تقاليد مما جرى عليه العرف الكنسى .

ولم تفت تلك الملاحظة « أناتول فرانس Anatole France » فى كتابه عن جان دارك ، فقد قال تعليقا على ما وجهه ورك من اللوم الى كوشون عندما نطق بالحكم عليها بالسجن المؤبد : « ان هؤلاء الانجليز قد تسرعوا فى الحكم على مافعله « كوشون » ، لأنهم لم يقدروا حق التقدير ما بذله فى حمل جان على الاعتراف بأن حياتها كانت كلها خدعة وأكذوبة ، وكان ذلك الاعتراف أكبر خدمة يمكن ان تؤدى لانجلترا فى ذلك الزمن .. ! »

وقد ناقش كثير من المؤرخين موضوع خضوع جان للكنيسة فى آخر لحظة . فقرر بعضهم بأن الوثيقة التى حملت على توقيعها لم تكن هى الوثيقة التى قرأها « ماسيو » وردتها جان معه . لأن الذى وجد موقعا عليه منها كان اعترافا مطولا ، شاملا لعدولها عن كل قول قالته وعمل قامت به وهو اقرار لكل تهمة وجهت اليها فى تفصيل دقيق وبيان واف . مع ان البيان الذى قرأه « ماسيو » كان فى جملته لا يتجاوز بضع كلمات فى أسطر قلائل لم يستغرق القاؤها سوى دقائق معدودات . !

ويقول من أحسن بهؤلاء الناس ظنا أنهم إنما قرؤا عليها في أول الأمر رءوس موضوعات الاعتراف فى سرعة ولهفة انقاذا للموقف وحتى لا تعطى فرصة تعدل فيها عن الاعتراف

ولما جاء دور التوقيع ، قدموا لها الوثيقة الأصلية الكاملة والتى

يهم المحكمة والكنيسه ان تعترف بها جان .

والواقع سواء كانت الصيغة الأصلية أو كانت صيغة أخرى هى التى قرئت على جان — أنها رددت ووقعت وهى لاتدرى علام وقعت ولا ماذا رددت . . . والوثيقة التى أجريت عليها يد جان بالتوقيع مكتوبة باللاتينية و تشمل الفاظاً يحار فى فهمها الفقهاء الأعلام فما بالك بفتاة أمية لم تكن تعرف كما قالت مرة « الألف من الباء . » فمن هذه الناحية على الأقل يمكن الجزم البات بأنها لم تكن تفهم ماوقعت عليه . وان أقصى ما يمكن به تفسير تصميم المحكمة على توقيع جان للوثيقة هو أنها أرادت المحافظة على صحة الاجراءات ولو من الناحية الشكلية وفى هذه الحالة لم يكن يهم القوم أن تكون جان واعية لما يجرى أو غير واعية .

بعد صدور الحكم

ووقع الحكم بالسجن المؤبد على جان كانقضاض الصاعقة لأنها لم تكن تتوقع بعد أن أذعنت لما أرادوه منها أن يكون نصيبها السجن . فقد وعدها « نيقولا » بأنها اذا ما أذعنت انتقلت من حالة السخط الى حالة الرضا ، وأن كل شيء يكون وفق مرامها . وكانت آخر كلمات « ارارد » لها « انك لو فعلت ما نطلبه منك لخرجت فى الحال من السجن الى حيث تكونين حرة طليقة » .

مسكينة تلك الفتاة المجاهدة . فقد أجمع الكل على خدعها وتضليلها وهى هى الفتاة البريئة لم ترتكب ذنبا ولم تأت شيئاً أدا .

تلقت الحكم وهى باهتة مغشى عليها . ولما أفاقت قليلا من غشيتها التفتت الى من حولها والحزن يمزق نياط قلبها . وتساءلت قائلة « وهل انا عائدة إلى السجن الذى كنت فيه . ! ! وهل استمر تحت رحمة هؤلاء الانجليز ! ! » قالت هذا وهى تحاول النهوض وتستجمع قواها ، لأن « كوشون » وكأنه لم يسمع تساؤلها ، أمر الحراس فى سخرية قائلا : « خذوها إلى السجن الذى جاءت منه ! » وعندما أتم « كوشون » أمره مادت الأرض تحت قدميها وتمايلت من أثر الصدمة ذات الشمال وذات اليمين . ونسى « كوشون » ما أنساه إلا الطمع وحب النفس

أنه وعدها مرة وهو يزورها فى السجن إن هى أذعنت لما يريده منهـا فانه ناقلها فى الحال إلى سجن دينى حيث تحرسها النساء !

وسارت جان متهدمة فى طريقهـا إلى السجن . أما الجمهور على اختلاف طبقاته فقد تولته الدهشة لما رأى المسألة ينتهى بها المطاف الى حيث كانت ! وكانت دهشته راجعـة إلى أنه لم يكن يتوقع النتيجة التى انتهت المسأله اليها . بل كان الكل يتوقعون أن يمتعوا أنظارهم بحرق « الساحرة » التى طبق صيتها الخافقين . كان الجمهور يجهل بالطبع أن الرواية لم تتم فصولها ! وأن الفصل الذى كانوا يتحرقون شوقا لرؤيته لم يحن موعده بعد . وكان علمه عند « كوشون » و « كاردينال أف ونشستر » فقط ، ولم يكن يعلم السر فى « روان » أحد غيرهما . . ولذلك اشتد سخط الجمهور وامتدت يد البعض من رجاله الى الأحجار والطوب وقذفوا به هيئة المحكمة . وظنوا أن « للخيانة » دخلا كبيراً فى كل ماحدث . وجاهر أحد القسس من الانجليز فى وجه « كوشون » بقوله : « اقسم بالله انك خائن ! ! » فأكد له الأسقف وهو مطمئن انه كاذب فى دعواه . أما « ورك » فلم يهدأ له بال حتى همس فى اذنه بأن الفريسة لم تفلت من الأيدى بعد

وما كادت جان تصل الى السجن حتى لحق بها « كوشون » ومعه فريق من رجاله وهناك نبهها فى قوة أن عليها ان تتذكر بأنه من بين ما

« وقعت » عليه شرط يحرم العوده بأى حال من الأحوال الى التزى بزى الرجال !!؟ وانها ان عادت كانت عودتها كفرا بعد ايمان ، وعقوبته الحرق بالنيران. وكانت تسمع ولا تفقه معنى لما تسمع، لأنها من هول ما نزل بها كانت كمن تناول مخدرا يجعله يحس احساسا شديدا بالحاجة الى النوم . فقد كانت تنظر بعينها ولا تدرى شيئاً وتسمع بأذنيها ولا تفقه قولا . . .

وبينما كانت جان تتردى فى نكبتها ، خرج « كوشون » باسما بما قيض له من نصر ، فهاهى ذى جان ترتدى ثوبا نسوياً . بعد ان اعلنت خضوعها التام للكنيسة واستنكارها لكل حقائق حياتها الماضية .

وخرج كوشون ورفاقه وترك جان فى زيها النسوى وجها لوجه مع حراسها الغلاظ . . . ومن تلك اللحظة أخذ هؤلاء الوحوش يزدادون بها عنفاً ونكالا . وكأن كوشون قد أوصاهم بأن لا يدخروا وسعا في الاساءة اليها بالقول والعمل

ولما كان لكل شئ نهاية . أخذت جان تعود شيئا فشيئا الى حالتها الطبيعية . وكانت كلما هدأت أخذت تدرك خطورة ما جرى منها وما جرى لها . وبدأت تقدر أن حقيقة ما جرى تنحصر فى إنكارها «لأصواتها» ولقديسيها وفى جحودها لأفعالها، ولمليكها . وفى

حراس اشباه بالانسانية لا فى مظاهر تكوينهم الجسمانى

اعترافها بان حياتها كلها كانت خدعة ، وكانت أكذوبة . وأنها دفعت كل هذا ثمنا للحياة فى سجن أشبه ما يكون بالقبر ، وبين حراس لا يتصلون بالانسانية إلا فى مشابههم ومظاهر تكوينهم الجسمانى . وهكذا أخذت حقائق الحالة تنكشف لها . وكلما تكشفت لها ثارت نفسها ضد نفسها وتبيغ الدم فى عروقها .. وزاد فى انكشاف الأمر لها أنها فى صباح يوم الاحد الموافق ٢٧ مايولم تجدثوبها النسوى ! ؟ وتفقدته فلم تهتد اليه ،ووجدت ثيابها المسترجلة ملقاة على مقربة منها ! ؟ فالتفتت اليها وقالت للحراس أنها ممنوعة من العودة لمثل تلك الملابس . فلم يعرها الحراس التفاتا كأن الأمر لا يعنيهم . وكان طبيعيا أن تخضع للأمر الواقع ، ولا بد مما ليس فيه بد . فقامت وارتدت ثياب الرجال . وسرعان ما علم كوشون بالأمر . وسرعان ما هرول الى السجن مع رفاقه ، فتظاهروا بالدهشة من عودة الفتاة الى زى الرجال بعد ان حذروها عاقبة الأمر وما فيه من خطر على حياتها .. :

وشرع « كوشون » يستجوب الفتاة عن الذى حملها على التغيير .. ولحظ احد القضاة ما فى الأمر من دسيسة فتساءل قائلا : « إن فى عودة جان إلى زى الرجال لسراً خفيا يثير الظنون ، إذ كيف يمكن ان يحدث منها ما حدث من غير ان يعلم به الحراس ؟ » وما كاد القاضى يفرغ من تساؤله حتى هاج « كوشون » وجعل يصيح فى وجه القاضى المتسائل « صه ! ولا تفتح فمك ! ! » وثارت ثائرة الحراس وقالوا له متحمسين

« إخرس يا خائن ! » وهاجموه بحرابهم ولم ينج منهم إلا بأعجوبة ولما هدأت الزوبعة طفق أحدهم يسألها

— لماذا عدت إلى هذا الزى ؟

— عدت لرغبتى فى ذلك .

ودلت جان بهذا الجواب على ماطرأ على حالتها النفسية من التغيير واستمر السائل فى استجوابها قائلا .

— ولكنك وعدت واقسمت الا تعودى إليه مرة أخرى ؟

فأجابت فى هدوء « لم أقصد مطلقا و لم أعن أبداً الا أعود إليه . وان كنت لم أرع الوعد ، فان أحدا منكم لم يرعه معى ، وقد أعطيت لى وعود كثيرة منها مثلا أن ترفع عنى هذه السلاسل ولكنها لاتزال ترهقنى حتى اليوم ! »

— ولكنك قد اعلنت عدولك وأعطيت وعدا بعدم العودة لهذا الزى ؟

— عُدت لانى وجدت نفسى بين الرجال، ففضلت أن أكون مثلهم مادمت بينهم ، وطالما بقيت معهم وفى قيودى هذه ، فالموت خير لى من العودة الى زى النساء . ولكن اذا سمحتم لى بتأدية فرض الصلاة ، واذا نقلتمونى الى سجن مناسب حيث تحرسنى النساء ، فأنى أخضع وأفعل ماتحبون . » ألا تلحظ عودة الشجاعة بل ثورة الشهامة التى أعلنتها جان

لم تشأ أن تشكو عدم اهتدائها الى ثيابها بل فضلت أن تهاجم أعدائها في الميدان الذى أختار و ه ضار به صفحاً عن الدسيسة احتقاراً لمدبريها

— ألم تخاطبك « أصواتك » منذ يوم الخميس ؟

— نعم خاطبتنى .

— و ماذا قالت لك ؟

— « أبدت أسفها لنكوصى ، و فهمت منها بأن ما حــدث منى هو بمثابة تعريض نفسى للعنة فى مقابل انقاذ حيـاتي ... وقد علمت منها بأنى كنت جد مخطئة فى عدم ثباتي على أن اعمالى كلهـا كانت بارادة الله . » واستمرت جان تضرب على هذه النغمه إلى أن قالت « لكوشون » وهى تحاوره :

— « لقد وقّعت لأنى كنت خائفة من النار ! ولكننى لم أقل ولم أقصد ان أقول بانى أنكر أصواتى أو رؤياى ، ولم يدر بخلدى قط أنى بتوقيعى انقض كل ما قلته عن القديسين ، لأنى لو نقضته وانكرته أكون كمن نقضت الحق وأنكرته »

بهذه الصراحة الحاسمة عادت جان الى طبيعتها الاولى، وان كانت صراحتها هذه المرة قاضية على حياتها وقدر ,, منشون ,, الخطر الذى سينجم عن صراحتها هذه المره ، ولذلك كتب على هامش الاجابة تعليقه الخالد Responsis Mortiferi أى , الرد القاتل »

وقد تحقق الخطر فى الحال لان « كوشون » بمجرد أن سمع جوابها السابق أعلن إنتهاء الاستجواب . لأنه كان قد حصل على بغيته منها وزيادة ! وتحقق له كل ما توقعه فى تدبيره من بادئ الأمر ! وقد روى بعض المؤرخين ان « كوشون » خرج بعد هذا الاستجواب من السجن هاشا باسم الثغر ، وذهب الى الانجليز بعلنهم فى زهو و فخار بقوله « لقد قضى الأمر ، وتم كل شئ وفق ما تريدون . فانشرحوا ...!؟ »

وفى الحال دعا ,, كوشون ،، هيئة المحكمة للمداولة في الاستجواب الجديد وعقدت الجلسة فى مقر الاسقفية وكان ذلك فى يوم الثلاثاء ٢٩ مايو وبعد المناقشة قرر الرئيس أن ترفع دعوى المجرم العائد الى الاجرام على جان تطبيقاً لمواد القانون الكنسى وفى الحال أعلنت جان بالتهمة الجديدة ودعيت للحضور في يوم الاربعاء الساعة ٨ صباحا الموافق ٣٠ مايو سنة ١٤٣١ فى ساحة السوق القديم (الساحة المعدة للاعدام)

المأساة

وفى الصباح الباكر من يوم الاربعاء ٣٠ مايو سنة ١٤٣١ دخل الحاجب على جان فى سجنها وسلمها إعلان الحضور للجلسة التى تقرر أن تعقد فى «ميدان السوق القديمة» فى الساعة الثامنة صباحا . وجاء بعده مرتين لادفينو وازامبير دى لابيير ، وكانا من رجال الكنيسة الذين يعطفون عليها . ولما دخلا عليها وجداها فى هم وجزع ويأس وقنوط ، لانها أدركت من قول الحاجب خطورة ماستلقاه بعد قليل فى ميدان السوق القديم ... وعندما وقع بصرها عليهما قالت لهما في لهفة وجزع : « قد كنت أوثر ان تقطع رأسى سبع مرات ، على أن أحرق حية !!! وا أسفاه على جسدى يقضى عليه أن تأكله النار وهو لم يلوثه دنس قط ! أفوض أمرى الى الله خير القضاة جميعاً يمحو بفضله ورحمته ما يقع على من ظلم . . . » وجاء بعدهما القضاة الآخرون ولما وصل « كوشون» صاحت جان في وجهه : « أيها الأسقف إنى أموت بسببك ! » ثم أخذت تصلى لله وتستغيث بأوليائه لكى يمدوها بالتجلد على اقتحام الهول الذى هى مقبلة عليه ... وهنا بكى جميع من حولها حتى « كوشون » على ما رواه البعض ، والتفتت جان الى أحد القضاة « بيير موريس » وقالت له « أين تظن يكون مثواى الليلة القادمة ؟ » فأجابها

على الفور « أليس عندك ثقة فى الله ؟ » فقالت « بلى والحمد لله . أنى سأكون الليلة فى الجنة ... ! »

ثم سبقت جان إلى « ساحة الاعدام » يحرسها مائة وعشرون جنديا ولما وصلت الى المكان المعد لعقد الجلسة ولتنفيذ الحكم عليها فى الحال، كان الجمع الذى احتشد لرؤية مايجرى لا يقل عن ١٠ آلاف، بين رجل وامرأة جاؤا من كل فج يشهدون مصرع الفتاة . وكان قد أقيم فى الساحة ثلاث منصات، واحدة للقضاة وكبار رجال الكنيسة والثانية أعدت لجان ولواعظ كانت تقضى الأصول بقيامه بوعظها فى اللحظة الأخيرة ، والثالثه جلس عليها رجال الدولة .

وعلى سند مرتفع من الجبس فى وسط الميدان نصبت المحرقة وعلق عليها لوحة كتب فيها خلاصة التهم واللعنات التى صبتها المحكمة على رأس الفتاة المسكينة . وإليك مثال مما جاء فيها ... « جان المدعوة بالعذراء، الكاذبة . الكافرة . الملحدة . حليفة الشيطان الخ ... »

وحشدت السلطة ما لا يقل عن ثمانمائة جندى حول الساحة . وبدأت الاجراءات بعد افتتاح الجلسة بعظة الواعظ . وكانت لاتخرج فى مبناها ومعناها عما ألفه القراء من ألفاظ المطاعن والمثالب التى كيلت للفتاة ... وفى أثناء التلاوة كانت جان غارقة فى أحلامها . سابحة فى خيالاتها ، ذاهلة عما يجرى حولها .

وبعد انتهاء الواعظ من عظته التفتت جان الى الجماهير ثم قالت :

« ... مهما كان تقديركم لأعمالى حسنا أو سيئا . فانى أرجوكم ألا تحسبوا أني كنت فى القيام بها متأثرة بنفوذ الملك على . وسواء أكنتم من أنصارى أم من خصومى فانى أضرع اليكم أن تشفقوا على ، وإنى من ناحيتي أغفر ذنب كل من أساء الى ، وألتمس منكم جميعا أن تصلوا من أجلى ... »

وعلى هذا النحو استمرت تخاطب من حولها من النظارة والقضاة ورجال الدولة ، حتى استدرت مآقيهم واستذرفت دموعهم . وقد بكى « كاردينال ونشستر » ، كما بكى « جين دى لوكسبرج » الذى باعها وكان حاضرا ، وبدا على « كوشون » التأثر الشديد ولكنه بالرغم من تأثره أعلن حكم الكنيسة عليها باعتبارها ملحدة ، ضالة ، ساحرة ، كافرة يجب تسليمها للدولة . وتسليمها للدولة يساوى فى عرفنا القضائى إحالة الاوراق على المفتى . لأن الكنيسة كانت تنتهى وظيفتها بانتهاء ثبوت الادانة . وعلى سلطات الدولة التنفيذ العملى .

وبعد أن فرغ « كوشون » من النطق بالحكم ، سلمت جان لقائد القوة باعتباره ممثلا للسلطة التنفيذية . ولم يمهلها القائد حتى تتم اجراءات صدور الحكم من الدولة عليها . بل اكتفى بأن قال للجلاد « قم بواجبك .. »

فألبسوها تاجا من الورق يشبه تيجان الأساقفة . وكتبوا حوله بحروف بارزة : « ضالة ، مرتدة ، رفضة ،عابدة أوثان » .

ولما تسلم الجلاد جان خرج جميع رجال الدين من المكان ما عدا « مرتين لدفينو » و « ازامبير دلابيير » فقد رغبا فى البقاء معها الى النهاية .

وفى منتصف الساعة الثانية عشرة صعدت جان منصة الاعدام بخطى ثابتة، ومن غير أن يساعدها أحد ! وكأنها كانت تصعد سورا من أسوار حصون العدو ... وعند ما بلغت القمة حيث السارية التى ستربط فيها ، التمست صليبا فلم تجد ، فتقدم اليها جندى انجليزى وكسر عصاته نصفين وجعل منها صليبا قدمه لها، فتقبلته منه شاكرة . ولكنها طلبت أن يؤتى لها بصليب من الكنيسة المجاورة ،فجاءها به « ماسيو » الذى كان يقوم بدور حاجب المحكمة وقام بمده اليها « ازامبير دى لابيير » بينما كان « لدفينو » واقفا بجوارها .

وبينما كانت جان فى أعلى المنصة ، والجلاد يستعد لشد وثاقها الى السارية ، تلفتت حولها كمن كان يتوقع هجوما حربيا على المدينة ثم قالت : « روان ! أخشى ماعساه يصيبك من السوء بسبب موتى ! »

وشد الجلاد وثاقها ، ثم أشعل النار فى الوقود المعد حولها ، وبدأ

الدخان يتصاعد . وهنا التفتت جان فوجدت « لدفينو » لا يزال بجوارها فودعته شاكرة عطفه ومحبته ، وطلبت منه أن يسرع بالابتعاد عن الخطر . وتكاثف الدخان حولها وامتد اللهيب اليها ... ولما اشتد . السعير صرخت من أعماقها قائلة : « لست ضالة ولا كافرة ! وإن ما تلقيته من الوحى كان من عند الله .. » . ولما بدأت النار تأكل جسمها أخذت تصيح بملء فيها « عيسى ! عيسى ! مريم ! مريم ! » وصارت تردد هذه الألفاظ حتى تدلت رأسها وفاضت روحها .

وشهد الجمهور المحتشد السنة النار وهى ترعاها حتى استحالت رمادا ، وقد تولاهم حزن عميق ووجوم بين ، مع أن مناظر حرق الكفار والملحدين كانت من المناظر المألوفة لديهم فى ذلك الزمن .

وكان « كاردينال أف ونشستر » قد أوصى الجلاد بان يجيد حرقها حتى لا يبقى لها أثر . وبالرغم من تنفيذ الجلاد للأمر بدقة تامة ، بقى قلبها سليما لم يحرق . فجمعه مع بقاياها والقى بها جميعا فى النهر طبقا لما تلقاه من التعليمات . وكان حرص الأنجليز على إخفاء كل أثر لها حذرا من تمكين الأهلين من اتخاذ بقاياها رقى وتعاويذ لهم .

ومن أغرب ماروى عن حرق جان ، أن الجمهور الذى كان فى بادىء الأمر يعتبرها كافرة ساحرة كما شاءت لهم الكنيسة أن يعتبروها لم يكد يراها تحرق ، حتى تبدل شعوره نحوها وغلبه الحزن . وشملته الكآبة ،

وكانت « روان » في يوم موتها تشبه مدينة أموات لا حياة فيها . وتجلت مظاهر الرزء الذى حل بها فى كل مكان . وقد سجل التاريخ لانجليزى اسمه « جين تريسارت Jean Tressart » أحد كاتمى السر أنه غادر ساحة الاعدام بعد حرقها وهو يقول « لقد هلكنا جميعاً فقد حرقنا قديسة ... » وكان الجلاد الذى تولى تنفيذ الحكم من أول المحزونين المكلومين ، وروى عنه أن ذهب الى « مرتن لدفينو » فى صومعته وصارحه بانه يشعر بأنه أصبح « محروما » لأنه حرق « قديسة » . أما «متشون» وقد كان أشد الناس وجداً عليها فقد كتب يقول .. « ما بكيت فى حياتى على مصاب كما بكيت على جان لما رأيتها تساق الى السارية المعدة لحرقها . وقد مكثت شهراً كاملا مشتت الفكر ، لا أملك زمام نفسى . ورأيت تخليدا لذكراها ان اشترى بالمال الذى أخذته أجراً (١) على عملى فى المحكمة كتاب صلاة أتلوه كلما صليت من أجلها ... »

(١) وبمناسبة ذكر «المال» الذى اخده «متشون» اجرا له على عمله كرئيس للكتاب نذكر ان « كوشون » كوفىء على عمله كرئيس للمحكمة باعطائه مبلغ ١٠٠٠ جنيه اما الاعضاء فلم تجاوز ما اخذه الواحد منهم ٢٠ الى ٣٠ جنيها . وامتاز «توماس كورسل» باعطائه مبلغ ١١٣ جنيها والحكومة الانجليزيه هى التى دفعت كل مصاريف المحاكمه من ابتدائها الى نهايتها ...

حياتها بعـــد موتها

ماتت جان حرقا بالنار كما أراد لها الانجليز ، وبعد أن حاكموها أمام المحكمة التى اختاروها لها ، ومن أجل التهم التى رموها بها ، وبعـد المحافظة منهم على الظواهر القانونية فى جميع أدوار المحاكمة .

وقد القوا ببقاياها فى اليم أملا فى محو أثرها فهل نالوا بغيتهم منها ؟

وهل محوا أثرها فعلا بحرقها والقاء ذراتها فى النهر ؟

وهل دانت لهم الرقاب بعد موتها ؟ أم هل لانت لهم الصعاب ؟

وهل استردوا ما فقدوه من شجاعة ؟ أو ما ضيعوه من بلدان ؟

كلا !

فان موتها أنهى حياتها الفانية . ولـكنه كان فتحاً لحياة لها خالدة . إنه أنهى عمرها المحدود ، وافتتح عهد خلودها غير المحدود . نعم بدأت جان بموتها حياة الذكرى . والذكرى للانسان عمر ثان . . .

وهكذا جرت سنة الله بأن يكون موت الشهداء مؤذنا بانتصار حقهم على باطل خصومهم .

وتدعيما للقول المتقـدم انقل اليـك ما كتبه جون لاموند Jhon Lamond وهو انجليزى فى كتابه عن جان دارك قال . . . « إن الرعب

لذى اوجدته جان فى قلوب الانجليز فى أثناء حياتها ازداد قوة بعد موتها . فان مجرد ذكر إسمها كان كافياً لزعزعة ثقتهم فى انفسهم ولزعزعة يقينهم فى الغرض الذى من اجله جاءوا يحاربون . . . »

وانتهز « بدفورد » عم ملك انجلترا ووصيه فرصة موت جان وظن ان سياسته فى تزييف جان ومليكها قد نجحت. واقدم على إقامة حفلة تتويج للملك الطفل هنرى السادس فى باريس . لكى يضع الفرنسيين امام الأمر الواقع، ولكى ينسيهم ملكهم « المزيف ». ولكن « بدفورد » وغير بدفورد من ساسة الأنجليز نسوا ان الروح التى بثتها جان فى فرنسا قد غيرت من روح الشعب، وجعلته يحس بما فى وجود الانجليز فى بلادهم وبين ظهرانيهم من عار وشنار يمسهم فى رجولتهم ، ويعتبر سبة لكرامتهم . فهم إن كانوا يريدون ملكا فملكهم يجب ان يكون فرنسيا مثلهم . وان الملك الذى اقامته قديستهم لا يعدل به احد . وكان نصيب بدفورد الفشل التام . وفى الواقع ان السياسة الانجليزية بعد موت جان أخذت فى التدهور والانحطاط ، ومنيت بالفشل يعقبه الفشل. وكانت أول بوادره إنفصال برجنديه عن انجلترا ، وانفصام ما بينهما من عرى المودة والتحالف . وسرعان ما انقلبت برجنديه من عدوة مناجزة للملك فرنسا الى صديقة مناصرة له . وكان هذا التحول ضربة قاضية أصابت النفوذ الانجليزى فى الصميم . وكانت اولى النتائج الباهرة

للتحالف الفرنسى البرجندى ان دخلت الجنود الفرنسية باريس فى سنة ١٤٣٦ ظافرة منصورة ، وتحققت بدخولها نبوءة جان التى صدرت منها فى جلسة ٣١ مارس ١٤٣١ كما مر بك . وكان الذين يقومون بقيادة الجيش الفرنسى فى انتصاراته ضد الانجليز هم القواد الذين شاركوا جان في انتصارها واقتبسوا منها طرقها ، وتشبعوا بروحها . أمثال «دنوا» و«لاهير» وغيرهم .

وفي تلك الأثناء أصيب الانجليز بضربة أخرى قاضية . وذلك بموت « بدفورد » وصى الملك، وهو الذى كان يمثل فكرة الاستيلاء على العرش الفرنسى وقد وقف حياته على تنفيذ فكرته ، فبموته ماتت الفكرة وخصوصا بعد الفشل الساحق الذى كانت جان سببه .

ولما كان تفصيل ما جرى بعد موت جان من الحوادث التاريخية لايدخل ضمن ما افردنا له هذا الكتاب ، فما على من يريد تفصيلا أو تحقيقاً لها إلا أن يرجع للمصادر التاريخية فيجد فيها طلبته . . . ويكفى لغرضنا هنا أن نذكر أن الانجليز أرادوا أن يستبقوا « نورمنديه » أقرب المقاطعات اليهم، ولكن الأهلين هبوا في وجههم ثائرين، انتقاما لما فعلوه بهم عند ماجمعوا منهم ما فرضوه عليهم من المال فدية لجان . ونذكر أيضا أنه فى سنه ١٤٤٩ هبت « روان » ثائرة فى وجه رجال الحامية الانجليزية وطردتهم منها . كما نذكر

نصراً مؤزراً ناله « ريتشمونت » القائد الفرنسى الذى اصلحت جان بينه وبين شارل السابع ، وكان قد أصبح من اكبر القوادوكان انتصاره على تالبوت(١)المشهور ، فى ميدان«كستيون» Castillon فى ١٧ يو ليه سنة ١٤٥٣ حيث حصد الانجليز حصداً ، ومات تالبوت نفسه فى الموقعة . وبهذه الموقعة فقدت انجلترا كل أملاكها فى فرنسا ماعدا مدينة «كاليه» وكان انتصار « كستيون » خاتمة المواقع فى « حرب المائة عام » التى نشبت بين الدولتين .

---

(١) كان فى ذلك الوقت يسمى ايرل شروز برى Earl of Shrewsbury

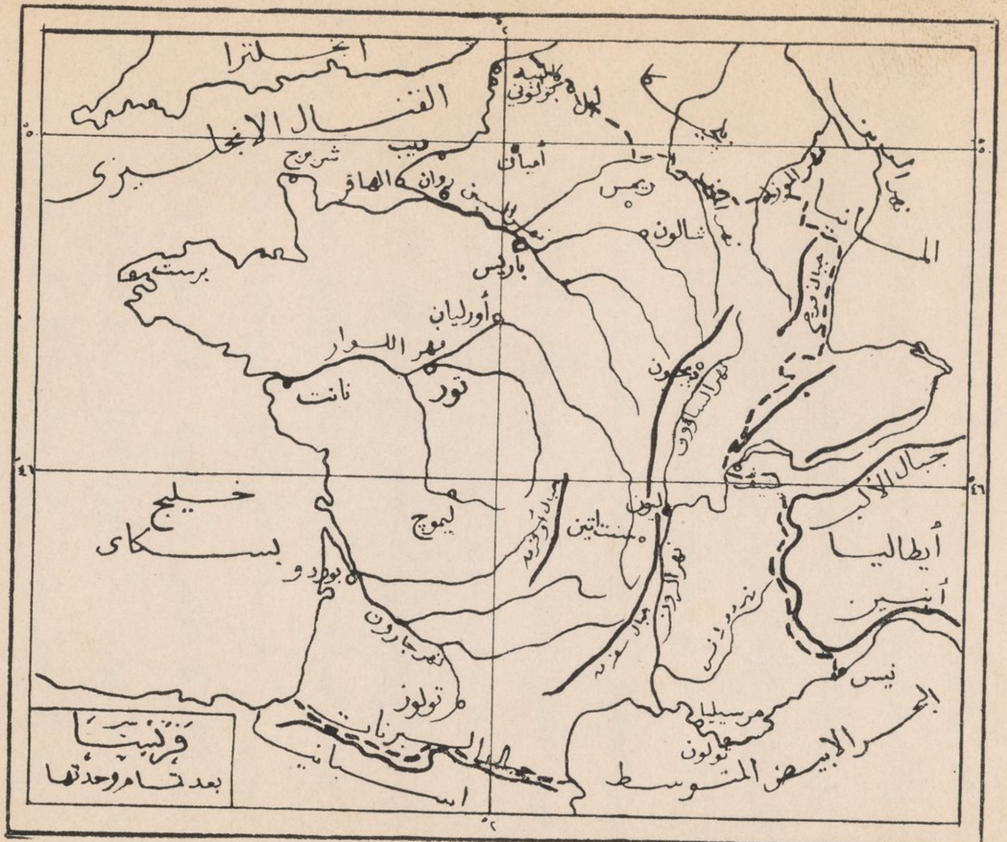

فرنسا
بعد تمام وحدتها
انجلترا
القنال الانجليزى
خليج بسكاى
ايطاليا
البحر الابيض المتوسط
باريس
أورليان
نهر اللوار
نانت
تور
ليموج
بوردو
نهر جارون
تولوز
مرسيليا
تولون
نيس
ليون
سنت اتين
ديجون
نهر الساؤون
شالون
ريمس
أميان
روان
الهافر
شربورج
برست
جبال الالب
اسبانيا

محاكمة جان دارك

بعد موتها

فى أكتوبر سنة ١٤٤٨ زار شارل السابع ملك فرنسا مدينة أورليان . ونزل فى بيت « جان بوشيه J. Bouchér » وهو على مايذكر القارىء البيت الذى نزلت فيه جان عند دخولها أورليان أول مرة . وكان نزول الملك فى ذات البيت الذى نزلت فيه جان ، هو من قبيل إحياء ذكراها . . وقد لوحظ بعد تلك الاقامة أن حالة الملك النفسية تغيرت تماما فنفض عنه غبار الخمول وخلع رداء التواكل ، وصار يخوض غمار المعارك ، ويقود الجيش بنفسه ، متحملا معه شظف العيش ومشقات القتال . . ! ويسنب المؤرخون هذا التحول فى طباع الملك الى زيارته أورليان ، كأن روح جان التى كانت تدفعه وتبث فيه الاقدام وهى حية ، عادت تنفخ فيه من همتها وعزمها وهى ميتة . ويضيف بعض المؤرخين الى هذا السبب ، سبباً آخر ساعد على التغيير الذى حدث . وذلك انه حوالى ذلك الوقت كان قد تخلص من نفوذ « لاتريموا ى » ورئيس الأساقفة اللذين كانا متغلبين عليه يقودانه إلى حيث شاءا وشاءت لهما أهواؤهما . فقد مات الأول فى سنة ١٤٤٦ ومات الثانى فى سنة ١٤٤٤ .

ولما زار الملك أورليان قابل السيدة « إزابل روميه » والدة « جان دارك » ، وكانت قد هاجرت اليها للاقامة فيها تلبية لدعوة أهلها الذين

دعوها للمقام بينهم ، لما علموا بما كانت تقاسيه من الضنك الشديد ، الذى أصابها من توالى الكوارث عليها . فقد رزئت بموت زوجها والد جان بعد موت جان بقليل ، لانه كان شيخا فانيا لم يحتمل الصدمة التى نزلت به فى ابنته . وفى ذلك الحين كانت السيدة « إزابل » قد بلغت من الكبر عتيا . وكانت طول الوقت تذكر ابنتها وما أصابها ، وكلما تحققت نبوءة من نبوءاتها تجددت لوعتها . ورددت ماوقع عليهامن ظلم وقسوة ، وصارت تسعى لدى الملك تارة ، ولدى البابا تارة أخرى ، لكى يمحوا العار والظلم اللذين نزلا بفتاتها . . . ولهذا السبب بعينه قابلت الملك فى أورليان ، وشكت اليه ما تشعر به من مرارة من بقاء عار الحكم الذى صدر فى « روان » ظلماً على ابنتها . وكان الشعب الفرنسى قد تنبه إلى وجوب محو العار عن الفتاة ، فكان يشارك أمها فى التماساتها التى كانت ترفعها للبابا فى كل عام ، أو للملك كلما سمحت الفرصة . وكان الشعور بالحيف الذى وقع على الفتاة يزداد استفحالا عاماً بعد عام .

وبعد زيارة أورليان أخذ الملك يهتم بصفة جدية بأمر إعادة النظر فى القضية . وفى مارس سنة ١٤٤٩ كان قد بدئ باعادة فحص الأوراق وسماع الشهود من جديد وجمع المعلومات المفيدة .

ولما سمع الانجليز باهتمام ملك فرنسا باعادة النظر في القضية

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

احتجوا لدى البابا ، وكانوا فى ذلك الوقت من اتباعه على اعتبار ان القضية قد بتت فيها هيئه مختصة طبقا للأصول المرعبة فى الكنيسة . وقد أمر البابا فعلا بوقف التحقيق فى المسألة حتى لا يغضب الانجليز.

ولكن شارل السابع كان قد تشبع بوجوب إعادة النظر فى القضية . فدبر له مخرجا يخرجه من مأزق اعتراض البابا على الاعادة . وذلك أنه اوعز الى والدة جان بان ترفع التماسا للبابا تعترض فيه على التهم التى وجهت لأبنتها . . فلم يسع البابا الا ان يجيبها الى طلبها . وقدم مندوب من قبله واشترك مع المدعى العام لمحكمة التفتيش واخذ يحققان فى الالتماس . وفى سنة ١٤٥٥ تعين البابا كاليكستس الثالث Calixtas وكان أجرأ ،من سلفه ، لا يخشى في الحق احتجاج الانجليز ولا غير الانجليز فكلف المندوب بان يبذل جهده فى معرفة الحقيقة . وارسل التعليمات الى رئيس اساقفة ريمس واسقف باريس واسقف كنستانس بان يشتركوا مع المحققين وان يبحثوا المسالة بحثا مستفيضا .

وفى ٧ نوفمبر ١٤٥٥ عقدت المحكمة فى كنيسة «نوتردام» في باريس وازدحمت الكنيسة بمن جاءوا يشهدون الجلسه . وجاءت والدة جان تتوكأ على ولديها بيبر وجين دى ليس . وتقدمت للمحكمة تلتمس منها بصفة رسمية مراجعة الحكم الصادر من محكمة روان فى سنة ١٤٣١ ضد ابنتها ، وختمت التماسها بأنها ترجو أن تنتصر العدالة وأن يسود الحق! واستمعت المحكمة لها والتأثر الشديد باد على جميع اعضائها ، لأن منظر

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
CAIRO

الأم التى بلغت السادسة والسبعين من عمرها وهى تجاهد مدافعة عن سمعة ابنتها يحرك النفس لا محاله الى اقصى حد ، ولم يتمالك كل من شهد الجلسة من أن يذرف الدمع السخين ، لما رأوا تلك الأم العجوز تدخل متوكئه وتقدم الالتماس للمحكمة و يداها ترتعشان . ومما أهاج شعور الجمهور وحرك اشجانه واطلق لسانه ، ان الأم لما وصلت أمام اعضاء المحكمة ارتمت على اقدامهم باكية، تسألهم العدل والانصاف لابنتها التى عاشت وماتت من أجل بلادها ومليكها .. وهنا صاح الجمهور صيحة ارتج لها المكان مطالبا المحكمة بان تلغى حكم « كوشون » ... وكان صوت الشعب في زمجرته الأخيرة يحمل فى طياته احتجاجاً قويا على الآباء الذين عاصروا جان واحتملوا العسف يقع عليها وهم ينظرون ...

وفى الحال شرعت المحكمة تدرس القضية فى عناية فائقة . واستمرت فى دراستها ستة أشهر كاملة تجمع المعلومات عن حياة جان من أول نشاتها في «دومريمى» الى آخر حياتها فى «روان» ، وقد استلزم ذلك سؤال الأحياء من رفاقها فى عهد الطفولة ، أمثال الصديقتين « هوفت » ، ومنجت » وكانتا لا تزالان على قيد الحياة . وسئل (خالها) دوران لاكسار وجين دى متز ودى بولنجى ودوق دالنسون الذى قدم للمحكمة

---

(١) وبلغ من هياج النفوس ضد « كوشون » فى تلك الاونة ان الناس ذهبوا فى هياج شديد الى قبره والقوا بعظامه فى « المجرور العمومى »

معلومات هامة عنها . وسئل « دنوا » القائد المشهور الذى وصفها بأنها كانت ذات شخصية مقدسة جعلتها خارقة للعادة وسئل «دولون» خادمها الأمين الذى أسر معها فى كومبين ، كما سئل قسيسها « بسكرل » الذى « اعترفت » له بكل أسرارها . وسألت المحكمة الأحياء من أعضاء المحكمة السابقة ، وكل من كان له صلة بالمحاكمة وشهد لها «لدفينو» «وازامبير دى لابيير» و «منشون» و «ماسيو» شهادات طيبة . ومن هذه الشهادات التى كانت تدون بكل عناية عرفت حقائق حياة جان دارك.

وفى ٧ يوليه ١٤٥٦ كانت المحكمة قد أتمت دراسة القضية — قضية رد الاعتبار ـ كما تعرف فى التاريخ . وفى سراى الاسقفية فى «روان» اجتمعت المحكمة وأصدرت حكمها الآتى ، وهو بعد تلخيص شهادة الشهود ينص على مايلى : « أولا فى سبيل العدالة تعلن المحكمة بان التهم المبدوءة بكلمة (المرأة المذكورة) فى نص الحكم السابق والتى كانت السبب فى الحكم على المتهمة (وذكر الحيثيات التى يشير اليها) كلها باطلة و يتحتم الغاؤها الغاء تاما . ونقضى بأن يعلن حكمنا هذا على النحو الآتي : اليوم فى فناء كنيسة «سنت أون» بعد صلاه عامة، ثم غدا فى ميدان السوق القديم (ساحة الاعدام) ويعقبه صلاة عامة ووضع صليب تخليدا الذكرى الشهيدة . . . »

وبهذا الحكم رفع عن سمعة الفتاة عار حكم « روان » . وكان أول

خطوة فى رضا الكنيسه عنها ذلك الرضاء الذى تدرج من سنة الى اخرى حتى رفعها الى مكان القديسيين

ولا يزال الزائر لمدينة « روان » حتى اليوم يرى على جدار سراى الاسقفية القديمة لوحتين فى الأولى الحكم الذى صدر فى ٢٩ مايو ١٤٣١ بدعوتها للحضور فى ساحة الأعدام فى اليوم التالى ، وفى الثانية حكم سنة ١٤٥٦ القاضى برد اعتبار جان اليها

وفرحت الأم العجوز فرحا عظيما بما نالته من ترضية لاسم ابنتها واسمها . وعاشت بعد الحكم سنتين وماتت فى أورليان ستة ١٤٥٨ في سن الثامنة والسبعين .

أما شارل السابع فقد كسب بالحكم الجديد كسبا عظيما أيضا ، إذ رفع به عن كاهله ما سجله عليه الحكم الأول من أنه تلقى الملك على يد ساحرة زنديقة . بيد أنه لم يعش بعد هذا الحكم طويلا ، إذ مات فى سنة ١٤٦١ فى سن الثامنة والخمسين و كانت حياته في سنيه الاخيرة منغصة بالمتاعب العائلية التى كدرت عليه صفو ما كان يحرزه من النصر فى ميادين القتال . . .

جان دارك بين الامتين

الانجليزية والفرنسية

من المسئول عن موت جان دارك ؟ الانجليز أم الفرنسيون ؟ وأى الفريقين يحمل وزر إعدامها بتلك الطريقة الوحشية البشعة ؟

إذا رجعت الى المصادر الانجليزية وجدتها إلا نادراً تلقى المسئولية على عاتق الفرنسيين ، وتحاول فى كثير من الحيطة والحذر أن تنقذ السمعة الانجليزية من وصمة العار الخالد ، وحجتها التى تبرزها تنحصر فى نسبة كل ماأصاب الفتاة من يوم أسرها الى يوم إعدامها الى الفرنسيين الذين قاموا به عن رضا وطيب خاطر . وتلك الحجة ظاهرها معقول . وقد اقتنع بها اللورد بركنهد الوزير الانجليزى المعروف ولذلك ختم قصته التى رواها عن حياة جان دارك بأن « موتها سيبقى أبد الدهر لطخة عار فى جبين فرنسا ... » . ولكن اللورد بركنهد المتطرف فى قوميته ، والمحافظ المستميت فى نزعته ، ليس بالحكم الذى ترضى حكومته فى مسألة تمس قومه كهذه المسألة .

ولكن ، هل كان عار مصرعها من نصيب فرنسا وحدها ؟ للرد على هذا السؤال نورد للقارىء ما كتبته مسز اوليفانت Ms Oliphant

في كتابها عن جان ،وهى بريطانية ولا يمكن أن تتهم بالتحامل على أبناء وطنها. قالت بعد أن أشارت الى ما يلصقه الكتاب من العار بانجلترا من جراء الدور الذى لعبته فى المحاكمة . . . « لا رغبة لى فى التقليل من ذنبنا ، ولا فيما ارتكبناه من ضروب القسوة ضد الفتاة المقدسة — وقد ارتكبنا فى هذا الباب الشيء الكثير — القفص الحديدى والسلاسل والحراس الغلاظ والسارية الخشبية التى شددنا وثاقها إليها . كل هذه كانت جرائم فظيعة وقعت منا ، نسأل الله والناس أن يغفروها لنا لأننا نقربها ونعترف اعترافا كاملا . . » ثم أشارت « مسز اوليفانت » الى نصيب فرنسا من العار . وكانت اشارتها حقة حيث قالت « إن معاقبة أسير الحرب (تشير إلى جان وقد كانت أسيرة حرب) عقاب المجرم العاصى ـ وهذه كانت أول خطوة خاطئة اتخذت ضد جان ـ كانت شائنة للطرفين الانجليزى والفرنسى ، ولكن أكبر العار فى هذا يحيق بالذى باع الأسير أكثر مما يحيق بالذى اشتراه ، كما يحيق إلى أقصى حد بأولئك الذين لم يحركوا ساكنا فى سبيل إنقاذ الأسير . . . » وتقصد الكاتبة أن ما يلحق الانجليز من عار شراء جان أقل بكثير مما يلحق الفرنسيين الذين باعوها لهم . . . والذين لم يعملوا شيئا لانقاذها . . وفى الواقع أنه لا يمكن تبرئة الفرنسيين من عار التقصير المخزى والعار الفاضح في حادث جان دارك . ولكن لا يمكن أن يذهب منصف الى الحد الذى ذهب إليه اللورد بركنهد فى طمعه بالبراءة التامة لبنى وطنه

مما لا يمكنه أن يقبل من الفرنسيين دعواهم فى أن رجالهم كانوا فى ذلك الوقت مسيرين لا مخيرين ، وانهم فعلوا ما فعلوه تحت ضغط العد والسياسى وجبروته العسكرى ...

وهكذا ذهبت جان فريسة لشهوة الانتقام من جانب ورذيلة نكران الجميل والجمود والاستخذاء من الجانب الآخر

وقد كان تقاعس الفرنسيين عن إنقاذ جان ، ولا يزال الى اليوم ، موضع دهشة المؤرخين ! وقد تولاه البعض بالشرح وقدموا له أسبابا شتى لخصها « مارك توين » فى قوله الآتى : ... « كيف أعلل هذا التقاعس ؟ أظن أنه لايوجد لهذا الجمود إلا تفسير واحد ، قد نجده اذا تذكرنا أنه في كل مرة كانت جان تتخلف لسبب من الاسباب عن مقدمة الجيش ، كانت عزيمته تفتر وهمته تقعد ثم يرتد يائسا مقهورا ، وأنه فى كل مرة كانت تتقدمه كان يكتسح كل شىء أمامه ، فاذا ماجرحت أو اشيع عنها أى سوء تولاهم الفزع وفروا مزعورين ، من هذا نستنتج أن الفرنسيين كانوا لم يغيروا بعد ما بأنفسهم تغييرا تاما حقيقيا ، وانهم كانوا في أعماق نفوسهم لايزالون متأثرين بما رزحوا تحته سنين عدة من نير الغاصب ومن توالى الهزائم عليهم ، الأمر الذى ولد فيهم فقدان ثقتهم بأنفسهم وبزعمائهم . ومن ثمة كانت ثقة الجند محصورة فى جان وفى جان وحدها ..!! فاذا ماذهبت ذهب كل شىء بذهابها ، وعادوا سيرتهم الاولى من الذل والخنوع ، أى أنها كانت منهم بمثابة الشمس التى

تذيب كتل الثلج وتحيلها حميما ساخنا طالما هى طالعة ، فاذا غربت عاد الماء ثلجا كما كان ... »

ولبث الانجليز يعتقدون في جان السحر والزندقة سنين عديدة وأجيالا كثيرة .. واستمر اسمها نيفا وثلثمائة سنة موضع اللعنة والتحقير، حتى اوائل القرن التاسع عشر لما بدأت مبادىء الحرية تنتشر وتزيل ماعلق بالاذهان من رجعية وجمود . وكم كان فكها ظريفا الاب برناردفوجان« Father Bernard Vaughan »الانجليزى عندما كتب عن جان دارك عبارته التالية : .. « قد حيرني دائما فهم السبب الذى حمل أبناء وطنى الذين حاربوا جان دارك على التشبث باعتبارها ملحدة ساحرة بدلا من اعتبارها بطلة قديسة . ألم يكن الأحرى بنا نحن الانجليز أن تهزمنا قديسة أرسلها الله من أن تهزمنا ساحرة يحركها الشيطان ... ! ؟ »

وفى القرن الحالى تغيرت عقيدة الانجليز فى «جان دارك» تغييرا كليا. ولا نكون مغالين أو مجازفين إذا قررنا أن خصوم الأمس قد أصبحوا يقدرونها ويرفعون من شأنها كما تقدرها فرنسا تماما ..

وفى الو قع أن جان فى حقيقة تاريخها لبثت مجهولة من فرنسا ومن العالم أجمع فى الاربعة القرون الأولى من ابتداء حياتها الخالدة . ولم تبدأ فرنسا ومن بعدها سائر البلدان فى فهم حقيقتها على الوجه الصحيح

إلا بعد أن اهتدى « جيل كشيرات Julés Quicherat » إلى محاضر قضية رد اعتبارها فى دار المحفوظات الاهلية بباريس . وعكف على حل رموزها ونقلها إلى الفرنسية الحديثة ، ونشرها للعالم المتمدين وتبعه فريق من الباحثين كان فى مقدمتهم « الأب أيرول Ayrolles » الذى كتب خمسة مجلدات عنها برهن فيها على أنها لم تكن بطلة مجاهدة فحسب بل كانت قديسة أيضاً ، وقد تبعه فى هذا البحث « كاردينال توشيه (١) » أسقف أورليان فى كتابه المسمى « قديسة الوطن La Sainte de La Patrie »(٢) وإلى هذا الأسقف يرجع الفضل فى تفهيم الكنيسة حقيقة جان من الوجهة الدينية ، حتى أنها رفعتها رسمياً إلى مصاف القديسين فى سنة ١٩٢٠ . وبين حرق الكنيسة لها فى سنة ١٤٣١ على اعتبار أنها كافرة ساحرة ، ورفعها لها إلى مرتبة القداسة فى سنة ١٩٢٠ يجد القارىء مجالا واسعاً للتأمل فيما شمل الأفكار والعقائد من تطور وتحول من الشىء إلى نقيضه ولو بعد حين .

وبعد أن نشر « Quicherat » محاضر المحاكمة بدأ الانجليز رويداً رويداً يغيرون عقيدتهم العتيقة فيها ، ومن ذلك أن « Hume » المؤرخ والكاتب المشهور ملأ ثمانية عشر صفحة من كتابه « تاريخ انجلترا » بتقريظها ووصف فيها الحكم الذى صدر ضدها « بالحكم الفاضح ! »

---

(١) مات فى سنه ١٩٢٦ (٢) طبع فى مجلدين سنة ١٩٢١

ومن بعد « هيوم » كتب « سوزى » R. Southey الشاعر المعروف قصيدته « جان دارك » ومن بعده وصفها « هالام » (١٨١٨) فى كتابه « نظرة فى حالة أوربا في خلال القرون الوسطى » بأنها الفتاة القروية التى هدمت سلطة انجلترا فى فرنسا . ومن بعد هؤلاء تتابع مديح الكتاب لها والاشادة بذكرها . . .

وفى أثناء الحرب العظمى ذهب أعضاء من مجلس النواب واللوردات إلى باريس ، وكان ذلك فى فبراير سنة ١٩١٦ ، وهناك تقدموا جميعاً ووضعوا اكليلا فخماً من الأزهار تحت أقدام تمثال « جان دارك » فى ميدان البيراميد «Place des Pyramides»

وقدقال « رديارد كبلنج » فى قصيدته « نشيد الى فرنسا Hymn » to France مشيرا إلى جان دارك بقوله :

That undying Sin we shared. in Rouen Market Place.

« تلك الخطيئة الخالدة التى تقاسمنا وزرها فى ساحة روان »

وكتب كبلنج أيضاً حوالى سنة ١٩١٦ رسالة إلى « ليون برتو M. Leon Berthaut » الروائى الذائع الصيت يشير فيها الى حادث جان دارك بنفس المعنى الذى ورد فى قصيدته المشار اليها آنفا حيث قال « لقد أخطأنا بان كنا السبب فى اعدامها ، ولكن روحها التى صعدت الى السماء هى التى أنقذت فرنسا ، وكانت سبباً فى توثيق الروابط بين بلدينا . . . »

أما شأن فرنسا مع جان دارك وتعلق الشعب بذكراها فمن تحصيل الحاصل البحث فيه ... وأمامك الميادين العامة فى المدائن والقرى وكنائس الذكرى هنا وهناك، والمآثر القومية التى يتردد ذكرها على كل لسان ، تنبئك عن المكانة التى تحتلها جان دارك فى قلوب الفرنسيين . ومن الحقائق المقررة أن الوطنية الحارة المعروفة عن الفرنسيين ترجع فى نشأتها وفى بروزها فى كل مكان وزمان الى الروح ومثل الوطنية التى بثتها جان دارك فيهم أثناء حياتها القصيرة ، و بعد حياتها بذكرياتها الخالدة . ولعل الكثيرين من القراء يذكرون الاحتفالات الهائلة التى أقامتها فرنسا حكومة وشعباً سنة ١٩٢٩ إحياء لذكرى مرور خمسماية عام على ظهور جان دارك . فقد مثلت فيها أدوار حياتها تمثيلا اشترك فيه الشعب الفرنسى بأسره . وقد جاملت انجلترا فرنسا فى ذلك الاحتفال باشتراكها فيه مجاملة كان لها أبلغ الأثر فى تنمية الصداقة بين الشعبين الكبيرين . هذا مع العلم بان البرلمان الفرنسى أصدر قراره فى سنة ١٩١٩ بجعل الاحتفال بيوم ٨ مايو وهو اليوم الذى رفعت فيه جان دارك الحصار عن أورليان «عيداً قومياً» لفرنسا .وقد جعل بيتها فى دومريمى ملكا للأمة وأقيمت لها فى موطنها كنيسة تذكارية كبرى .

الخـــــاتمة

فى مقـدمة الـكتاب وفى خلال فصوله ، وردت بعض عبارات تقديرية لجان وما قامت به من جلائل الأعمال . والواقع أن جان دارك قد حيرت ولا تزال تحير بشخصيتها الفذة ألباب فطاحل الـكتاب وأعلام المؤرخين . وتساوى فى الحيرة فى تفسيرها وتفسير أعمالها الذين رفعوها إلى مصاف الأبطال والقديسين ، والذين حاولوا أن يروا فيها شخصية عادية عاشت فى زمن وشبت فى بيئة لا يوجد فيها ما يدعو إلى استغراب أو استحالة ظهور أمثالها من الأبطال المغامرين . ولعل أصدق الكلمات التى قيلت في المعنى المتقـــدم هى كلمة « سنت بيف C. A. Saint Beuve (١٨٠٤ — ١٨٦٩) إذ يقول . . . « انك من أى النواحى نظرت اليها ومهما بذلت فى كبح تحمسك لها ، ألفيتها شخصية مؤثرة لا تجد فى التاريخ كله من هو اكثر استحقاقاً منها للرثاء والعطف والاعجاب . . . » . ولعل السر فى الحيرة فى أمر جان راجع إلى ما فى تاريخها من حوادث أغرب وأروع من الحوادث التى يخترعها الخيال الخصيب . فحين يقرأ المرء حوادث حياتها ويتعرف ظروفها ، تأخذه الروعة وتساوره الحيرة ، لأنه بينما هو موقن أن الوقائع صحيحة لا ريب

فيها ، يجدها وقعت على صورة لم يألفها إلا فى وقائع الخيال ، والخيال فى حدوده الواسعة الرائعه . قال «هنرى مرتين Henri Martin » عن جان أنه لم يظهر فى تاريخ العالم كله شخصية تماثل شخصيتها . وقرر « ليون دنس Leon Denis » بأن قصتها كبقية قصص الأنبياء والرسل ستظل منقوشة على صخرة التاريخ الخالدة . أما « برنارد شو » ذو العقل الجبار فقد رأى فيها لغزاً عز عليه حله وتفسيره . وقال عنها نابليون مفاخراً « ... لقد برهنت جان دارك للملأ على أن الأمة الفرنسية تقوم بالمعجزات إذا ما تهدد استقلالها بالخطر ... »

وليس من قصدى فى هذه الكلمة الختامية تقصى البحث فى تقدير جان دارك، وما قيل فيها مدحاً وهو الأغلب أو استنقاصا ، إنما أردت أن يلم القارىء المصرى بطرف من نواحى عظمة تلك المجاهدة الباسلة ، وأن يعرف لمحة من تاريخ فتاة هى من غير شك أنبل شخصية فى القرون الوسطى . ولست أشك فى أن القارىء الكريم ستأخذه الروعة عند تلاوته قصة تلك الفتاة التى دوخت انجلترا ، وقوضت أركان سلطانها فى مدة لم تتجاوز أحد عشر أسبوعاً ، هى كل المدة التى حاربتها فيها حرباً فعلية . وبدلت فيها نصرها خذلاناً ونجاحها الوطيد فشلا محققاً . وستخلب لبه سيرة الفتاة التى طبقت شهرتها الخافقين فى سن لم تتجاوز التاسعة عشرة ،أى فى مثل السن التى كان فيها الاسكندر أو

قيصر أو نابليون غير معروفين إلا فى أوساطهم الخاصة . وستثير حماسته أبناء تلك المجاهدة التى علمت أبناء وطنها أنهم إن أرادوا إنقاذ بلادهم من الكارثة التى تردت فيها وجب عليهم لكى يفوزوا بغرضهم أن يقاتلوا مستبسلين ، وأن يهاجموا مستميتين .

والآن أختم هذه الكلمة بل وأختم الكتاب كله ، بما ختم به الأب « برنارد فوجان Bernard Vaughan » كتابه عن جان دارك حيث قال ... « إن ما قامت به هذه الفتاة من الأعمال يحق أن تزدان به صحف التاريخ . وخصوصاً عند ما يقدر المرء الظروف التى اكتنفت تحقيق تلك الأعمال ، والصعاب التى اعترضتها فى الطريق ، والوسائل التى تذرعت بها لتحقيقها . إن فتوحات قيصر قد امتدت هنا وهناك ، ولكنه قام بها بوساطة جنود دروما المحنكين ، وكان هو نفسه جندياً عظيما . واكتسح نابليون جيوش أوربا المدربة ، ولكنه كان أيضاً جندياً مدرباً ، وقام على رأس قوات تلهبها وتلهمها روح الحرية التى خلقتها الثورة . أما جان دارك ، الطفلة فى سنها الأمية فى تعليمها ، والقروية الساذجة ، المجهولة من الدنيا ، فقد وجدت أمتها ترسف فى أغلال الظلم والضعف والخراب ، جنودها أشتات يائسة ، قلوبهم هواء من أثر الذل والاستعباد آجالا طويلة ، ووجدت على رأس هذه الأمة ملكا تنكر له الدهر حتى أنكره أبواه ، وأصبح العوبة فى أيدى

طغمة من السفلة والاوغاد يحركونه كما تتحرك الريشة فى مهب الريح وقد قادوه إلى الهاوية ولم يبق على ترديه فيها إلا حفرة واحدة. فما هى الا أن ظهرت على رأس تلك الأمة ووقفت بجوار هذا الملك، حتى أحيت منه ومنها العظام وهى رميم. ونهضت بالأمة من كبوتها، وقادتها هى ومليكها من نصر إلى نصر، وغيرت مجرى التاريخ. وضربت النفوذ الانجليزى فى الصميم. ثم استشهدت، وهى تحمل عن جدارة واستحقاق لقب « مخلصة فرنسا » ولا تزال تحمله حتى اليوم.

إلى أن قال . . « وأنى أختم هذا الكتاب مترسماً أثر جان فى دعوتها وحياتها وصفاتها، وكلى أمل خالص أن تبعث قراءة قصتها فى قلوب القارئين نور الايمان الصادق ونشوة الوطنية الحقة . . . أن ماحققته جان فى مقدورنا أن نحققه إذا ما ارتفعت بنا، كما ارتفعت بها هى من قبل، أجنحة الوطنية والدين . . . أيتها الفتاة المنقطعة النظير! انفخى فينا من روحك وبثى فينا من حماستك، لكى نحيا حياتنا ونموت فى سبيل الله والوطن !! »

I Can't Smile without You, I Can't Smile without You. I Can't Laugh and I Can't think about any heart or do anything. I feel bad when you're sad. I feel glad when you're glad. If You already knew what I'm going through I just Can't smile without you. You Came along Just Like a Song to brighten my day.

i15069114
b13214494

15 FEB 1987

DC
103
M9x

The American University in cairo
Library
November 02, 1993
0000029 1860